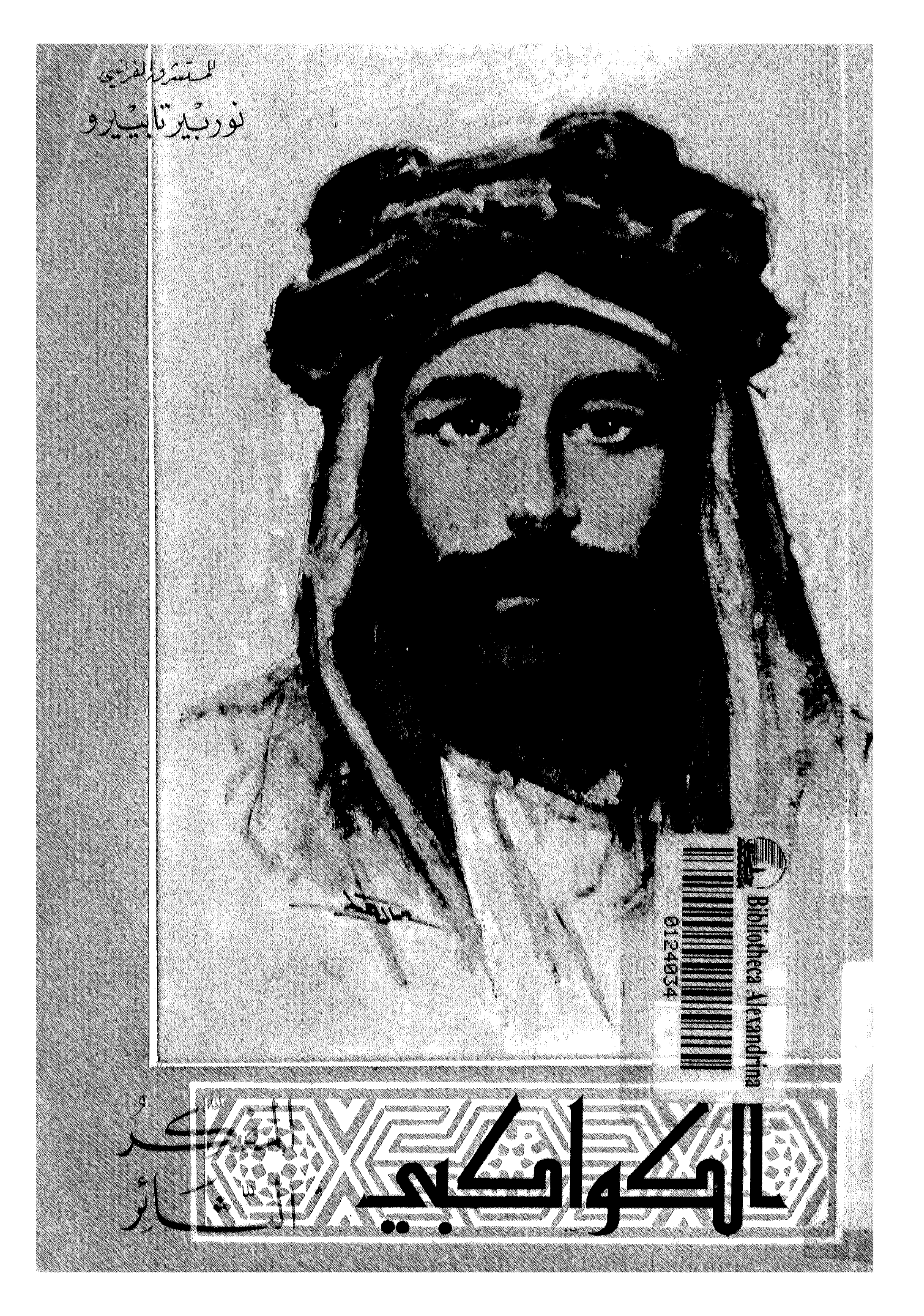

للمستشرق الفرنسي
نوربير تابييرو
الكواكبي
المفكر الثائر
Bibliotheca Alexandrina
0124034



الكواكبي المفكر الثائر



الكواكبي

المفكر الثائر

إسهام في دراسة الإسلام الحديث

للمستشرق الفرنسي

نوربير تابييرو

ترجمة

علي سلامة

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الثانية

بيروت ، حزيران (يونيو) ١٩٨١

مقدمة الناشر

رأينا إتماماً للفائدة المتوخاة من نشر هذه الدراسة القيمة عن الكواكبي : المفكر الثائر ، ان نلم إلمامة مختصرة بالأثرين الهامين الذين ألفهما الكواكبي وقد ضمنهما آراءه الاجتماعية والاصلاحيـة وهما :

« ام القرى » و « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » .

وقد كان بودنا نشر هذين الاثرين بنصهما الحرفي ، ولكن رأينا ان خلاصة وافية لهما تستطيع ان توفر على القارىء كثيراً من الجهد، وتسهل له تفهمّ الكثير مما ورد في نص هذا الكتاب عن آراء الكواكبي .

كما انها تجعل القارىء يحيط بذلك الإطار الكبير من الفكـر الاجتماعية الثورية التي ارادها الكواكبي ان تكون ناراً تحرق الفساد والانحلال ونوراً لمستقبل اسلامي عربـي افضل .

وقد أعدّ هذه المقدمة الاستاذ مصطفى قصاص .

« دار الآداب »



عبد الرحمن الكواكبي

ولد عبد الرحمن الكواكبي في ٢٣ شوال ١٢٧١ هـ. — ١٨٥٤ م. ، لأسرة قديمة العهد في حلب ، كان والده الشيخ احمد مسعود الكواكبي اميناً للفتوى في مدينة حلب ومدرساً في مسجدها وفي المدرسة الكواكبية ، اما امه فهي عفيفة بنت مسعود النقيب مفتي انطاكية. وقد توفيت وتركته صغيراً لا يتجاوز الخامسة من عمره ، فحضنته خالته صفية ، وكانت سيدة مثقفة حصيفة ، لها مشاركة في العلوم والمعارف فطبعت الفتى بطابعها ، وأثرت في شخصيته تأثيراً عميقاً ، وفتحت امامه آفاقاً واسعة للمعرفة .

تلقى الكواكبي دروسه الأولى في انطاكية وفي حلب في المدرسة الكواكبية حيث اتقن اللغة العربية الى جانب التركية والفارسية ، ولم يكتف بهذا بل اخذ يطالع منذ ذلك الحين كتب التاريخ والفلسفة . فأصاب من ذلك حظاً وافراً ، واظهر الى جانب عنايته بالعلوم اللسانية والدينية عناية خاصة بالشعر .

وقد سيطر على نفسه خلال مراحل شبابه الاهتمام بالسياسة ، فظهرت تباشير جهاده في وقت مبكر ، واتخذ لنفسه داراً يجتمع فيها الى اصدقائه

للتداول في شؤون البلاد ، وخص قسماً من وقته لخدمة مواطنيه .

دخل الحياة العامة موظفاً ، فعمل ما بين سنتي ١٨٧٥ – ١٨٧٩ محرراً عربياً ومترجماً تركياً لجريدة « فرات » الرسمية ، وكانت تصدر بالعربية والتركية .

ثم ما لبث ان تقلب في وظائف متعددة . فشغل ما بين عام ١٨٧٩ و ١٨٩٤ مناصب : عضو فخري في لجنة امتحان المحامين بحلب ، ورئيساً فخرياً للجنة المنافع العمومية ، ومدير اجراء حلب . وترأس في عام ١٨٩٤ كتاب المحكمة الشرعية ، كما ترأس في العام نفسه غرفة التجارة والزراعة والصناعة في حلب .

وفي سنة ١٨٩٨ عُين نائباً شرعياً لقضاء راشيا (وهي غير راشيا لبنان إذ تقع في منطقة الجزيرة بشمالي سوريا) . ولكنه أبى ان يتسلم هذه الوظيفة لأسباب نجهلها ، ولكن قد يكون الباعث الذي دعا الى تعيينه في هذا المنصب هو محاولة اقصائه عن حلب . فما كان منه الا ان تظاهر بتوجهه لاستلام مركزه وغادر بلاد الشام متخفياً ومتجهاً الى مصر او الاسكندرية على وجه اخص .

الى جانب هذه الأعمال الرسمية تمرس ببعض الأعمال الخاصة . فأنشأ في حلب سنة ١٧٧٦ جريدة « الشهباء » . اصدر منها خمسة عشر عدداً ثم ألغتها الحكومة لسلوكها مسلكاً حراً في معالجة القضايا العامة وتنديدها بالظلم والظالمين ، ثم لدفاعها عن حقوق الضعفاء .

ثم اصدر في ٢٥ تموز ١٨٧٩ جريدة اخرى باسم «الاعتدال» ورغم ان امتيازها لم يكن باسم الكواكبي ، فان الحياة لم تدم لها طويلاً فأوقفت وكانت تصدر بالعربية والتركية .

الكواكبي في مصر

أستقبل الكواكبي في مصر استقبالاً حافلاً ، وسرعان ما شارك في

الحركة الفكرية وانضم عضواً عاملا في جمعية الكتاب . ثم نشر كتابيه المشهورين : « ام القرى » و « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ».

وقد خطرت في ذهنه هنا — على ما يبدو — فكرة الاصلاح الهام في العالم الاسلامي ، فأراد قبل ان يخوض في هذا البحر الواسع التعرف الى مواطن ابناء دينه والاطلاع على حاجاتهم وطبيعة نفوسهم فرحل الى السودان وطوّف في سواحل افريقيا الشمالية وسواحل آسيا ، وجاء سوريا متخفياً ، حتى انه وصل في تطوافه الى الهند .

وفي عودته من الهند نزل سواحل الجزيرة العربية الجنوبية وسواحل افريقيا الشرقية ، فتيسر له من هذه الرحلات زاد وافر . وكان في اثناء تجواله يدون مذكراته على اوراق ليجمعها من بعد وينشرها . ولكن وفاته حالت دون تحقيق بغيته ، فصودرت وثائقه من منزله بايعاز من السلطان وبمساعدة سرية من قبل السلطة المحلية .

وكانت وفاته في سنة ١٩٠٢ ، ويُعتقد انه مات مسموماً .

« أم القرى »

ألف الكواكبي كتاب « ام القرى » في حلب . ونشر لأول مرة في مصر سنة ١٣١٨ هـ. — ١٩٠٠ م.

وعنوان هذا الكتاب الكامل هو : « ام القرى : وهو ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الاسلامية المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٣١٦ هـ.».

وقد تخيل فيه الكواكبي ان مؤتمراً عقد في مكة للتداول في احوال المسلمين في بلادهم واسباب تأخرهم .

وقد حضر هذا المؤتمر ممثلون عن جميع الأقطار الاسلامية ، حتى ان سكان ليفربول المسلمين قد ارسلوا من يمثلهم في هذا المؤتمر . وقد اسندت الرئاسة للعضو المكي ، وعهدت امانة السر الى « السيد الفراتي ».

والواقع الذي يبدو من دراسة هذا الكتاب ان الكواكبي كان موقناً بخوض معركة طويلة الأمد ، لأنه عرف تمام المعرفـة انه يقاتل عدو التطور من المتنفذين كما يقاتل الوقوفيين ، الذين ألفوا الحالة التي هم فيها فقبلوها واقبلوا عليها على انها افضل ما تيسر للانسان، لذلك يوجه كتابه هـذا الى الفئة الواعية المتنبهة البعيـدة عن التقليد المتبصرة في اسباب الامور .

يتخذ الكواكبي في هذا الكتـاب اسم « السيد الفراتي » نسبة الى الفرات ، ويعرض اهم القضايا التي تثير اهتمام العالم الاسلامي .

واول ما يتبادر الكواكبي الى ملاحظته ذلك الخلل او الضعف الذي عم جميع المسلمين . وبما ان الله جعل لكل شيء سبباً ، فلا بد لهذا الخلل الطارىء والضعف النازل من اسباب ظاهرة بينـة ، ويكفي ان نكتشف او نكشف عن هذه الاسباب لنزيل البواعث التي تؤدي اليه .

* * *

وصل الكواكبي الى مكة في اوائل ذي القعدة [1] . فوجد فيها اكثر الذين استجابوا للدعوة ممن كان قد اجتمع بهم في افاضل البلدان . وفي منتصف الشهر ، وهو موعد التلاقي ، قدم الباقون ما عـدا « الأديب البيروتي » فقد اعتذر لأسباب يقول عنها السيد الفراتي انها اسباب مقبولة، ولكنه لا يذكرها .

اما البلـدان التي تمثلت في هذا المؤتمر فهي : مراكش ، تونس ، القسطنطينية ، تفليس ، تبريز ، بكين ، دهلي ، كلكتا ، ليفربول .

---

[1] يشعر القارىء عند قراءة كتاب « ام القرى » ان المؤتمر قد حدث حقيقة ، ولكن الواقع ان هذا المؤتمر كان من نسج خيال الكواكبي . وقد اورد مؤلف هـذا الكتاب الذي نقدم له المستشرق نوربير تابييرو عدة دلائل على ان «ام القرى» من وضع وتخيل الكواكبي (راجع الفصل الاول) .

عقد المؤتمر اثني عشر اجتماعاً من منتصف الشهر الى آخره ، غير اجتماع الوداع ، وجرت فيه مذاكرات مهمة ضبطت وسجلت بدقة ، وما كتاب ام القرى إلا سجل لهذه الاجتماعات .

الاجتماع الأول

عقد في يوم الاثنين ١٥ ذي القعدة ١٣١٦ وبلغ عدد الحاضرين اثنين وعشرين وكلهم يحسنون العربية ، ووزع على الاعضاء بيان مطبوع على مطبعة جيلاتين يحتوي على اسم كل منهم ونسبته ومذهبه ومزيته .

وجاء في هذا البيان مفتاح الرموز التي يحتاج اليها المجتمعون ، وهذا المفتاح يقصد به الارقام الهندية وما تدل عليه من معان عربية لأنه توجد مقاطع في « ام القرى » لم تكتب بالحروف العربية وانما كتبت بالارقام. ولكل ذلك دلائل لا نستطيع فهمها، لان هذا البيان وزع على الاعضاء ولم تصلنا نسخة منه .

اتخذ المؤتمر شعاراً له كلمة « لا نعبد إلا الله » . وعينوا « الاستاذ المكي » — كما ذكرنا — رئيساً لهم ، و « السيد الفراتي » اميناً للسر.

افتتح المؤتمر بخطبة القاها « الاستاذ المكي » مرحباً بالحاضرين ومشيراً الى ان تقهقر المسلمين يعود الى الف عام او اكثر ، وما بقيت الشريعة إلا لما قامت عليه من اسس متينة . وقد رافق هذا الانهيار من الجانب الاسلامي نهضة كبرى في العالم الغربي ، ولا سيما في العلوم والفنون ، فزادت قوتها على قوة الشرق ونشرت نفوذها على اكثر البلاد والعباد من مسلمين وغيرهم ، وما زال المسلمون في سباتهم الى ان استولى الشلل على كل اطراف المملكة وقرب الخطر من القلب (ويقصد المكي بالقلب الحجاز) .

وقد كانت المباحث العامة التي دار حولها الجدل في الجلسات جميعها

ووضعت خطوطها الأولى في هذه الجلسة هي القضايا الاربع التالية :

١ – بيان الحالة الحاضرة ووصف اعراضها بوجه عام .

٢ – بيان ان سبب الخلل النازل هو الجهل الشامل .

٣ – توجيه اللوم الى الامراء والعلماء .

٤ – انذار الأمة بسوء العاقبة .

يلاحظ « الاستاذ المكي » ان هذه المقاصد القولية قد استوفت حقها من العرض وان الأوان قد آن لاستثمار هذه الاقوال في الانتقال الى مرحلة التنفيذ . ويحبذ الاكتتام في العمل لتتسنى الحرية لكل منهم في التعبير عن فكرته . ويقترح ترك اختلاف المذاهب جانباً واقتراح صريح الكتاب وصحيح السنة لكيلا يتفرقوا في الآراء ، وليكون ما يقررونه مقبولاً عند الجميع .

ويغتنم الرئيس هذه الفرصة لينبه انظار الحاضرين الى ان تصوير الواقع القاتم يجب ان لا يثبط الهمم لأن الارتفاع ممكن والنهضة ميسرة ، ويتمثل بشعوب كثيرة مرت في مرحلة رقاد وسبات عميق ثم استيقظت من بعد كالرومان واليونان ، كما يذكر الطليان واليابانيين وسواهم من الامم التي استرجعت شأنها بعد تمام الضعف .

ويتبين من كلام الرئيس المكي انه يؤمل بوقوع هذه النهضة في اقرب وقت ، ولكنه يحدد لها موعداً او موعدين : الموعد الاول لا يتجاوز عشرين سنة وخلال ذلك تتمكن الشعوب الاسلامية من تحصيل العلوم الحديثة التي بواسطتها تبنى اركان او ركائز المجتمع الجديد ، ثم تتطلب هذه المرحلة الانبعاثية عشرين سنة اخرى لتكوين جيل جديد يقوم على مبادىء خلقية متينة .

وهنا يتوقف « الاستاذ المكي » قليلاً ليعرض اهمية الجمعيات في مثل هذه الحركات . وهنا يردد المعنى القريب من قلب السيد « الفراتي » والذي ذكره في كتابه طبائع الاستبداد ، من ان الافراد يفشلون في

الحركات العامة ، ولا ينجح بها سوى الجمعيات لأنها اقوى من الافراد.

وفي نهاية خطبته يطلب الرئيس من الحاضرين التفكير في سبب الفتور ليبحث هذا السبب في الجلسات المقبلة ، وينتهز هـذه الفرصة ليوحي بوضع جدول يتضمن امهات المسائل الرئيسيـة التي يجب ان تبحث في الجمعية ، وهي هذه وعددها عشر :

١ ــ موضع الداء .

٢ ــ اعراض الداء .

٣ ــ جراثيم الداء .

٤ ــ ما هو الدواء ؟

٥ ــ ما هي وسائل استعمال الدواء ؟

٦ ــ ما هي الاسلامية ؟

٧ ــ كيف يكون التدين بالاسلامية ؟

٨ ــ ما هو الشرك الخفي ؟

٩ ــ كيف تقاوم البدع ؟

١٠ ــ تحرير قانون لتأسيس جمعية تعليمية .

الاجتماع الثاني

عقد الاجتماع الثاني بعد الاول بيومين في ١٧ ذي القعدة ١٣١٦ . وفي بدايته يتكلم الرئيس المكي فيعرض حالة المسلمين في جميـع بقاع الارض ويرى ان الفتور او الخمول ملازم للمسلمين من اي قوم كانوا او اينما وجدوا وكيفما كانت شؤونهم الدينية او السياسية او المعاشية. فاذا وجدنا اقليمين متجاورين او ناحيتين في اقليم ، او بيتين في قرية ، اهل احدهما مسلمين ، والآخر من غير المسلمين نجد الاولين اقل من غيرهم نشاطاً وانتظاماً في جميع شؤونهم الحياتية الذاتية والعامة . ونجدهم اقل اتقاناً من

نظرائهم في كل فن وصنعة . مع محافظة المسلمين على امهـات المزايا الاخلاقية كالامانة والشجاعة والسخاء .

فما هو سبب هذا الفتور وشيوعه بين المسلمين حتى توهم كثير من الحكماء ان الاسلام والنظام لا يجتمعان .

هذا هو المشكل العظيم والاساسي الذي يجب ان تجد له الجمعية حلاً فاذا اهتدت الى اكتشاف السر حاربته بما تيسر لها من قوى .

عندئذ اخذ كل من الاعضاء يذكر رأيه في هذه القضية معيناً البواعث التي ادت الى هذا الخمول والفتور .

قال « الصاحب الهندي » : إن الخمول مرافق لشعوب اخرى غير المسلمين ، في افريقيا ، وفي آسيا الوسطى ، ويذكر ذلك على سبيل التعزية.

اما « الفاضل الشامي » فيرد هذا الداء الى بعض القواعد الاعتقادية والاخلاقية مثل عقيدة الجبرية ، يريد ان يقول بذلك ان الانسان مُسير غير مخير وهذه العقيدة تكفي ليبقى الانسان على حالته التي اراد له الله ان يبقى عليها فيقول : الله اراد ان ابقى في هذه الحالة من الانحطاط. كما يرد الشامي هذه الحالة الى الحث على الزهد في الدنيا والقناعة باليسير من الرزق .

« البليغ القدسي » يرد السبب الى تحول نوع السياسة الاسلامية، فقد كانت نيابية اشتراكية اي ديموقراطية ، فصارت بعـد الخلفاء الراشدين ملكية مقيدة بقواعد الشرع وصارت اشبه بالحكومات المطلقة . فتفرقت كلمة الأمـة فطمع بها اعداؤها وصارت معرضة للحروب الداخليـة والخارجية معاً .

« الحكيم التونسي » يعيد السبب الى تأصل الجهل في معظم الأمراء المترفين الذين ضلوا السبيل .

اما « المولى الرومي » فيطيل الكلام ويعتقد ان البلية في فقد الحرية حتى حُرّم لفظها . ويحدد الحرية تحديداً عصرياً بقوله : هي ان يكون

الانسان مختاراً في قوله وفعله لا يعترضه مانع ظالم . ومن فروع الحرية تساوي الحقوق ، ومحاسبة الحكام باعتبار انهم وكلاء عن الشعب ، وعدم الرهبة في المطالب وبذل التضحية . ومن فروعها ايضاً حرية التعليم والخطابة والمطبوعات والمباحث العلمية . فاذا فقد الشعب الحرية يسأم حياته فيستولي عليه الفتور .

الاجتماع الثالث

عقد الاجتماع الثالث يوم الخميس في ١٨ ذي القعدة ١٣١٦ فتابع « المولى الرومي » كلامه فنسب مصيبة المسلمين وتأخرهم الى العلماء الرسميين الذين اطلق عليهم اسم « الجهلة المعممين » . اذ جعلوا المراتب وقفاً عليهم يتوارثونها أباً عن جد ويطلقون على انفسهم الالقاب الرنانة ويماشيهم السلطان في جهلهم ، حتى انهم جعلوا التدريس والارشاد والوعظ والخطابة والامانة وسائر الخدمات الدينية كالعروض تباع وتشرى وتوهب وتورث يبيعها القضاة اذا شاؤوا لمن يريدون .

ومن اهم دسائس المتعممين انهم ينفقون وقتهم في ايغار صدور الامراء فيؤكدون لهم ضرورة الاستمرار على الاستقلال في الرأي وان كان مضراً ، ويزينون لهم ان مشاركة الأمة في تدبير شؤونها واطلاق حرية الانتقاد يخل بنفوذ السلطة ويخالف السياسة الشرعية .

بعد ان ينتهي « المولى الرومي » من الكلام يعقبه «الرياضي الكردي» فيرى ان سبب الفتور لا ينحصر في وجود هذه الفئة المخادعة من العلماء بل مرده تقصير المسلمين في العلوم المادية . هذه العلوم التي ترتكز عليها الحضارة في الوقت الحاضر ، في حين ان القرآن يتضمن حضاً على طلب هذه المعارف واشارات واضحة الى التعرف على اسرار الكون .

ثم يتكلم « الفقيه الافغاني » فيقول : ان الداء العام هو الفقر قائد

كل شر ورائد كل نحس . الفطرة الاسلامية صالحـــة ، والأرض غنية والمعادن كثيرة ولكن القوة المالية مفقودة ، وبهذه القوة وحدها تحصل العلوم وتستثمر الارض . ويضيف الى ذلك ان الشريعـة الاسلامية مبنية على ان في اموال الاغنياء حقاً معلوماً للبائس والمحروم يؤخذ من الاغنياء ويوزع على الفقراء (يقصد الزكاة) . أما الحكومات الاسلامية فقـــد قلبت الموضوع رأساً على عقب اذ جبت الضرائب من المعوزيـــن لتغدق الاموال على الموسرين .

وهنا ينبري « السعيد الانكليزي » للكلام . فينكر الفقر على المسلمين ويرى ان التشريع قد ضمن المساواة والاصلاح الاجتماعي الذي يطالب به الغرب على اختلاف احزابـــه . غير ان الداء الاصيل في رأيه كامن في اهمال المسلمين متممات المجتمع ، لان الغرب لم يتوصل الى الحالة الـــتي بلغها الآن إلا لأنه عني بالامور الآتية :

١ ــ تخصيص يوم في الاسبوع للبطالة ، لتحصل بين الناس الاجتماعات وتنعقد الندوات .

٢ ــ تخصيص ايام لتذكر اعمال العظماء من الماضين تشويقاً للتمثل بهم.

٣ ــ اعداد ساحات ومنتديات تسهيلاً للاجتماع والمذاكرة والتظاهر.

٤ ــ ايجاد متنزهات عامة واقامة حفـــلات رسمية ومهرجانات بقصد البيع والشراء مما يؤدي الى اجتماعات بين مختلف الطبقات .

٥ ــ ايجاد المسارح للعبر والوقوف على الوقائع .

٦ ــ نشر تاريخ الشعب لاثارة حب الوطن في النفوس .

٧ ــ المحافظة على الآثار القديمة واقتناء النفائس المشعرة بالمفاخر .

٨ ــ اقامة النصب التي تشير الى الوقائع الفاصلة او الشخصيات البارزة.

٩ ــ تشجيع النشر في الجرائد للوقوف على جميع الاحداث وتنوير الأذهان .

١٠ ــ بث الحماسة في الأغاني .

وبعد ان يسوق المندوب الانكليزي هذه القضايا ، ويجعلها من البواعث الرئيسية التي ادت الى النهضة في الغرب يلاحظ ان المسلمين قد اهملوا استعمال هذه الوسائل .

وعند ذلك ينبري للكلام « الامام الصيني » فيلاحظ باقتضاب كلي ان سبب الفتور العام هو استحكام الاستبداد في الامراء واهمالهم اهل الشورى.

اما « العالم النجدي » فيعلق على ما ذكر من الاسباب فيؤكد ان الباعث الاساسي الذي دعا المسلمين الى الانحدار في الوقت الحاضر هو التحريف الذي طرأ على دينهم حتى استولى عليه التشويش وتطرق اليه الشرك الخفي بحيث مست الحاجة الى اعادة النظر في كل ما تسرب الى العقيدة في نوافل .

الاجتماع الرابع

عقد هذا الاجتماع يوم السبت في ٢٠ ذي القعدة من السنة نفسها ، وفي هذا الاجتماع دُعي المندوب النجدي لمتابعة بحثه وتفصيل فكرته فقال: ان النوع الانساني مفطور على الشعور بوجود قوة غالبة عاقلة لا تتكيف، وهي تتصرف في الكائنات على نواميس منظمة . فالعامة يعبرون عن هذه القوة بلفظ (الطبيعة) والراشدون يعبرون عنها بلفظ (الله) . وهذا الشعور يختلف في الناس قوة وضعفاً حسب مراتب الادراك فيهم او حسبما يتلقون عن غيرهم وذلك هو (الضلال والهداية) . على ان الباري تعالى قدر اللطف ببعض عباده فأوجد بعض افراد من البشر يميزون في تصور توصيف هذه القوة تمييزاً كبيراً فصاروا هداة للناس وهم (الانبياء) .

من هؤلاء الانبياء محمد بن عبد الله الهاشمي الذي بلغ المسلمين رسالة الله ، ولم يكتم منها شيئاً . ومن اهم قواعد الدين انه محظور على المسلمين ان يزيدوا على ما بلغهم اياه رسول الله او ينقصوا منه . لكنه

ترك لهم حرية التصرف في الشؤون الحيويـــة مع رعاية القواعد العمومية كعدم الاضرار بالنفس او بالغير والرأفة بالضعيف والسعي وراء العلم النافع والعدل في الحكم .

وهنا دخل المندوب النجدي في بحث طويل عن الشرك وماهيته واثره في العقيدة ليتوصل من ذلك الى وصف بعض حالات المسلمين الحاضرة التي تشبه حالات المشركين في العصر الجاهلي . فقـــد استبدلوا بالاصنام القبور وبنوا عليها المساجد والمشاهد وأرخوا عليها الستور يطوفون حولها مقبلين اركانها ؛ ويذبحون عندها القرابين وتشد اليها الرحال .

ومنهم من اتخذ الواحاً فيها أسماء معظميهم مصدرة بالنداء تبركاً من نحو : يا علي ، يا شاذلي الخ ..

ومنهم جماعة لم يرضوا بالشرع المبين فابتدعوا احكاماً في الدين سموها علم الباطن او علم الحقيقة او علم التصوف .

ومنهم فئة اخترعوا عبادات لم يأت بها الاسلام ، كما ان منهم من اتخذوا دين الله لهواً ولعباً فجعلوا منه التغني والرقص ونقر الدفوف ولبس الأخضر والاحمر واللعب بالنار والسلاح يخدعون بذلك البسطاء ويسترهبون الحمقاء .

ومنهم قوم اعتبروا البلادة سلاحاً والخمول خيراً ، والخبل خشوعاً ، والجنون منتهى مراتب الكمال .

ثم ختم كلمته قائلاً : هـذه هي حالات السواد الاعظم من الأمـــة وكلها إما شرك صراح او مظنات اشراك .

الاجتماع الخامس

عقد يوم الاحد في ٢١ ذي القعدة من السنة نفسها وقد بدأه الرئيس بتفويض لجنة من اعضائها : السيد الفراتي والسعيد الانكليزي لوضع قانون

دائم للجمعية ، وقد اختارهما لعلمها ووقوفها على مباني الجمعيات القانونية ولا سيما الغربية المعروفة باسم (اكادميات) .

ثم تكلم (السعيد الانكليزي) فذكر كيف ان جماعة من البروتستانت وهو منهم (اصلاً) يقيمون في ليفربول انتقلوا الى الاسلام ودانوا به. ثم تكلم عن نشاط هـذه الفئة ومسعاها لنشر الدين في اوروبا واميركا ولا سيما بين البروتستانت . وطلب من رفاقه الاعضاء ان يزيدوه علماً بالاسلام لينجح في مهمته الا وهي نشر الدين الاسلامي .

وهنا يدور جدل بين الحاضرين يتناول بالتفصيل القضايا الطارئة في فهم النص القرآني والتفسير ، كما تتعلق بالاجتهاد والاستنباط والرأي والمذاهب الفقهية ، وما علقت به من التخريج والتفريع وقياس النظير على النظير .

الاجتماع السادس

عقد يوم الاثنين في ٢٢ ذي القعدة ١٣١٦ ، وقد اثار فيه (الشيخ السندي) قضية التشديد التي يعمد اليها الفقهاء بحيث بات المسلمون في ارتباك عظيم واعتقدوا انهم ليسوا من الناجين لتعذر تطبيق جميع العبادات والمعاملات على ما يتطلبه الفقهاء

وقد تأدى عن هذا التضييق ان صار المسلم لا يرى لنفسه فرجاً الا بالالتجاء الى الصوفية التي تهوّن عليه الدين كل التهوين ، ثم ما يلحق بالصوفية كالانسحاب من الحياة العملية والبعد عن العمل والجهد مما يؤدي الى انهيار المجتمع .

وهنا يخوض المجتمعون في بحث مطول يتناولون فيه قابلية الاسلام للتطور وتحجر المسؤولين عنه ، ويتفقون على انه اذا تيسر وجود فئة متنورة من دعاة الاسلام لتوصلت في قليل من الزمن الى نقل الملايين

للدين الاسلامي . ويتمثلون على صحة قولهم بفضل الاوروبيين الذين يعتنقون الشريعة الاسلامية ويعملون على بثها بحكمة وروية ، ويتفقون على ان من الحكمة ان نلتمس للضرورات احكاماً اجتهادية فيأمر بها الامام ان وجد والا فالسلطان ليرتفع الخلاف بين المذاهب المتعددة . ويلاحظ ان هذه القوانين تعمل بها الأمة ما دام المقتضى باقياً.

بمثل هذا التدبير الذي لا يأباه الشرع ولا تنافيه الحكمة يزول التناقض والتفاوت بين الفقهاء وتتوحد المشارب والاهداف في المجتمع الاسلامي ، ويسلم الشرع من التضارب والتلاعب . وحينئذ يتحقق ان الخلاف في الفروع رحمة .

الاجتماع السابع

عقد يوم الاربعاء في ٢٤ ذي القعدة ١٣١٦ . وفي هذا الاجتماع يحاول السيد الفراتي ، الذي لم يتدخل في الاجتماعات السابقة بالمناقشات إلا نادراً، تلخيص المناقشات وتركيز الفكرة المتبادلة عن الاسباب التي ادت الى انهيار المسلمين وخمولهم ، فينزلها في ثلاثة انواع :

١ — اسباب دينية
٢ — اسباب سياسية
٣ — اسباب اخلاقية

فالاسباب الدينية هي :

١ — تأثير عقيدة الجبر في افكار الامة
٢ — تأثير المزهدات في السعي والعمل
٣ — تأثير فتن الجدل في العقائد الدينية
٤ — تشديد الفقهاء المتأخرين في الدين خلافاً للسلف
٥ — ادخال العلماء المدلسين على الدين مقتبسات وبدعاً متنوعة

٦ — تهوين غلاة الصوفية الدين وجعلهم اياه لهواً ولعباً
٧ — اعتقاد منافاة العلوم الوضعية والعقلية للدين الاسلامي

أما الاسباب السياسية فهي :

١ — السياسة المطلقة دون تحمل المسؤولية
٢ — حرمان العلماء العاملين وطلاب العلم من الرزق والتكريم
٣ — التفاوت الاجتماعي وقلب موضوع اخذ الاموال من الاغنيـــاء واعطائها للفقراء
٤ — ابعاد الامراء للأحرار وتقريبهم المتملقين والاشرار
٥ — حصر الاهتمام السياسي بالجباية والجندية وحدهما

أما الاسباب الاخلاقية فهي :

١ — الاستغراق في الجهل والارتياح له .
٣ — انحلال الرابطة الدينية وفقد التربية الدينية والاخلاقية .
٣ — فقد القوة المالية الاشتراكية بسبب التهاون في الزكاة .
٤ — التباعد عن المكاشفات والمفاوضات في الشؤون العامة .

ثم انتقل السيد الفراتي الى بيان الاسباب السياسية والادارية التي جرت الخلافة العثمانية الى الخراب في العناوين التالية :

١ — توحيد قوانين الادارة والعقوبات على اختلاف طبائع اطراف المملكة واختلاف الاهالي في الاجناس والعادات .
٢ — التمسك بأصول الادارة المركزية مع بعد الاطراف عن العاصمة، وجهل رؤساء الادارة في المركز احوال تلك الاطراف المتباعدة وخصائص سكانها .
٣ — تفويض الامارات الكبرى ببعض البيوت المعينة ولمن لا يحسن ادارتها لأجل ان تنفر الرعية من الامير الحاكم ، فلا تتفق معه ضد الدولة .

٤ – التمييز الفاحش بين اجناس الرعية في المغنم والمغرم كهضم الدولة العثمانية حقوق العرب في المناصب والارتزاق من بيت المال مع انهم ثلثا رعيتها .

٥ – الضغط على الافكار المتنبهة بقصد منع نموها وسموها واطلاعها على مجاري الادارة .

٦ – تمييز الاسافل فضلاً واخلاقاً وعلماً وتحكيمهم في الرقاب الحرة وتسليطهم على اصحاب المزايا .

٧ – ادارة المصالح الهامة بدون استشارة الرعية ولا قبول مناقشة فيها.

الاجتماع الثامن

عقد يوم الخميس ٢٥ ذي القعدة ١٣١٦. وفيه استأنف السيد الفراتي الكلام مشيراً الى ان اعظم اسباب الفتور في المسلمين جهلهم كيف يحصل انتظام المعيشة لانـــه ليس فيهم من يرشدهم الى شيء من ذلك بخلاف الامم المتقدمة .

وفي هذا القسم من كلامه يتوقف السيد الفراتي طويلاً عند الاخلاق النظامية والمناقب المسلكية كالانضباط والاتقان والنظر الى الحياة نظرة جدية وكل ما تحتاج اليه الحياة الاسلامية لتسمو وترتفع الى درجـــة الحضارة العصرية . ويرى ان ترك النساء جاهـــلات من بواعث هذا الانحلال ، وربما كان اكبر سبب لانحلال اخلاق الامراء من المسلمين قد اتاهم من جهة الامهات والزوجات فهو يقول :

« كيف يرجى من امرأة نشأت رقيقة ذليلة ان تترك بعلها وهو في الغالب اطوع لها من خلخالها ان يجيب داعي شهامة او مروءة ، او ان تعزز في رؤوس صبيتهـا ميولاً سامية او تحمسهم على اعمال خطرة » (ص ١٨١) .

الاجتماع التاسع والعاشر والحادي عشر

عقد الاجتماع التاسع يوم السبت في ٢٧ ذي القعدة ١٣١٦ وقرىء فيه قانون الجمعية فقرة فقرة وجرت المناقشات حول بعض القضايا واستغرقت هذه القراءة والمناقشة الجلسة بكاملها ثم الجلستين العاشرة والحادية عشرة.

الاجتماع الثاني عشر

عقد يوم الاثنين ٢٩ ذي القعدة ١٣١٦ وفيه اعيدت قراءة القانون كما انتهى اليه المجتمعون بعد المناقشات الطويلة في الجلسات الثلاث السابقة واطلق عليه اسم « قانون جمعية تعليم الموحدين » . وهو يتضمن مقدمة وفصلاً اول في تشكيل الجمعية وفصلاً ثانياً في ميادين الجمعية ، وفصلاً ثالثاً في مالية الجمعية ، وفصلاً رابعاً في وظائف الجمعية وخاتمة .

وقد ظهرت الدعوة الى اقامة خلافة عربية بأجلى مظاهرها في هذا القانون ... وقد جاءت هذه الدعوة في القرار رقم ٦ الذي انبثق عن اجتماع الوداع المنعقد في رابع ايام العيد . كانت الجمعية قد قررت بعض امور ينبغي ان تسرد ولا تذاع ، غير انها رأت ان يلحق بهذا السجل (اي ام القرى) القرار الذي اشرنا اليه ومما جاء فيه :

«وحيث كانت الجمعية لا يعنيها غير امر النهضة الدينية ، بناء عليه رأت من الضرورة ان تربط آمالها بالجزيرة العربية وما يليها واهلها وان تبسط لأنظار الامة ما هي خصائص الجزيرة واهلها العرب وذلك لاجل رفع التعصب السياسي او الجنسي ولأجل ايضاح اسباب ميل الجمعية للعرب».

ويتبع ذلك ذكر ستة وعشرين سبباً بتفضيل العرب على سواهم من الشعوب اهمها : ان الجزيرة هي مشرق النور الاسلامي وانها انسب المواقع لأن تكون مركزاً للسياسة الدينية لتوسطها بين اقصى آسيا شرقاً وأقصى

افريقيا غرباً . وانها اسلم الاقاليم جنسيـة واديانا ومذاهب . وانها ابعـد الاقاليم عن مجاورة الاجانب . وسكانها اعلم المسلمين بقواعد الدين وانهم اقدم الأمم مدنية بدليل سعة لغتهم وسمو حكمتهم وانهـم احرص الأمم الاسلامية على الحرية والاستقلال وانهم اعرف الأمم بأصول الشورى في الشؤون العمومية ، واهداها الى اصول المعيشة الاشتراكية .

وبهذا ينتهي كتاب « أم القرى » .

* * *

طبائع الاستبداد

يلاحظ الكواكبي في مستهل كتابه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» ان السياسة علم واسع جداً يكاد لا يحيط به أو بأطرافه احد من المفكرين لتشعبه وانقسامه الى فنون ومباحث .

وهذه السياسة عرض لها كثير من القدماء عرضاً عـاماً او استطراداً في بعض كتبهم المعنية بالموضوعـات التاريخية او الادبية او الجغرافية او الفلسفية . فاذن ليس ثمة مصنف مستقل بكامله يدور حول هذا المبحث وانما كانت المبـاحث السياسية تأتي استطراداً لموضوع هام آخر يتعلـق بالفنون الاخرى .

ويلاحظ الكواكبي ايضاً تقصـير العرب في هذا الموضوع فيقول : ظل هذا الموضوع بعيداً عن اذهان العرب الى ان اقبل الاوروبيون فخاضوا في هذا العلم خوضاً عميقاً وجمعوا متفرقـه وفصلوا ابوابه وخصوا كل باب منه ببحث مطول ، كما عينوا اتجاهاته العامة فأدرجوها تحت ابواب كهذه : السياسة العامة ، السياسة الخارجية ، السياسة الداخلية ، السياسة الادارية والاقتصادية والحقوقية وسواها من متفرقات هذا العلم .

وهكذا نرى ان هذا العلم الذي لم يخض فيه الباحثون خوضاً مفصلاً في العصور القديمة يصبح في الوقت الحاضر لدى هؤلاء الاوروبيين موضوعاً

اثيراً . وقد سار بعض الشرقيين على خطاهم واقتدى بهم بنوع خاص جماعة من الاتراك .

اذن فالاتراك هي الفئة الشرقية التي بحثت في هذا الموضوع ووضعت مؤلفات خاصة بعلم السياسة .

وظل العرب مقصرين في هذا الميدان لا يجول فيه إلا عدد قليل جداً امثال رفاعة الطهطاوي في كتابه « الذهب الابريز في رحلة باريز » ، وخير الدين التونسي ، واحمد فارس الشدياق ، وسليم البستاني ، وسليمان البستاني .

هذه هي الشخصيات العربية الخمس التي عنيت بالبحث السياسي ثم اخذ عددهم يزداد مع الزمن لانتشار الصحافة في الاقطار العربية ، ولكن احداً من هؤلاء لم يتوقف عند قضية تأتي في رأس القضايا السياسية وتتناول الاستبداد بدراسة مفصلة لحاجة العرب الى فهم هذا الموضوع وادراك الاختلاف بين الواقع الذي فيه يعيشون والاماني المعقودة على المستقبل .

واذ انبرى الكواكبي الى الخوض في هذا الخضم فهو لم يتوقف طويلا عند الفصول الفرعية وانما يعنى بالعناوين العامة على امل ان يأتي من بعده من يتابع السير في الطريق الذي نهجه ويعالج ما تبقى من القضايا الاخرى . ولذلك فهو يحصر بحثه في العناوين التالية :

طبيعة الاستبداد .
لماذا يكون المستبد شديد الخوف ؟
ما تأثير الاستبداد على الدين ؟
ما أثره في العلم ؟
ما أثره في المجد ؟
ما أثره في المال ؟
ما أثره في الأخلاق ؟

ما أثره في الترقي ؟
ما أثره في التربية ؟
من هم اعوان المستبد ؟
هل يتحمل الاستبداد وكيف يمكن التخلص منه ؟
بماذا ينبغي استبدال الاستبداد ؟
ما هي طبائع الاستبداد ؟

* * *

في مقدمة هذا الكتاب يركز الكواكبي النتائج التي انتهى اليها الدارسون في مختلف الموضوعات المعدة للبحث وبنوع خاص في تحديد الاستبداد وتعيين خصائص الحكومة المستبدة .

ما هو الاستبداد ؟

يقول الكواكبي : « الاستبداد هو اقتصار المرء على رأي نفسه في ما ينبغي الاستشارة فيه » . وهو من الصفات الرئيسية . في الحكومة المطلقة التي تتصرف في شؤون الرعية دون حساب تؤديه ولا خضوع للمراقبة والتحقيق. وقد ظهرت في مختلف انواع الحكومات ومنها التي تدعي الحكم باسم الشعب .

الاستبداد والدين

يلاحظ الكواكبي في الدراسات والمقالات التي وقف عليها وكتبها الفرنجة ان هؤلاء يتفقون على ان الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الديني ، وتجمع بينهما رابطة قوية غايتها اذلال الانسان وترويضه .

ولكن الكواكبي ، اذ جمع بين الاستبداد والدين فهو لا يقصد الدين الخالص من الشوائب، وانما يقصد الدين الذي يمثله بعض رجاله المتمسكين بالقشور دون اللباب . ان الدين الذي يمثله هؤلاء والاستبداد يسيران في خط واحد ، والاتفاق واضح بينهما لأن الأول يتحكم في الضمائر والثاني يسيطر على الاجسام .

يؤكد الكواكبي هذا الرأي ويبرهن على صحته برجوعه الى امثلـة مقتبسة من التاريخ القديم ولا سيما من التوراة والانجيل . ولكنـه لا يقر الباحثـين فيما يرتبط بالقرآن وان صدقوا في ملاحظتهم ان رجال الدين المسلمين والحكام على اتفاق تام في ارهاق الشعب وسلبه حريته .

يوضح الكواكبي فكرة السياسيين الأجانب بقوله : ان التعاليم الدينية (ويقصد الديانتين اليهودية والنصرانية) تدعو البشر الى الرهبة من قوة عظيمة تنسحق امامها الشخصية الفردية . وينبري رجال الدين فيجعلون من انفسهم واسطة لبلوغ هذا الخالق الجبار ، ولانفتاح ابواب السماء . ولا تتم هذه الواسطة إلا بتقديم التعظيم والارزاق . وهذا عين ما يفعله المستبدون السياسيون فهم يسترهبون الناس بالتشامخ ويؤلهونهم بالقهر حتى يصبحوا في نظر العامة مثالاً للخالق البعيد المنال الذي يرضون منه بكل تصرف غاشم . فتتشابه في الاذهـان صورة المعبود والحاكم ، ولا يرون لأنفسهم حقاً في مراقبة المستبد ، كما انه لا يحق لهم مراقبة الخالق .

هذه الظاهرة هي التي دعت ، في الأمم الغابرة ، الى منـاداة بعض المستبدين بالالوهية . وهذا الحاكم الغاشم يتخذ في معظم الأحيان اتباعاً له من رجال الدين يعينونه في عمله ويبررون تصرفه في نظر نفسه . ويتمثل على ذلك بعدد كبير من الملوك والسلاطين الغربيين والشرقيين الذين غالوا في تقديم رجال الدين لما جنوه من ورائهم .

وهكذا يوافق الكواكبي المفكرين الاحرار القائلين بأن بين الاستبدادين السياسي والديني ، علاقة لا تنفصم فمتى وجد احدهما في امة جر الآخر

اليه ، ومتى زال زال رفيقه .

ويرى الكواكبي ان الفلاسفة اليونانيين هم اول من فكر في الافادة من هذه الحالة فسعوا جاهدين في التحايل على ملوكهم المستبدين وحملهم على قبول الاشتراك في السياسة بترويجهم فكرة الاشتراك في الالوهيـة التي اخذوها عن الاشوريين ومزجوها بأساطير المصريين فخصوا العدالة بإله والحرب بإله آخر والبحار بثالث الخ ... فتأدى عن هذا من بعد مطالبة الناس ملوكهم بأن تكون ادارة الأرض شبيهـة بادارة السماء مما دعا الى ظهور الجمهوريات . وكذلك فعل الرومان .

هذه الموازنة بين الحكومة السماوية والحكومة الارضية ادت الى ادعاء المشعوذين من الحكام خصائص الالوهية. غير ان اليهودية والنصرانية قضتا نوعاً ما على هذه الميول المنحرفـة في الطغاة والمستبدين ولكنهما لم تنجحا نجاحاً تامـاً في انتزاع الرواسب الوثنية من النفوس ، ولا سيما في بعض عهودهما عندما ساعد رجال الدين المتنفذين في ارهاق الشعب واذلاله .

ولكن عندما جاء القرآن قلب الاوضاع لأنه هـدم التشريك هدماً تاماً ، ووضع اصول الحريـة وارسى قواعد الديمقراطية ، وسار الخلفاء الراشدون وبعض الامويين والعباسيين والايوبيين على هـذا النهج السليم القويم، لانهم فهموا معنى القرآن وعملو به واتخذوه إماماً، وهو مشحون بتعاليم تحض على مقاومة الاستبداد وعلى إحياء العدالة .

هذا الدين لم يبق على صفائه وجلائه بل تسربت اليه الشوائب مع الزمن فأصبح عرضة للتعديل والتبديل ، ونتج عن العناصر الدخيلة ضعف المراقبة والتغاضي عن اعمال الحكام فأفسح لهم المجال في الاستبداد وتجاوز الحدود.

الاستبداد والعلم

في هذا الفصل يشبه الكواكبي المستبد بالنسبة الى رعيته بالوصي الخائن القائم على ايتام اغنياء ، فكما ان الوصي على اموال الايتام لا يريد ان

يبلغ هؤلاء المساكـين رشدهم حتى لا يستقلوا بأموال اهلهم ، كذلك الحاكم المستبد يحاول جهده ابقاء الرعية متأثرة بالقوانين الظالمة فلا تتوصل للحرية .

ويرى الكواكبي : ان ليس من اهداف المستبد ان تتنور الرعية بالعلم ، فظلام الجهل يعتبر من افضل المراتع للاستعباد . والعـلم فضاح للشر ، يولد في النفوس حرارة وفي الرؤوس شهامة .

أما موقف المستبد من العلوم فيرى الكواكبي ان موقفه يختلف ازاءها باختلاف طبيعة العلم . فهناك مجموعة من المعارف لا يقاومها المستبد. بل يشجع على الخوض فيها ومنهـا : علوم اللغة وعلوم الديـن . يقول الكواكبي : ان هذا النوع من المعرفة يصرف الناس عن الاهتمام بشؤون الدولة .

أما العلوم التي ترتعـد نفسه منها فهي علوم الحياة : العلوم الفلسفية والنظرية والعقلية والتاريخ .. وغيرها من العلوم التي تمزق ستائر الجهـل وتفتح الابصار على واقع الحياة . فالمستبد عاشق للخيانة والعلماء عواذله . وهو يبغض العلم لنتائجه كما يكرهه لذاته، لأن الطاغية في تألهه واعتداده بنفسه ينظر الى العلماء فيحس بالفارق الكبير بينه وبينهم فيما يتعلق بالفهم والادراك ، فلهذا يحـاول ان يدمر هؤلاء العلماء الذين ينصرفون لعلوم الحياة .

من هذا يتضح ان بين الاستبداد والعلم حرباً مستعرة : يسعى العلماء في نشر المعرفة ويجتهد الطغاة في إطفاء نورها . والطرفان يتجاذبان العوام أو الشعب .

وهنا يحاول الكواكبي أن يحدد لنا مفهوم لفظـة العوام . من هم العوام ؟ انهم اولئك الذين اذا جهلوا خافوا ، واذا خافوا استسلموا . وهم الذين متى علموا قالوا ، ومتى قالوا فعلوا .

فالاستبداد والعلم اذن ضدان متغالبان، فكل ادارة غاشمة تسعى جهدها

في إطفاء نور العلم وحصر الرعية في الظلام الدامس . إلا ان جو الارهاب هذا لا يمنع من ظهور بعض العلماء الذين يسعون جهدهم في تنوير أفكار الناس .

ثم يقول الكواكبي : إن أخوف ما يخافه المستبد في بلاد الغرب من العلم هو أن يعرف الناس حقيقةً ان الحرية أثمن من الحياة . ويلاحظ أن المستبدين الشرقيين يعصف الخوف بنفوسهم . ومـا تغطرسهم إلا مظهر لاخفاء مركب النقص في طبيعتهم . وهم على العموم يرتجفون من صولة العلم ، وكأن اجسامهم من بارود وكأن العلم نار .

الاستبداد والمجد

في هذا الفصل يتناول الكواكبي بالتوضيح العلاقة التي تصل الاستبداد بالمجد ، فيرى ان المجد ينقسم الى قسمين : مجد وتمجد .

فالمجد هو احراز المرء مقام حب واحترام في القلوب . فهو اذن ، من هذه الناحية ، مطلب شريف مستحب ، وله لذة روحية تعادل لذة العبادة والمعرفة وامتلاك الاراضي والأموال. وهذا المجد لا ينال إلا بنوع من البذل ، ويقصد بالبـذل التضحية في سبيل الجماعة . وافضل تعبير عن هذا البذل هو السخاء بالجهد وبالمال . ثم في الحالـة القصوى السخاء بالنفس . ولذلك نرى بعض هؤلاء السعاة وراء المجد يضحون بحياتهم إما في ساحات القتال وإما في مجالات اخرى .

هـذا المجد ميسر في عهد العدل لكل انسان على حسب استعـداده وهمته ، وينحصر تحصيله في زمن الاستبداد بمقاومة الظلم حسب الإمكان.

أما التمجد فهو في تعريف طريف للكواكبي : أن ينال المرء جذوة نار من جهنم كبرياء المستبد ليحرق بها شرف الانسانية. هو تلك الغطرسة التي تسيطر على بعض الأفراد الذيـن ينالون الأوسمـة أو يطلقون على

أنفسهم الألقاب الرنانة ، وما وصلوا الى ذلك إلا بالتزلف على اعتاب المستبدين . هو أن يصير الانسان مستبداً صغيراً في كنف المستبد الكبير.

فالمتمجد يخدع العامة ويخدع نفسه بأنه حر في شؤونه فيتحمل الاساءات والاهانات التي تقع عليه من قبل المستبد ، ويحرص كتمها للتمويه على الشعب . وهكذا يكون المتمجد عدواً للعدل ، نصيراً للجور . وهذا هو قصد الطاغيـة الذي يصطنع الاتباع ليتمكن بواسطتهم من السيطرة على الأمة .

ثم ينتقل الكواكبي ليبين الطريقة التي يلجأ اليها المستبد لإيجاد طبقـة من المتمجـدين فيقول : إن هذه الطبقة ضرورية لقيام الاستبـداد .. فالمستبد يستمجد احياناً بعض افراد من ضعاف القلوب ، وينتخب العمال والأعوان من الأسافـل الذين يماشونه في غرائزه ولهذا يقال : الاستبداد دولة الأوغاد . وقد يستمجـد المستبد بالمناصب والمراتب بعض العقـلاء الامناء ظناً منه بأنهم ينفعونه بدهائهم، ثم يخيب نظره فيهم فينكل بهم، ولا يطمئن خاطره إلا باستعمال الأُصلاء الذين توارثوا أباً عن جد خدمة الظالم وتسهل اموره .

يستعمل المستبد مع الأصلاء سياسة الشد والإرخاء والالتفات والأغضاء، كي لا تبطرهم النعمة ، ثم يلقي الفساد بينهم لكي لا ينقضوا عليه ، وينتقم من بعضهم باسم العدالة ارضاءً للناس ، والنتيجة أن المستبد يذلل الاصلاء بالترف حتى يجعلهم يترامون بين رجليه ، ثم يتخذهم لجاماً لتذليل الرعية ، ويكون تصرفهم مع الرعية المحكومـة كتصرف صاحب الأمر معهم . يحكمون بالظلم ويستبدون ويختلسون ويحتالون .

والواقع أن الحكومة المستبدة تكون طاغية في كل فروعها من الملك أو الأمير الى الشرطي أو الفراش أو كناس الشوارع، ولا يكون كل صنف من هؤلاء إلا من أسفل أهل طبقته اخلاقاً . وكلما اشتد ظلم الطاغية ، احتاج الى عدد كبير من الأعوان ليساعدوه في الضغط والإرهاب .

الاستبداد والمال

يبدأ الكواكبي هـذا الفصل بعبارة بليغة فيقول : « لو كان الاستبداد رجلاً وأراد أن يحتسب وينتسب لقال : انا الشر ، وابي الظلم ، وامي الاساءة ، واخي الغدر ، واختي المسكنة ، وعمي الضر ، وخالي الذل ، وابني الفقر ، وبنتي البطالة ، ووطني الخراب ، وعشيرتي الجهالة » .

ثم يلاحظ بعد ذلك أن الانسان نسي ربه وعبد المال والجاه وجعلها منيته ومبتغاه .

وبالنظر الى أن المال هو الوسيلة الموصلة للجاه ، كاد ينحصر همّ الانسان في جمع المال ، ولهذا يقال عنه إنه معبود الأمم . ويتمثل على ذلك بما جاء في كتب التاريخ من أن كاترين الروسية شكت في أحـد الأيام الى جماعة من خلصائها ضعف بيت المال وانهيار الضرائب ، فقيل لها : إن أفضل طريقة لملء صندوق الدولة هي حمل النساء على الخلاعة. ففعلت ذلك واحدثت انواعاً غريبة من الكسوة ، واكثرت من المراقص والحفلات ، فهب الشبان للعمل وكسب المال لصرفه على ربات الجمال . يقول الكواكبي : في مدة خمس سنوات تضاعف دخل الخزينة الروسية واتسع للأمبراطورة مجال الاسراف .

وفي مقطع آخر يحاول الكواكبي أن يحدد المال بالنسبة الى الطوائف التي تعنى به فيرى أن المال عند الاقتصاديين ما ينتفع به الانسان، وعند الحقوقيين ما يجري فيه المنع والبذل ، وعند السياسيين ما تستعـاض به القوة ، وعند الاخلاقيين ما تحفظ به الحياة الشريفة .

ثم يخوض الكواكبي في أهم ما في هذا الباب فيتناول التفـاوت في توزيع الثروات ، فيرى ضرورة الأخـذ من الغني لإعطاء الفقـير بحيث تقرب الطبقات من التساوي . وهنا لا يفوته أن يقول : إن الشريعـة الاسلامية قد تنبهت الى هذا الواقع الاجتماعي ففرضت على الاغنياء ضريبة

هي الزكاة تحاول بواسطتها رفع الطبقة الفقيرة في درجات الرقي .

ويبدو الكواكبي في هذا الفصل من دعاة توزيع الأرض وحصر الملكية الزراعية متمثلاً على ذلك بأن حكومة الصين مع ما هي عليه من اختلاف في نظامها لا تجيز قوانينها أن يمتلك الشخص الواحد اكثر من مقدار معين من الأرض لا يتجاوز خمسة أفدنة مصرية .

ومن المبادىء الأساسية التي ينادي بها الكواكبي ويود تطبيقها في المجتمع الاسلامي ألا يكون التمول (جمع الثروات) تضييقاً على حاجيات الغير ، أي أن يتخذ من الكماليات وسيلة لانتزاع ما هو ضروري من يد الآخرين . وأن يكون احراز المال بوجه مشروع وألا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير لأن الإفراط في الثروة مهلك للأخلاق الحميدة في الانسان. ومن هنا يشدد الكواكبي على تحريم الربا رغم اشارته الى أن المجتمع العصري يقوم في اسسه الاقتصادية على وجود المصارف وعلى العلاقات بين هذه المصارف والصناع والتجار .

ويلاحظ الكواكبي أن الحرص على التمول يخف كثيراً عند مواطني الحكومات العادلة المنتظمة، ولكن تحصيل الثروة في عهد هذه الحكومات عسير جداً وقد لا يتأتى إلا عن طريق الربا والاستثمار والاحتكار والاستعمار .

ويشتد الحرص على جمع الثروات في عهد الحكومات المستبدة حيث يسهل تحصيل الثروة بالسرقة من بيت المال وبالتعدي على الحقوق العامة .

ومن فِكَرِه البارزة ان الثروة الكبيرة شرٌّ كلها في الحكومة العادلة لأنها باقية ونامية مع الوقت ، وهذا ما يؤدي الى حدوث الأحزاب الانقلابية الغريبة المنادية بالتساوي في الحقوق وتوزيع الثروات[1] . لهذا نرى اصحاب الثروات الكبرى في الدول المستبدة يحاولون جهدهم اخفاء ما لديهم من مال خوفاً عليه من السلب .

---

[1] يبدو أن الكواكبي قد تأثر بالدعوة الاشتراكية التي قويت في اواخر القرن التاسع عشر .

الاستبداد والأخلاق

يلاحظ الكواكبي أن العلاقة بين الاستبداد والأخلاق هي علاقة سلبية ، فالاستبداد لا يقتصر أمره على كبت الحريات والتصرف بشؤون الدولة تصرفاً كيفياً بل يتعدى كل ذلك الى افساد الخُلق البشري وتشويه الفضائل . فالاستبداد يجعل الانسان حاقداً على قومه لأنهم عون الاستبداد عليه ، ويكره وطنه ويشيع القلق في نفسه لأنه لا يملك مالاً غير معرض للسلب ، ولا عرضاً غير معرض للاهانة .

ثم يلاحظ أن الاستبداد يسلب الراحة الفكرية ويمرض العقول ولا سيما في العوام الذين يصل بهم الأمر الى عدم التمييز بين الخير والشر .ويبلغ بهم تبلبل الفكر الى أن مجرد آثار الابهة والعظمة التي يرونها على المستبد واعوانه تخلب أبصارهم . ومجرد سماع ألفاظ التفخيم في وصف الحاكم يدفعهم الى الانصياع بين يديه كأنهم الماشية أمام الذئب . ويشبه العوام بالفراشات التي تتدافع نحو النار لترتمي فيها منتحرة . يقول ان موقف افراد الشعب شبيه كل الشبه بموقف هذه الفراشات .

هذا التشويه الذي يطرأ على أذهان العامة يشبه تشوهاً آخر لا تخلو منه عقلية فئة من الخاصة ، لا سيا هؤلاء المؤرخون الذين يسمون المدمرين السفاكين فاتحين ، ويعدونهم ابطالاً منقذين ، وينظرون اليهم نظرة إجلال واحترام لمجرد انهم أهرقوا الدماء ، ودمروا المدن ، وقضوا على المدنيات .

ثم يرد الكواكبي على أقوال بعض الأفراد الزاعمين أن الاستبداد يلين الطباع ويلطفها بدليل هذا الأمان وهذه السكينة التي تعم البلدان الخاضعة للحكم المستبد . والحق ان ذلك – كما يقول – يحصل من فقد الشهامة لا عن فقد الشراسة فهو يعلم الطاعة كرهاً وجبناً ، إذ ليس للفرد ارادة أو اختيار . أما ما يزعمه هؤلاء من أن الاستبداد يربي

النفوس على احترام الكبير وتوقيره ، فان ذلك متأت عن البغض لا عن ميل وحب .

وهنا يأتي الكواكبي بتشبيه جميل يشبه فيه أثر العدالة في الخلق البشري بفعل البستاني في انماء الشجرة ، فالأقوام كالأجسام إن تركت مهملة تزاحمت اشجارها وتغلب قديمها على ضعيفها فأهلكه . والحكومة المستبدة كالحطاب الغريب همه الحصول على الفائدة العاجلة ولو باقتلاع الاصول ولا يرجى منه سوى الفساد .

ثم يتساءل كيف ترقى الأخلاق في شعب المستبد وأساس الخلق القويم وجود نهج معين يتبعه الانسان في حياته؟ من أين للمرء المستبد في الدولة المستبدة ارادة يستوحيها تصرفه وهو كالحيوان المملوك يُقاد حيث يريد مالكه ، لذلك قال الفقهاء : لا نية للرقيق ، أي لا ارادة في كثير من احواله ، انما هو تابع لنية مولاه .

ومن مساوىء الاستبداد في الاخلاق انه يرغم الأخيار الفضلاء على ألفة الرياء والنفاق . وتتعطل النصيحة التي يسديها رجال الدين ، فلا توجه إلا للمستضعفين الذين لا يملكون شأنهم ، في حين أن هذه النصيحة يجب ان توجه الى المستبد .

إن النهي عن المنكرات في الارادة الحرة ممكن ، يقوم به كل غيور بأمان واخلاص يوجهه الى الضعفاء والأقوياء ، والى ذوي الشوكة والزعماء ، ويخوض في موضوعات تؤدي الى تخفيف المظالم وتقويم النُّظم . وهذا هو النصح الذي يجدي ، لذلك أطلقت الأمم الراقية حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات مستثنية القذف فقط ، كما انها انشأت ما يعرف بمجالس النواب ، وظيفتها السيطرة على الادارة العمومية والسياسية .

ويلاحظ الكواكبي أن فساد الأخلاق يُخرج الأمم من أن تكون قابلة للاصلاح ، أي أنه قبل المناداة بأي اصلاح سياسي يجب أن نبدأ بتكوين أخلاق الشعب . لأن الفساد يفشو من المستبد وأعوانه الى الوزراء ، الى

الخدم ، الى القواد ، الى الأنفار ... ومن هؤلاء يدخل فساد الأخلاق بالعدوى الى كل البيوت ولا سيما بيوت الطبقات العليا التي تتمثل بها السفلى ، وهكذا يعم الشر وتمسي الأمة يبكيها المحب ويشمت بها العدو.

ويوضح الكواكبي أن الخطوة الأولى في انقاذ الأمة هي الابتداء بفك القيود من تعظيم غير الله بتقوية حس الأيمان ، ثم بتنوير العقول بمبادىء الحكمة وتعريف الانسان كيف يملك ارادته أي حريته ، وبذلك تهدم حصون الاستبداد ويُسد منبع الفساد .

الاستبداد والتربية

إن العلاقة بين الاستبداد والتربية من العلاقات الوثيقة . ويذهب الكواكبي في تعليل ذلك الى ما قاله مفكرو العرب القدماء وبنوع خاص اخوان الصفا والغزالي من أن طبيعة الانسان خيّرة ومبنية على الخير ، ولكنها تبدأ في حالة حيادية متأثرة بالتربية وبالتوجيه ، ويمكن طبعها بالآراء الخيّرة أو الشريرة .

والتربية ملكة تحصل بالتعلم والتمرن والقدوة والاقتباس وأهم اصولها وجود المربين . ومن أهم فروعها وجود الدين . ويتكلم الكواكبي على مراحل التربية منذ الولادة الى الزواج ثم الى الموت وأثر العوامل الخارجية في كل ذلك . ويلاحظ أن التربية بعد البلوغ تتأثر بنوع خاص بالبيئة المحيطة بالمرء وبالمجتمع ، وبالقانون ، وبالنهج السياسي ، ثم بارادة الانسان نفسه .

في الحكومات المنتظمة تتولى السلطة مراقبة تربية الأولاد بوضع شروط للزواج ، والعناية بالصحة ، وفتح المدارس للتعليم الابتدائي الاجباري الى اعلى المراتب. كما انها تتولى تنظيم الاجتماعات وتؤسس المسارح وتجمع المكتبات وتنشىء المتاحف وتضع القوانين للمحافظة على الآداب والحقوق

وتؤمن العاجزين عن الكسب من الموت جوعاً .

أما في الحكومة المستبدة فتهمل التربية إهمالاً تاماً ، يكون نشوء الجيل كنشوء الأشجار الطبيعية في الغابات ، تعيش ما شاءت لها رحمة الحطابين ، والصدفة وحدها هي التي تجعلها مستقيمة أو معوجة .

في الحكومات العادلة يعيش الفرد حياة حرة ، وينصرف الى عمله بنشاط مقتدياً بمن حوله من الناجحين ، مؤملاً في المستقبل . يفيد من كل ساعة من ساعات حياته . يقرن النشاط المنتج بالنشاط اللاهي ، ويعرف أن أولاده سيلاقون بعد موته المساعدة من الحكومة فيعيش ويموت قرير العين .

والعكس تماماً ، الفرد في الحكومات المستبدة ، فهو قلق ، مضطرب ، خائف على حياته وحياة أولاده ، يعيش في الخمول وكأنه حريص على بلوغ أجله ليستتر تحت التراب . وهو اذا كان منتسباً الى دين يسلي نفسه بالسعادة الاخروية . وتغلب هذه الحالة ، بنوع خاص ، في المجتمع الاسلامي حيث يردد الناس اقوالاً شبيهة بهذه : الدنيا سجن المؤمن . المؤمن مصاب . اذا أحب الله عبداً ابتلاه ... الى غيرها من تعابير الاستكانة .

واذا كانت التربية تعويد اللسان على قول الخير ، وتعويد اليد على الانفاق ، وتكبير النفس عن السفاسف ، ونصرة الظالم ، وحفظ الشرف والحقوق وحب الوطن واحتقار الظالمين ، فان الاستبداد يحض الناس على اباحة الكذب والخداع والتذلل ، ويأتي بأجيال من الناس يعيشون في جو مشحون بالفساد تكون المدرسة فيه سجناً ، والشارع معلماً للرذيلة ، والاسرة مصدراً للتنغيص .

ويختم الكواكبي هذا الفصل بقوله : إن فقد التربية المصيبة العظمى في الشرق ، فاذا لم نتوصل اليها في بلادنا ، فليس من أمل في الخلاص من الاستبداد .

الاستبداد والترقي

يستهل الكواكبي هذا الفصل بتحديد الترقي فيقول : الحركة سنة عامة في الخليقة ، دائبة بين شخوص وهبوط . فالترقي هو الحركة الحيوية . ويقابله الهبوط وهو الحركة الى الانحلال أو الموت او الاستحالة أو الانقلاب .

ويلاحظ أن هذه الحركة لا تقتضي السير الى النهاية شخوصاً أو هبوطاً بل هي أشبه بميزان الحرارة ، كل ساعة في شأن ، والعبرة في الحكم للوجهة الغالبة . فاذا ما رأينا في أمة آثار حركة الترقي هي الغالبة على أفرادها حكمنا لها بالحياة . ومتى رأينا عكس ذلك حكمنا عليها بالموت .

ثم يقول : إن الترقي الحيوي الذي يسعى وراءه الانسان بفطرته هو أولاً الترقي في الجسم صحة وتلذذاً، ثم الترقي في التركيب بالعائلة والعشيرة، ثم الترقي في القوة بالعلم والمال ، ثم الترقي بالخصال والمفاخر .

إن هذه الترقيات على انواعها لا يزال الانسان يسعى وراءها ما لم يعترضه مانع غالب يسلب ارادته . وهذا المانع هو إما القدر المحتوم أو هو الاستبداد المشؤوم . إلا أنه يلاحظ أن القدر قد يصدم سير الترقي لبعض الوقت ، في حين أن الاستبداد يقلب الترقي الى الانحطاط .

ويرى الكواكبي أن الاستبداد يحول ميل الأمة الطبيعي من طلب الترقي الى طلب التسفل بحيث لو دُفعت الى الرفعة لأبت وتألمت كما يتألم الأجهر من النور . وإذا ألزمت بالحرية تشقى وربما تفنى كالبهائم الأهلية إذا اطلق سراحها . وعندئذ يصير الاستبداد كالعلق يطيب له المقام على امتصاص دم الأمة فلا ينفك عنها حتى الموت .

ثم يقول : إن سبيل الانسان هو الى الرقي ما دام جناحا الاندفاع والانقباض متوازنين كتوازن الايجابية والسلبية في الكهرباء ، وسبيله

القهقرى إن غلبته الطبيعة أو المزاحمة . ثم يلاحظ أن الاندفاع إن غلب فيه العقل كانت الوجهة الى الحكمة . وإن غلبت النفسُ العقلَ كانت الوجهة الى الزيغ .

ويقول ايضاً : لقد أجمع الحكماء على أن أهم ما يجب عمله على الآخذين بيد الأمم ، الذين فيهم نسمة مروءة وشرارة حمية أن يسعوا في رفع الضغط عن العقول لينطلق سبيلها في النحو فتمزق غيوم الأوهام التي تمطر المخاوف .

وبعد أن يدلي بخطبة توجيهية يقول : لقد بلغ الترقي في الاستقلال الشخصي في ظلال الحكومات العادلة لأن يعيش الانسان المعيشة التي تشبه ما وعدته الأديان لأهل السعادة في الجنان ، حتى أن كل فرد يعيش كأنه خالد بقومه ووطنه وكأنه أمين على كل مطلب : أمين على السلامة في جسمه وحياته بحراسة الحكومة ، وأمين على الملذات الجسمية والفكرية باعتناء الحكومة في الشؤون العامة ، أمين على النفوذ كانه سلطان، أمين على الحرية في امة فيتساوى جميع أفرادها ، أمين على العدل ، أمين على الشرف .

ويختم هذا الفصل بقوله: هذا مبلغ الترقي الذي وصلت اليه الأمم منذ عرف التاريخ .. ترقي العلم والعمران ، وهما آلتان كما يصلحان للاسعاد يصلحان للاشقاء ، وترقيهما هو سنة من سنة الكون التي أرادها الله لهذه الأرض وبينها .

الاستبداد والتخلص منه

هذا هو الفصل الأخير في الكتاب ، وفيه يقول الكواكبي : إن تقرير شكل الحكومة هو اعظم واقدم مشكلة في البشر ، وهو المعترك الأكبر لأفكار الباحثين ، والميدان الذي قلّ في البشر من لا يجول فيه على

فيل من الفكر ، أو جمل من الجهل ، أو فرس من الفراسة ، أو على حمار من الحمق ، حتى جاء الزمن الأخير فجال فيه انسان الغرب جولة المغوار فقرر قواعد اساسية في هذا الباب تضافر عليها العقل والتجريب.

ثم طرح الكواكبي رؤوس بعض المسائل التي تتعلق بها الحياة السياسية من مثل :

١ — بحث ما هي الأمة أو الشعب .
٢ — بحث ما هي الحكومة .
٣ — ما هي الحقوق العمومية .
٤ — التساوي في الحقوق .
٥ — الحقوق الشخصية .
٦ — نوعية الحكومة .
٧ — ما هي وظائف الحكومة .
٨ — حقوق الحاكمية .
٩ — طاعة الأمة للحكومة .
١٠ — توزيع التكليفات .
١١ — إعداد المنعة .
١٢ — المراقبة على الحكومة .
١٣ — حفظ الأمن العام .
١٤ — حفظ السلطة في القانون .
١٥ — تأمين العدالة القضائية .
١٦ — كيف توضع القوانين .
١٧ — ما هو القانون وقوته .
١٨ — التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم .
١٩ — السعي في العمران .
٢٠ — السعي في رفع الاستبداد .

هذه هي أهم القضايا التي يطرحها للبحث ولكنه لا يضع لها الحلول وإنما يتركها للمناقشة . إلا أنه يقول فيما يتعلق بالبحث الاخير منها السعي في رفع الاستبداد . :

١ — الأمة التي لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية .

٢ — الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم باللين والتدرج .

٣ — يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به .

ويختم فصله هذا أو كتابه هذا بقوله : وإني أختم هذا البحث بأن الله جلت حكمته قد جعل الأمم مسؤولة عن اعمال من حكّمته عليها وهذا حق ، فاذا لم تحسن أمة سياسة نفسها اذلها الله لأمة اخرى تحكمها كما تفعل الشرائع باقامة القيم على القاهر أو السفيه ، وهذه حكمة . ومتى بلغت امة رشدها استرجعت عزها وهذا عدل ، وهكذا « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون » .

* * *

هذه إلمامة بكتابي الكواكبي « ام القرى » و « طبائع الاستبداد » ، عرضنا فيها خلاصة وافية لآرائه السياسية والاجتماعية ، والدينية ، وعرفنا فيه ، من خلالها ، مفكراً خصب الخيال بارع الحجة .

وإن كنا لم نتناول هذه الآراء بالتحليل ، فلأن ذلك ليس من مهمتنا في هذا الكتاب بل جلّ غايتنا أن نضع القارىء في المناخ الطبيعي لهذين الكتابين ، ليستطيع — كما قلنا قبلاً — أن يستبين تمام الاستبانة ما كتبه المستشرق الفرنسي نوربر تابيرو في كتابه هذا : الكواكبي ، المفكر الثائر .

مصطفى قصاص



مقدمة المترجم

هذا الكتاب ألفه مستشرق فرنسي هو الاستاذ نوربير تابيرو (استاذ الدراسات العربية بجامعة ليدن حالياً) بمدينة سان لويس (السنغال) في عام ١٩٥٤. وقد ملأه علماً وأسنده الى افكار صحيحة ووقائع محققة وأعمل الفكر اثناء كتابته وقد سماه (آراء الكواكبي الاصلاحية) وبحث فيه بحثاً دقيقاً عن الروح التقدمية التي كانت تقود كبار المفكرين المحررين في البلاد الاسلامية في أواخر القرن التاسع عشر أمثال السيد جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، ورشيد رضا، وقاسم أمين وغيرهم. وقد كان بحثه في كتابه هذا خاصاً بأحد هؤلاء الرواد وهو السيد عبد الرحمن الكواكبي. وقد ذكر لنا المؤلف نبذة عن تاريخ حياته وجهاده في مقدمته لذلك الكتاب. وقد قسم كتابه الى أربعة أبواب:

ألقى في الباب الأول نظرة عامة إجمالية في انتاج الكواكبي الاصلاحي أي في مؤلفيه الشهيرين «أم القرى» و «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد».

وبحث في الثاني عن آراء الكواكبي في اصول الفقه والعقائد والعبادات وتأثير الدين في النفوس وفعله في سعادة الأمم بصلاحه وشقائها بفساده، داعياً الى نبذ البدع والشعوذة والتواكل والى التسامح نحو الديانات الأخرى على أساس من التعاون الانساني والتقدم. وكما يقول المؤلف: «هذا

الاسلام الكريم الذي أول مزاياه : السماحة ، التي تمثل في الواقع وجه الاسلام الحقيقي » .

وخصص الباب الثالث للاصلاحات التي اقترحها الكواكبي في الميدان الاجتماعي ، وأهمها تعميم التعليم والتدريب المهني وخاصة « العلوم والفنون النافعة التي هي من قبيل الصنائع » وتعليم الأحداث وتهذيبهم وتحرير المرأة وتثقيفها ، مؤكداً ان « الله جعل العلم وضاحاً للخير فضاحاً للشر » وكذلك إلغاء الفوارق الاجتماعية والعوز .

أما الباب الرابع فقد تحدث فيه عن الأمور السياسية شارحاً آراء الكواكبي في نظم الحكم وشدة مقته للسياسة العثمانية الغاشمة وما سببته من متاعب للمسلمين قاطبة ، مُهاجماً بقسوة الاستبداد والاستعمار .

وفوق ذلك فقد تعرض المؤلف ، ضمن ما تعرض ، الى موضوع الخلف الاسلامي وأظهر في ثنايا كتابه ما يجره تدخل السياسة في هذا الخلف من مساوىء وفساد على الشعوب الشرقية :

« لقد رأينا في الواقع ان وجهة نظر مؤلفنا في الجهاد تعتمد على آيات قرآنية : لا إيمان بالقوة . وأن معنى الجهاد ليس اطلاقاً قتال غير المسلمين .. وأن العرب منذ سبعة قرون لم يأتوا حرباً باسم الجهاد . أما فيما يختص بالأتراك فإنهم استغلوا الدين في سبيل أطماعهم ولوّحوا بلقب الخليفة كغشاء على أعين أوروبا ، أما عن العرب فقد تنصلوا من السياسة التركية وخاصة بعدم اشتراكهم في المجازر الأخيرة للأرمن ، إذ أن الاسلام الذي يدينون به هو ضد القسوة .. وأن ليس في علماء الاسلام مطلقاً من يحصر معنى الجهاد في سبيل الله في محاربة غير المسلمين ، بل كل عمل شاق نافع للدين والدنيا ، حتى الكسب لأجل العيال يسمى جهاداً .. وأن الجهاد ما هو في الواقع سوى جهاد رمزي من الوجهة النفسية ضد المغريات

والمنكرات . والواقع أن العلماء النفسانيين مثل الغزالي قد دافعوا عن وجهة النظر هذه وأولوها مكاناً بارزاً وكذلك الشيخ محمد عبده نفسه ... إن في القرآن الكريم نحواً من خمسين آيـة بأساليب شتى كلها تنهى عن الإلحاح في الهداية الى الدين ، فضلاً عن التشديد والإلزام بالقتـال كقولـه تعالى (إنك لا تهدي من احببت) ، (وجادلهم بالتي هي أحسن) ، (لست عليهم بمسيطر) .. وان قصر الجهاد على الحروب كان مبنياً على ارادة الفتوحات والتوسل للتشجيع حين كان مجال للفتوحات ، كما أعطى اسم الحروب الصليبية التي أضرم نارها المسيحيون» .

وكذلك أيـد في كثير من المواقف الدعوة الى تمييز السلطـة الروحية من السلطة السياسية فجعل كل واحدة منهما تسير في اتجاهها لا تربط بينهما الا صلة معنوية :

« لقد كان الكواكبي ذا طابع فكري معتدل . ولئن كان قوي الايمان بالاسلام ونهضته فلم يكن قط متعصباً .. وكان يعتبر الصلة القومية فوق كل صلة اخرى .. وكان همه الأساسي سلوك طريق التقدم .. وكان يستعين في كل ذلك بالرجوع الى القرآن والسنة .. وكان خير داعية للاسلام ورسول الله .. وقد أراد الكواكبي ان يوضح نصيب التحريفات التي أدخلت على الدين بتأثير النفوذ الخارجي في افساد العبـادات والروح الحقيقية للاسلام على السواء .. والكواكبي رغم شدة صلابته فيما يختص بالنقط الدينية البحتة فهـو أول مفكر ثوري مسلم في العصر الحديث حاول أن يفرق بين الأعمـال الدينية حقـاً وبين التصرفات الدنيويـة التي تدفـع اليها ضروريات الحياة الحالية ... وإن المشكلة التي تشغل بال مؤلفنا قبل كل شيء

هي (الازدهار الديني) للبلاد الاسلامية ، و غرضه الحقيقي هو أن يبني بفضل هذا الازدهار الوحدة الدينية والروحية للمسلمين في العالم اجمع .. وبالنسبة لمؤلفنا فان امتيازات لرئيس الطائفة الاسلامية تقارب تلك التي يحوز عليها « البابا » مع الاختلاف الاساسي فقط في عقيدة العصمة من الخطأ التي لا توجد لدى المسلمين . وقد كان المقصود بالدعوة تحرير البلاد الاسلامية من وطأة الحكم العثماني . ونلاحظ انه منذ إلغاء الخلافة لم تقم اية محاولة لاعادتها » .

وخلاصة القول ان المؤلف قد أتى بالبراهين العقلية والحجج التاريخية في ما تناوله بالبحث . ومما يوجب الاعجاب في كتابه حسن مقصده إذ انه ما قصد الا استخلاص الحقيقة بوضوح وقد توصل بحسن اسلوبه وعمق بحثه الى احياء حقائق يجب ان يلتفت اليها المسلمون .

والكتاب الذي حوى تلك المسائل لجدير بالاذاعة والترجمة فكلنا في حاجة الى معرفة آراء كبار المستشرقين الغربيين في المشاكل التي تشغل بالنا ، خاصة وأن ما نادى به الكواكبي منذ اكثر من سبعين عاماً ، نحن في سبيل تحقيقه الآن ، بعد غفوة عميقة وسبات طويل .

الاسكندرية

علي سلامة

تمهيد

هـذه الدراسة هي رسالة لشهادة الدراسات العليا في اللغة العربيـة وآدابها ، نوقشت في كليـة الآداب بجامعة ليون في نوفمبر عام ١٩٥٣ . وقد ألحق بها ، عقب ذلك ، تصحيحات وإضافات من وحي الانتقادات الصائبة التي برزت أثناء مناقشتها .

ويسرنا بهذه المناسبة أن نعبر عن عظيم إعترافنا بفضل السيد هنري لاوست Henri Laoust ، مدير المعهد الفرنسي بدمشق ، الذي كان لنا رائداً ومشيراً ، سواء في تهيئة هذا المؤلف أو في كتابته .

لم يكن في نيتنا أن نقوم بنشر دراسة ، يتضـح من النظرة الأولى اليها ، أنها لا تهم سوى الاختصاصيين في البحث عن الإسلام . ولكن مجموعة من الأصدقاء المسلمين في أفريقية السوداء ، من ذوي الثقافـة العربية ، بعدمـا اطلعوا على مخطوطة هذه الرسالة ، أكدوا لنا أهميتها بالنسبة الى عـدد كبير من الافريقيين ، ممن يتوق الى معرفة الاتجاهات الحديثة في الإسلام ، فشجعونا تشجيعـاً أكيداً على نشرها . والحق أن الكواكبي عاش في وقت كان الإسلام بمفهومه الحديث يذيع أفكاراً أكثر عدالة أساسها الإعتدال والتسامح نحو الديانات الأخرى ، ووحيها التعـاون الانساني والتقدم . فهذه الاتجاهات ، التي أهمل الكثير منهـا منذ بدء

القرن العشرين ، لعلها تزدهر في هذا العالم الإسلامي الذي لم يبلغ بعد مرحلة الاستقرار . ولهذا رضينا بطبع هذه الدراسة ، وأملنا أن تساهم في تقوية الشعور عند المسلمين المثقفين، بأن الإسلام إذا كان مفهوماً بطريقة واسعة متسامحة أمكنته مسايرة ما تقتضيه الحضارة الحديثة ، وأن يبقى حياً مع اختلاطه بها ، وجعله بحق وارثاً جـــديراً باسلام السلف ، وذلك بتطبيق مبدأين كان يهتم بهما الكواكبي : التعاون الانساني والتقدم. وعسى أن يكون اولئك المسلمون المثقفون خير الممثلين لهذا الإسلام الكريم الذي أول مزاياه « السماحة » التي تمثل في الواقع وجه الإسلام الحقيقي .

ولا يفوتنا أخيراً أن نعبر عن شكرنا للهيئات الفيدرالية في افريقيـــة الغربية الفرنسية التي ساعدتنا على القيام بنفقات طبع هذا المؤلف .

سانت لويس في ديسمبر سنة ١٩٥٤

مقدمة

السيد عبد الرحمن الكواكبي ، المفكر الحديث والنظري المصلح في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، يكاد يكون معروفاً عند مسلمي الشرق على عكس الأوساط الغربية الاسلامية التي لا تعرف عنه سوى القليل . وعلى الرغم من أهمية انتاجه المبتكر، فأنه على ما نعلم لم تخصص له حتى الآن دراسة عميقة تستحق الذكر [1] . والحق أن حركة التقدم الحديثة الناشئة كان يسيطر عليها في تلك الحقبة عالمان شهيران: أحدهما، خطيب مصقع متحمس هو السيد جمال الدين الافغاني (١٢٥٤ — ١٣١٥ هـ = ١٨٣٨ — ١٨٩٧ م) . وثانيهما ، كاتب متكلم مصلح ، هو السيد محمد عبده (١٢٦٥ — ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ — ١٩٠٥ م) . وكان للاثنين نشاط وتأثير بعيد على معاصريهما وهما اللذان أسسا في الواقع الحركة الاصلاحية الإسلامية في القرن التاسع عشر . والحقيقة أن الأفكار الحديثة كان لها مؤيدوها الأوائل في أغلب بلاد الشرق ، وخاصة في سوريا حيث دافع عنها بكل قواه الشيخ طاهر الجزائري . وكذلك في العراق، حيث كان محمود شكري الألوسي من أبرز ممثلي الإسلام الحديث في القرن التاسع عشر . أما في الهند، فقد تكونت هذه الحركة ودخلت

[1] قد بلغنا أن كتيباً عن الكواكبي سوف ينشر في دمشق بمعرفة سامي دهان.

في حيز التنفيذ ، وذلك بفضل زعيم جليل هو السيد أحمد خان بهادور .

وأما في تركيا ، فقد تغلبت الصبغة السياسية على الحركة الاصلاحية بسبب الحالة السيئة التي نشأت من انحطاط الأمبراطورية العثمانية ، وإن حركة « التنظيمات »[1] ، التي دخلت مرحلة التنفيذ منذ عام ١٨٣٩ ، لم تبدأ في انتاج ثمارها إلا في أواخر القرن التاسع عشر ، وأدت بعد فترة من التوقف ، الى مقصود بعيد وهو الدستور العثماني في عام ١٩٠٨ .

ولكن مصر هي التي كانت الوطن الرئيسي للحركة الإصلاحية الإسلامية ، إذ أنها هي البلاد التي تهيأت فيها أحسن الظروف لنشر الآراء الحديثة في الشرق الأوسط . وأن هجرة جماهير المفكرين والصحفيين والكتاب ، من سوريا ولبنان ، الى الاسكندرية والقاهرة منذ عام ١٨٦٠ كافية للدلالة على ذلك .

فكيف نحدد هذه الحركة ، التي لم يقم فيها الكواكبي إلا بدور في المرتبة الثانية ولكنه خصص لها ، أسوة بمعاصريه الكبيرين ، أغلب كتاباته وكل نشاطه الفكري والسياسي ؟ .

إن هذه الحركة ، المستندة أصلاً الى رغبات دينية ، نشأت من إهتمام البعض من ذوي الثقافة المستنيرة بمسايرة حياة المؤمن للظروف الاجتماعية والاقتصادية الجديدة التي عرفها الشرقيون خلال القرن التاسع عشر . وقد اتضح بسرعة لهؤلاء الرجال أن المحن التي أصابت الشرق وسببت تخلفه عن الغرب في شتى الميادين ، تعود الى السببين الآتيين :

أ — « الظروف السياسية السيئة » التي كانت ترزح تحت عبئها البلدان الاسلامية .

ب — « التحريف » المقصود وغير المقصود الذي ألحقه بعض المؤمنين « بدين الله الحق ورسوله محمد » .

---

[1] حركة اصلاحات سياسية وادارية في داخل الامبراطورية . انظر Etudes Islamiques ج ٤ ، من ص ٦٨٩ إلى ص ٦٩٣ ، مقالة ج. ح. كرامرز . J. H. Kramers

ولم يخطر ببال هؤلاء الرجال ، في اي اي وقت كان ، أن ينسبوا أسباب هذه المحن أو هذا التخلف الى مبادىء الدين الاسلامي نفسه ، وهذا ما يمكن بالطبع فهمه اذا اعتبرنا أصل الحركة . بل لم يمكنهم الوقوف على تلك الأسباب الا في اهمال التعاليم الحقيقية التي ذكرها القرآن والسنة ، سواء كان ذلك في الدين او في السياسة .

ومن تلك الرغبات المتجهة الى الحياة العصرية ، بنيت حركة اصلاحية أرادت ايجاد العلاج لهذه الحالة ، ذلك بأن ترتشف من منابع الدين نفسها المبادىء التي تنوسيت وأهملت أو لم تستعمل قط ، والتي تمكن المؤمن من أن يعيش منسجماً مع الحضارة والعلم والتقدم ، والحكومات من أن تحسن التدبير في الشؤون العامة . وهكذا فالرغبات العصرية والحركات الاصلاحية ليست سوى فكرة واحدة في أذهان الكثير من المفكرين والنظريين المسلمين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وحتى النصف الأول من القرن العشرين ، وعليه فان السياسة والدين ليسا سوى مشكلة واحدة حلها موجود في النصوص المقدسة ، على شريطة أن تفسر بطريقة صحيحة عقلية واسعة الفكر ، لا بطريقة باطلة عمياء وضيقة الأفق .

واذا أضفنا الى ذلك في النهاية أن أصحاب هذه الأفكار النيرة ، مؤسسي هذه الحركة السياسية الدينية ، كانوا مصابين بعقدة مركّب النقص بسبب تأخر الشرق وكان عليهم أن يدافعوا عن بلادهم وديانتهم من هجمات الغرب والمسيحيين ، سهل علينا ادراك السبب في اندفاعهم الى الدعوة بتفوق الاسلام في جميع الميادين ، وحتى بحث الغربيين الى اعتناق الاسلام [1] .

وذلك ما يسميه علماء النفس الحديثون « عمل الترضية » .

---

[1] فقد وصلوا إلى اشد الحاجة لإيضاح فضائل الإسلام لدى اخوانهم في الدين من ذوي الثقافة الذين ابتدأوا يشعرون بألم عميق من تفوق الحضارة الغربية ، يخشى منه أن يتغلب عليهم التشكك الديني .

كل ما ذكرناه سابقاً ينطبق على مؤلفنا ، كما سوف يتبين لنا خلال هذه الدراسة . وقد ولد عبد الرحمن الكواكبي [1] بمدينة حلب « سوريا » في عام ١٢٦٥ هـ = ١٨٤٩ م [2] ، من أب إيراني وأم كردية ومن أسرة كبيرة بها الكثير من العلماء ورجال الدولة في هذه البلـــدة . وكان أحد أجداده قد أنشأ بهذه المدينة مدرسة تسمى (الكواكبية) ، وفيها تلقى الكواكبي العلم ودرس خاصــة العلوم القضائيـــة والتاريخية . وميله الى المعلومات النافعة دعاه مبكراً لدراسة العلوم الحديثة ، وخاصـــة العلوم الرياضية والطبيعية . وفي نهاية سن المراهقـة ، رحل ليكمل دروسه في بلدة انطاكية . وكان يجيد التركية وقليلاً من الفارسية .

وعند بلوغة السابعة والعشرين ابتدأ يكتب في حلب بالجريدة الرسمية للحكومة « الفرات » (وكانت تصدر باللغتين العربية والتركية) ونشر بها مقالات لمدة خمسة أعوام . ثم أنشأ بنفسه جريدة أسماها « الشهباء » (اسم اشتهرت به مدينة حلب) . وقد أمضى أغلب حياته في مسقط رأسه حيث كان يباشر في خدمـة الحكومـة العثمانيـــة ، بعض الوظائف العلمية والادارية والقضائية التي قد نبغ فيها . ولكن حبه للاصلاح ولحرية الكلمة والفكر ، سببت له في نهاية أيامه كثيراً من المتاعب ، حتى همت الحكومة بالقبض عليه وتجريده من أملاكه ؛ وعندئذ غادر حلب وقام

---

١ المعلومات الخاصة بحياة الكواكبي متفرقة وموجزة في أغلب المراجع ، وقد استعنا في إقامة هذه المذكرة القصيرة بمؤلف جرجي زيدان « تراجم مشاهير الشرق » — الطبعة الثالثة — القاهرة عام ١٩٢٢ ، ج١ ، ص ٣٢٢ — ٣٢٤ . انظر في قائمة المراجع المصادر الأخرى .

٢ يذكر المؤلف هنا ان الكواكبي قد ولد عام ١٨٤٩ . والحقيقة ان تاريخ ولادته هو عام ١٨٥٤ كما ذكرت في مقدمتي لهذا الكتاب . وذلك انه في عام ١٨٧٦ اعلن عن تأسيس مجلس نيابي تمثيلي في الخلافة العثمانية ، وقد اشترط القانون سناً معينة للشخص الذي يود ان ينتخب (بكسر الخاء) او ينتخب (بفتحها) فوجد الكواكبي في نفسه ميلا للخوض في هذا الميدان . وبما انه كان في تلك السنة صغيراً في السن (٢١ سنة) فقد سعى لدى المحكمة حتى عدل عمره وجعل تاريخ مولده عام ١٨٤٩.. م. ق.

بعدة رحلات . فتوجه للمرة الاولى الى مصر لحقبة قصيرة ، ثم غادرها الى زنزبار والى الحبشة ، والى البلدان الساحلية في الغرب الآسيوي . ثم عاد الى مصر، ومنها الى شبه جزيرة العرب حيث قام برحلة طويلة خلال الصحراء (ثلاثون يوماً على ظهور الابل) وأقام أيضاً باليمن . وزار أخيراً الهند وافريقيا الشرقية قبل أن يستقر نهائياً في مصر من عام ١٣١٨ هـ ـ ١٩٠٠ م. ولم يكن معروفاً بها في ذلك الوقت ولكن ظهور مؤلفين له في القاهرة من أهم مؤلفاته هما « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » خلال السنتين الأخيرتين من حياته ، كان سبب شهرته الواسعة .

كان الكواكبي في تلك الفترة عضواً من أعضاء مدرسة « المنار » وهي مدرسة اسسها في عام ١٨٩٧ أحد تلاميذ الشيخ عبده المتحمسين وهو السيد رشيد رضا (وهو أيضاً سوري الأصل ومن المهاجرين الى القاهرة). وقد عاون الكواكبي هذه المجلة حتى وفاته في عام ١٣٢٠ هـ . ـ ١٩٠٢ م.

كان الكواكبي ذا طابع فكري معتدل ، يحب صغار الناس ، حتى سماه سكان حلب « أبو الضعفاء » . فقد كان كثيراً ما يدافع عنهم أمام المحاكم . ولئن كان قوي المشايعة للاسلام ونهضته ، فلم يكن قط متعصباً ، بل كان يعامل المسلمين والنصارى واليهود على قدم المساواة ، وكان يعتبر الصلة القومية فوق كل صلة اخرى . وكان همه الأساسي طلب التقدم عامة ، ومسايرة المسلم الشرقي لظروف الحياة الحديثة . وقد دعاه ذلك الى المناداة بالاصلاحات في الشؤون الدينية والسياسية لمسلمي الشرق ، ومع ذلك فقد ظل يستعين بالقرآن والسنة ، وكان خير الدعاة للاسلام ولرسول الله محمد .

وهكذا اندمج الكواكبي غاية الاندماج في طريق الحركة الاصلاحية وفي الحزب المسمى « السلفية » ، الذي أسسه في باريس عام ١٨٨٣ ، الشيخ محمد عبده والأفغاني ، وكان حدثاً هاماً في تاريخ هذه الحركة .

ولكن ما تميز به الكواكبي في الاصلاحات التي اقترحها في مؤلفيه

هو علاقتها الأساسية بالواقع واتجاهها بعزم الى الحياة الحديثة . وان هذه الاصلاحات بالذات هي التي نقوم بتحليلها في هذه الدراسة ، وذلك في الميادين الثلاثة : الدينية والاجتماعية والسياسية . وسوف نقوم قبل ذلك، بإلقاء « نظرة إجمالية » على انتاجه ، بذكر الظروف التي كتب فيهـــا المؤلف . فسوف يساعدنا ذلك عـــلى فهم أفضـل للانتقادات التي كان الكواكبي يوجهها الى معاصريه وخصوصاً على أحسن ادراك لمعنى مختلف الاصلاحات المقترحة ولمدى تطبيقها .

الفصل الأول

نظرة اجمالية
على انتاج الكواكبي الاصلاحي

عندما توجه الكواكبي الى القاهرة في عام ١٣١٨ هـ = ١٩٠٠ م ، كانت خطوط كتابيه الرئيسية قد تحددت قبل ذلك ويحتمل أن يكون قد حرر الجزء الأكبر منها . ورغم أن « طبائع الاستبداد » قد نشر أولاً فمن المؤكد أن كتابه « ام القرى » قد ولد في مخيلة المؤلف قبل ذلك. فهو في الواقع أطول المؤلفين ويستحق ، بلا أدنى شك ، اكبر الاهتمام. ولذا سوف نعطيه الأفضلية .

أ — « ام القرى » : يحتوي الجزء الأكبر منه تقريراً عما دار في «مؤتمر النهضة الإسلامية» الذي انعقد في مكة من ٥ الى ٢٩ ذي القعدة من عام ١٣١٦ هـ = ١٨٩٨ م . وطبع في مجلة « المنار » [1] بعنوان « جمعية ام القرى » ، وجمع عقب وفاة الكواكبي في مؤلف عنوانه « ام القرى » . ولا يغرب عن بالنا أنه ، قبل أن يكتب تقريره، قد سافر الى سوريا ومصر وزنزبار وإيثيوبيا وجزيرة العرب واليمن حتى

[1] المنار ، جزء ٥ ، القاهرة ١٣٢٠ هـ = ١٩٠٢ م .

الهند وأفريقيا الشرقية ، قائماً في تلك البلاد باستشارات كان لها في بعض الأحيان طابع « الاستفتاء » . وقد جمع المؤلف نتائج هذا التحقيق الواسع المدى . ولقد عرف هذا الكتاب عند ظهوره دوياً واسعاً في الأوساط الإسلامية بالشرق وخاصة في مصر [1] . ولقد كانت هذه الشهرة مؤقتة كما سوف تثبت ذلك بعض الشهادات اللاحقة . ولقد أشاد الشيخ سيد البكري ، الشهير في ذلك الوقت بكتاباته ونفوذه في القاهرة ، بأهمية مؤلف الكواكبي ، وذلك في كتابه المسمى « المستقبل للإسلام » [2] .

وبقراءة « ام القرى » ، نشعر شعوراً واضحاً بأن هذا المؤتمر قد حدث حقيقة وكان نجاحاً كبيراً لمنظمه : السيد الفراتي (نسبة الى الفرات ، اسم مستعار للكواكبي)[3]. وغالباً ما يكون ذلك من الأسباب التي دعت بعض المستشرقين المعروفين مثل « لوثروب ستودارات » [4]

---

١ كانت الحركة الاصلاحية ذات الميول الحديثة حوالى عام ١٩٠٠ في أقصى ازدهارها بمصر تحت تأثير الشيخ محمد عبده مدير جامعة الأزهر في ذلك الوقت .وقد عين مفتياً للديار في عام ١٣١٧ هـ. = ١٨٩٩ م ، وفي هذه الحقبة نشر قاسم أمين دفاعه عن المرأة المسلمة (١٨٩٩ م) ، وظهرت ترجمة كتاب أدموند دمولان « سر تقدم الانجليز السكسونيين» بقلم أحمد فتحي زغلول في عام ١٨٩٩ م ، وقد أحدث هذا الكتاب دوياً كبيراً في الأوساط السياسية فضلا عن ظهور عدد من الخطباء الكبار أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول وهم من القانونيين خريجي الجامعات الذين دعوا إلى الآراء الثورية في فلسفتنا الاجتماعية منذ القرنين الثامن والتاسع عشر .

٢ « المستقبل للإسلام » . عن هذه الشخصية الهامة « سيد محمد توفيق البكري الصديق العمري» رئيس الطائفة الصوفية بمصر ، وهو رجل مثقف متحرر مؤلف لعدة كتب ومدير هيئة تنظيم «المؤتمر الإسلامي العالمي » المستقبل – انظر مجلة العالم الإسلامي ،عدد ٤ ، صفحة ١٣٤ – ١٣٥ ومن ٢٧٦ – ٢٨٣ .

٣ هذا الاسم المستعار نسب في الغالب إلى المؤلف بسبب المقالات العديدة التي نشرها في الجريدة الحلبية « الفرات » . انظر المقدمة .

٤ « العالم الجديد للإسلام » ،نيويورك ١٩٢١ ، الترجمة الفرنسية بمعرفة أبدل دوازي ،باريس عام ١٩٢٣ .

وكارا دو فو[1] للاعتقاد بحقيقة « مؤتمر النهضة الاسلامية » ، كما أسماه هذا الأخير . واننا لننتهز الفرصة السانحة لندحض هذا الزعم ولنؤكد أن هذا المؤتمر لا أصل له ، وأنه لم يكن سوى نتيجة خيال مؤلفنا .

وها نحن نوضح باختصار الدلائل التي بنينا على أساسها هذا الرأي :

أولاً — عند قراءة هذا التقرير بعناية ، يدهشنا أن نلاحظ إجماعاً تاماً في هذه الحقبة من التاريخ في مؤتمر يضم ٢٣ وفداً مسلماً منتدباً ، أتوا من جهات ومدن متعددة ومختلفة ، مثل الفرات وسوريا والقدس والاسكندرية والقاهرة واليمن والبصرة ونجد والمدينة ومكة وتونس وفاس وانجلترا والاستانة وكردستان وتبريز والتتر وقازان وتركيا وأفغانستان والهند والسند والصين[2]. بالاضافة الى أن اثني عشر من هذه الوفود قد اختيرت على عجل ، في مكان الاجتماع ، من بين المسلمين الذين حضروا قبل الموسم بقصد الحج الذي كان موعده في الشهر التالي للاجتماع . ورغم ذلك فقد كان كل شيء معداً من قبل ، حتى المذكرات الشخصية كانت قد طبعت وكذلك البرنامج وذلك لتوزيعها على أعضاء المؤتمر .

وهذه الموافقة الاجماعية تبدو في غاية الغرابة لا سيما أنها تتناول مجموعتين من الأسئلة ذات الأهمية القصوى للعالم الاسلامي :

---

١ « مفكرو الإسلام » المجلد الخامس ، باريس ١٩٢٦ ، الجزء ١١ ، صفحة ٢٦٧ — ٢٧٤ ، وها هي فقرة هامة منها : يرتبط مع حركة البعث التي رأينا أنها قد بدت تتوطد في مصر اجتماع هام حدث في مكة عام ١٣١٦ هـ = ١٨٩٨ م ، وهو أن مسلماً من كبار المفكرين كان يسمى نفسه « سيد الفراتي » قد عقد اجتماعاً هاماً في المدينة المقدسة — مؤتمر نهضة الإسلام — يضم ممثلين لجميع الاحزاب في العالم الإسلامي وحرر بنفسه بياناً في هذا المؤتمر على غاية من الأهمية ، (صفحة ٢٦٧).

٢ انظر صحيفة ٧ بأم القرى — طبعت بالقاهرة في ١٣٥٠ هـ = ١٩٣١ م — ٢١٧ صحيفة مطبعة الازهر المصرية (المؤلف سوف يرمز له في الصفحات التالية بالحرفين أ . ق .) : ان ممثل بيروت قد تغيب ولكنه اعتذر . كما نلاحظ أن بعض البلاد الإسلامية ذات الأهمية لم تكن ممثلة ، وهي : (الجزائر — ليبيا — افريقيا السوداء — إيران — اندونيسيا) .

أ – تعيين أسباب ضعف المسلمين وتدهورهم في العالم الاسلامي[1].

ب – العلاج اللازم لهذه الحالة ، وخاصة انشاء جمعية ذات صبغة ثقافية دينية ، لها فروع في كل البلاد الاسلامية ، للنضال ضد هذا الوضع . حتى ان الشروط الانشائية لهذه الجمعية المزمع تحقيقها قد وضعت بدقة وتفصيل[2].

ثانياً – ان وحدة تامة في الرأي بين المسلمين في الشرق على انشاء جمعية دولية « جمعية تعليم الموحدين »[3] ، لو كانت قد تحققت في عام ١٨٩٨ ، لأحدث ذلك دوياً يفوق بكثير ما لاقاه التقرير نفسه . ولأثبت للعالم أن نخبة المسلمين المثقفين قد بلغوا درجة من النضوج ، بحيث لا يستطاع القيام بأي شيء دون استشارتهم . والواقع أن التطور الحديث ما كاد يبدأ بعد في اجتذاب العقول النيرة في الشرق . وقد أصاب الاصلاح ، حتى في مصر ، بعض المتاعب وخيبة الأمل قبل أن ينفذ منه القليل الذي توج هذه الجهود المتواصلة . ولنذكر الصعوبات التي لاقاها المرحوم اسماعيل بك جاسبرنسكي ، الذي أعلن في أول نوفمبر عام ١٩٠٧ مشروعه الشهير لعقد (مؤتمر اسلامي عالمي) والذي لم يستطع تحقيقه ، رغم مؤازرة الصحافة المصرية[4] ومساعديه العديدين .

ثالثاً – الظروف التاريخية التي كان يعيش فيها الشرق الاسلامي في

١ شرح كل مندوب أحد هذه الأسباب ، وقد قام السيد الفراتي بمحاضرة طويلة أوضح فيها أهم المسائل – أ. ق. صحيفة ١٣٧ – ١٦٥ .

٢ أم القرى – صحيفة ١٦٨ – ١٨٦ .

٣ جمعية تعليم الموحدين (أم القرى صحيفة ١٦٨) .

٤ « مجلة العالم الإسلامي » ، المجلد الرابع ، صحيفة ١٠٠ – ١٠٧ ، وقد كتب حامد في خلاصة مجلته الصحفية عن شهري اكتوبر ونوفمبر ١٩٠٧ عن ذلك المؤتمر فقال : يتبين لنا من ذلك الحين أن نجاح مثل هذا المشروع لا مثيل له من قبل وانه سوف يخلد اسم منشئه ومساعديه بجانب أكبر رجال الدولة (صحيفة ١٠٧) .

أواخر القرن التاسع العشر ، تحول بيننا وبين الاعتقاد بحقيقة وجود مثل هذا المؤتمر . والواقع انه من التعقل أن نتذكر ان سلطان القسطنطينية في ذلك الوقت « عبد الحميد » (١٨٧٦ – ١٩٠٩ م.) ، ذا الطابع الدموي المستبد ، والذي كان يفرض على بلاد الشام وشبه جزيرة العرب حكماً دكتاتورياً من الصعب تحمله ، لم يكن ليقبل السماح بذلك الاجتماع الذي لا يعقل امكان حدوثه خفية .

رابعاً – إن شهادة أحد معاصري الكواكبي ، وهو الشيخ سيد البكري، تؤكد لنا أنه لم يكن سوى حلم . فأولاً في المؤلف السابق ذكره حيث جعل لهذا التقرير مكاناً واسعاً ، وأيضاً في حديث أدلى به الى جريدة الأهرام ، بمناسبة مشروع « جاسبرنسكي » عن « المؤتمر الاسلامي العالمي ». هذه الشخصية التي تتصرف باعتبارها عضواً أختير للمؤتمر المقبل ، أبدت بعض التلميحات عن الماضي بما لا يقبل الشك .

« نحن لا ندعي وحتى معاصرونا « لم يستطيعوا تحقيق » ما قدمنا ... ، ذلك الغرض السامي (ما يقترحه المؤتمر، أي ازالة العقبات التي تعترض سبيل التقدم) الذي سوف يظهر، بلا شك ، في العالم الإسلامي رجالاً جدداً ،مثل اولئك الذين كانوا في الزمن الماضي ، « يحلمون بمؤتمر اسلامي » يعيد الى العالم الإسلامي جميعه ازدهاره » [1]

خامساً – واخيراً ربما اعترض البعض بأن الكواكبي أمكنه أن يتصرف بلا ضوضاء وانه اختار في مكه مكاناً سرياً للاجتماع ، وأن جميع المشتركين كان يشار اليهم باسم مستعار (إكتتام) [2] واخيراً جعل هناك اصطلاحات رمزية لاستعمالها خلال المداولات [3] .

---

١ مجلة العام الإسلامي ، المجلد الرابع ، ص ١٠٤ .
٢ « أم القرى » ، ص ٧ و ١١ .
٣ المصدر نفسه ، ص ٧ و ١١ .

وحقيقة أن رحلة الكواكبي عبر البلاد الاسلامية في الشرق قد استغرقت عشرة أشهر ، وهي فترة قليلة لتكوين مثل هذا المؤتمر ، وخاصة اذا كان يعمل خفية وبمفرده، ولكن فيه ما فوق الكفاية لكي يصبح السر معلوماً. فضلاً عن أن المؤتمر قد استمر أربعة عشر يوماً ، وانعقدت خلاله ثلاث عشرة جلسة ، بواقع جلسة يومية تقريباً ، كما في المؤتمرات الجهارية . ولم تتخذ في هذه الاجتماعات أي احتياطات سرية خاصة . وقد طبع البرنامج من ٢٢ نسخة في مطبعة بالمدينة يديرها تاجر هندي (مطبعة الجلاتين) [1] . والمطبوع يذكر عن كل عضو « الإسم والنسب والمذهب والمميزات » ، وذلك مع أن اثني عشر من الأعضاء القادمين من بلاد بعيدة جداً اختيروا في آخر لحظة بدون تروّ . وكانوا جميعهم يعرفون اللغة العربية رغم أنهم من مذاهب وشيع مختلفة ، ويصفقون لكل التصريحات والمقترحات .

لم يكن هؤلاء المندوبون إذاً سوى أشخاص خياليين ، كما فهمنا من كلام سيد البكري ؛ ولولا ذلك لاكتشف المؤتمر قبل أول جلساته بفترة كبيرة ، وخاصة بالنسبة الى مكانه في (المدينة المكرمة) والى تلك الفترة من السنة (بضعة ايام قبل الحج) .

وما كان الكواكبي ليحيط هذا المؤتمر الذي يذكره في مؤلفه بجو من الخفاء إلا ليعطيه أول الأمر طلاء من الحقيقة [2] بسبب الدكتاتورية العثمانية ، وأيضاً كما يقول البارون كارا دوفو نفسه بسبب « هذا الميل الى الأمور الخفية التي كانت منتشرة في الشرق طوال الزمن وما زالت

---

١ المصدر نفسه ، ص ٧ .

٢ ومحاولته لكي يعطي صورة من الحقيقة بلغت إلى حد جعل أسلوبه مطابقاً لأسلوب المتحدث . فكانت اللغة التي يستعملها التتاري أو الصيني (من غير العرب) غير فصيحة في حين أن مندوبي نجد أو مكة (رئيس المؤتمر) يتناقشون بلغة سلسة لبقة بليغة .

حتى ايامنا هذه »[1] .

نظن أن ما ذكر من الحجج يكفي لإثبات أن مؤتمر « ام القرى » لم يكن حقيقة واقعة إنما هي صورة في مخيلة المؤلف الذي أراد غالباً بمؤلفه هذا إثبات إمكان القيام بمثل هذا المشروع فضلاً عن أن فكرة المؤتمر كانت منتشرة منذ عام ١٨٨٣ حيث دعا اليها السيد الأفغاني والشيخ محمد عبده[2] . ولكن التقرير الذي نشره الكواكبي كان له دوي كبير بين مسلمي مصر حتى أن إسماعيل حامد كتب عن ذلك في جريدة المؤيد في ٣ نوفمبر عام ١٩٠٧ ما يأتي :

« الكثير منهم (المسلمون) يتذكرون بلا شك ، أن المرحوم الشيخ عبد الرحمن الكواكبي كان يحلم فيما مضى بمثل هذا المؤتمر وانه قام لهذا الغرض « باستفتاء » . ونتائج تلك الاستشارات الواسعة جمعت في مؤلف شهير في مصر ، ومن المفيد حقاً الرجوع اليه في الظروف الحاضرة »[3] .

وفضلاً عن التقرير الذي كتبه عن هذا المؤتمر الصوري ، فان المؤلف قد أضاف اليه « حديثاً »[4] رواه مندوب الهند في المؤتمر عن أمير هندي خيالي عند عودته لبلاده . وقد اغتنم الكواكبي تلك الفرصة لينقد السياسة الدينية العثمانية ، وليعرض آراءه عن الخلافة ، وليفند مزاعم الاوروبيين المعارضين لمثل هذا « الاتحاد الاسلامي » ، وأيضاً ليحصل على تعضيد حماسي من شخصية كبيرة في العالم الاسلامي ، لمشروعه عن الجمعية والمؤتمر .

---

١ « مفكرو الإسلام » المجلد الخامس – باريس ١٩٢٦ ، ص ٢٦٧ .

٢ قارن بين مقالة «المنار» سبتمبر واكتوبر ١٩٠٧ والتصريح الصحفي لاسماعيل حامد في « مجلة العالم الإسلامي » (مجلد ٤ ، ص ١٠٥) ، وقد يذكر المؤلف عام ١٨٩٣ على أنها الفترة التي وجد فيها العالمين في باريس ، على ما يظن أنها غلطة مطبعية .

٣ مجلد ٤ صحيفة ١٠١ – مجلة العالم الإسلامي .

٤ أم القرى في آخر صفحة ١٩٧ .

ب ــ « طبائع الاستبداد » : وهو عبارة عن مجموعة من المقالات الصحفية التي تدور حول : الاستبداد . هــذه المقالات جمعت في مجلد نشره المؤلف في القاهرة عام ١٣١٨ هـ. ــ ١٩٠٠ م. وقد وضح لنا بنفسه في مقدمتها ظروف هذا النشر :

« أقول وأنا مضطر للاكتتام شأن الضعيف الصادع بالأمر، الراجي اكتفاء المطالعين بالقول عمن قال :

في سنة ثماني عشرة وثلثمائة وألف هجرية (١٩٠٠ م.) زرت مصر في عهد عزيزها حضرة سمي عم النبي (العباس الثاني) الناشر لواء الأمن على اكناف ملكه . حينذاك نشرت في أشهر جرائدها مقالات علمية وسياسية تحت عنوان « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعبــاد » ، دراسات أصلية وفقرات مقتبسة ، وأنا لا اقصد في مباحثي ظالماً بعينه ولا حكومة او أمة مخصصة ، انما أردت التنبيه لموارد الداء الدفين ، عسى يعرف الذين قضوا نحبهم ، أنهم هم المتسببون لما حل بهم، فلا يعتبون على الأغيار ولا على الاقدار ، وعسى الذين فيهم بقية رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات .

ثم في زيارتي مصر ثانية أجبت تكليف بعض الشبيبــة ، فوسعت تلك المباحث وأضفت اليهــا طرائف التخلص مـن الاستبداد ، ونشرت ذلك في هذا الكتاب ، وجعلته مني للناشئة العربية المباركة الابية المعقودة آمال الأمة بين نواصيهم . ولا غرو فلا شباب الا بالشباب والله ولي المهتدين »[1] .

لقد حاز المؤلف كل تقدير حتى أن مدير مجلة الهلال جرجي زيدان

---

١ طبائع الاستبداد طبع بالقاهرة بدون تاريخ بمطبعة الدستور العثماني-١٥٢ صحيفة. الكتاب سوف يرمز عنه فيما بعد بالحرفين (ط.أ.) ، والفقرة المذكورة هنا توجد في ط. أ. ص ٣ ، ٤ .

صرّح أنه « فريد في نوعه » مع مدح مؤلفه . والحقيقةان صيغة المؤلّف وتكوينه ليست بفريدة النوع : مجموعة من مقالات الصحف جمعت في مجلد واحد ، وهو ما ليس بالغريب في الأدب العربي الحديث منذ مطلعه وانما المبتكر فيه هو الموضوع المقدم .

والواقع أنه من النادر جداً أن يخصص الكتّاب العرب مؤلفاً خاصاً كاملاً لمواضيع سياسية فقط وخاصة القدماء منهم . وقد ذكر الكواكبي بخصوص ذلك بعض الملاحظات الهامة في مقدمته [1] . اذ يقول إن المؤلفين المسلمين في العصور الوسطى ، لم يتكلموا عن السياسة سوى في الكتب التي تتحدث عن الأخلاق والآداب والتاريخ . وأما الكتّـــاب العرب الحديثون فلم يطرقوا هذا الموضوع ذاته ، سوى بمقالات في الصحف والمجلات وهذا هو ما عمله بالضبط مؤلفنا . ولكن فضله هو أنه جعل لمؤلفاته وحدة ثابتة رغم مظاهرها المتفرقة ، إذ أنها تخص نظام حكومة لها طريقة سياسية معينة هو : الحكم المستبد .

كان الموضوع من الخطورة الاقتراب منه ، وقد كان الكواكبي أول من طرقه ، بطريقة مفصلة كاملة . والحق أنه أمضى الجزء الاكبر من حياته في خدمة الحكومة العثمانية في حلب ، وأنه كان في ظروف يمتاز بها عن غيره ليحدد « طبائع الاستبداد » ويصب عليه كل نقمته .

يطرق المؤلف طرقاً متوالياً المسائل الآتية :

ما هو الاستبداد ؟ الاستبداد والدين . الاستبداد والعلم . الاستبداد والمجد . الاستبداد والمال . الاستبداد والاخلاق . الاستبداد والتربية . الاستبداد والترقي . الاستبداد والتخلص منه .

وقد انتقد الكواكبي بتفصيل وشده طوال هذا المؤلف الاستبداد عامة ، وخاصة في صوره الشرقية . وأظهر بصورة جلية نتائج هذا النظام السيئة

---

[1] ط.أ. مقدمة ٥ إلى ٧ .

في جميع الميادين . ونشعر بثورته القوية ضد الدكتاتورية العثمانية . ورغم قوله في مقدمته أن هجاته ليست موجهة الى أي حكومة خاصة ، فان القارىء يدرك سريعاً أن ذلك لم يكن من قبل الكاتب سوى إحتياط مبدئي ، وأن طعناته ضد النظام العثماني لا تخفى على أحد . وفي المرتبة الثانية يتحدث عن بعض الموضوعات الدينية فيذكر هنا في الواقع أغلب آرائه الدينية المعروضة في مؤلفه الآخر .

وهل نستطيع أن نقول عن كتابه في « الاستبداد »إنه انتقاد سلبي فقط لا يحتوي على أي شيء ايجابي ؟ بالطبع لا . فالمؤلف يظهر لنا بوضوح النظام الذي يتمناه وهو : الديموقراطية الدستورية ، ويؤيد بأدلة عديدة أن نوع هذا الحكم يطابق روح الاسلام السلفي . وفضلاً عن ذلك قام الكواكبي بتحليلات نفسية عميقة صحيحة عن المستبد والنبلاء ورجل العامة في النظام الاستبدادي . وأخيراً فان الاعتبارات الواقعية التي يشير بها الى الطريق الذي يجب السير فيه ، للتخلص من الاستبداد ، دليل على بعد نظر ممتاز ولم تزل صحيحة حتى الآن .

فاذا أمكننا القول بأن الظروف السياسية والتجارب التي مرت به ، خلال قيامه بوظائفه الهامة المتنوعة في حلب ، هي التي دفعت الكواكبي لكتابة هذا المؤلف ، فهناك منبع آخر يجب أن نذكره اذ نشعر به طوال قراءة الكتاب ألا وهو « روح القوانين » « لمونتسكيو » Montesquieu ومن الأرجح أن مؤلفنا كان يعرف الفرنسية ويشير غالباً في مؤلفه الى بلادنا وتاريخها . وتأثير آراء هذا الفيلسوف الذي عاش في القرن الثامن عشر على « طبائع الاستبداد » واضح جداً .

والمؤلف يذكره كأحد رجال العلم الممتازين الذين عرفوا « كيف يظهرون الحق ويخذلون الباطل »[1]. وهذا بالضبط ما اراده الله بالعلم ،

---

[1] ط. أ. صحيفة ٣٣ .

كما يرى الكواكبي ؛ وقد اقتبس من مونتسكيو عدة آراء عن « حقيقة الاستبداد ومبادئه . ولنذكر ان الاستبداد هو النظام الثالث من نظم الحكم ، التي ذكرها مؤلف « روح القوانين » ، وكان يقصد بذلك خاصة الحكم المطلق الشرقي . وهذا هو النوع الوحيد من الحكومات الذي هاجمه وانتبذه لأنه مؤسس على « الارهاب »[1] . وبعد دراسة « مبادئها » جعل « يسيل القوانين كما لو كانت من منبعها » . والكواكبي قد استعمل هذه الوسيلة في جميع فصول مؤلفه . وأخيراً فان بعض الآراء الهامة التي يعرضها في الميدان السياسي ترجع الى مؤلف مونتسكيو . ولنذكر على سبيل المثال: انفصال السلطات ومسؤولية السلطات التنفيذية أمام السلطات التشريعية ومشاركة الشعب في اداء الشؤون العامة بواسطة ممثليه المختارين . فمن المعروف أن الآراء الفلسفية التي انتشرت في القرن التاسع عشر ، كان لها تأثير كبير على عقول المسلمين المثقفين[2] . وقد أشار الشيخ « محمد عبده » في كتابه « تفسير القرآن » الى هذه المبادىء العظيمة للديموقراطية التي يجدها متفقة مع أحكام القرآن الكريم .

ولنختتم هذه النظرة على الآراء الاصلاحية للكواكبي ، بالقول إن المؤلفين ، اللذين تتكون منهما هذه الآراء ، قد صيغا في قصد واحد: تحرير البلاد الاسلامية من وطأة الحكم العثماني ، وتحقيق نهضة الحياة الدينية ، الاجتماعية والسياسية ، في نطاق اتحاد فكري ذي روح ديموقراطية. لكن اهتمام المؤلف في « أم القرى » كان ينصبّ أصلاً على المسائل الدينية ، رغم انه كان في بعض الأحيان يعلق على المشاكل الاجتماعية والسياسية . وبالعكس من ذلك فقد احتلت المشاكل الاجتماعية والسياسية الجزء الأكبر من « طبائع الاستبداد » بينما خصص المؤلف للعقائد والعادات الحيز الاصغر . وخلال المؤلفين ، كان الكاتب اما أن يقوم بنقد تحليلي

---

١ انظر فيما يلي أن الكواكبي يعيد الفكرة نفسها ويتوسع فيها في ط. أ. ص ٣٥ و ٣٦ .

٢ وخاصة على الخطباء الشبان .

للأحوال الحاضرة واما أن يعرض الوسائل الكفيلة حسب رأيه لعلاج هذا الحال . وغرض هذه الدراسة هو بالضبط استخلاص الجزء الايجابي من الدعوة ، أي الاصلاحات المقترحة في الميادين الثلاثة: الدينية والاجتماعية والسياسية . هذا الترتيب الذي يظهر بديهياً غاية في الوضوح ، هو من أصعب ما يمكن تطبيقه في المشاكل الخاصة بالاسلام . وفي هذا الانتاج الذي ندرسه ، تختلط هذه الميادين الثلاثة بشيء من الغموض حتى ان الاصلاحات المقترحة نادراً ما تتميز بدقة عن الانتقادات التي نضطر للاشارة اليها أحياناً .

الفصل الثاني

الاصلاحات المقترحة

في الميدان الديني

وهي بالطبع أهم الإصلاحات ، إذ أن الدين ، بالنسبة للمسلم ، هو أساس المعاملات والتصرفات. ويقول المصلحون بأن ما أصاب العالم الاسلامي من أضرار ، كان نتيجة اهمال تعاليم الدين وتحريفها . فالمجموعة الأولى من هذه الإصلاحات ، كما يقول الكواكبي ، هي التحديد الدقيق للمصادر التي يرجع اليها المسلم في تكييف حياته الدينية والدنيوية . وبعد دراسة اصول الفقه ، والروح الـتي يجب أن تفسر بها ، سوف نختبر بعض النقاط الخاصة بتطبيق هذه المصادر عليها ؛ وقد أعطى المؤلف بخصوصها نصائح واضحة وحلولاً دقيقة . وسوف نتكلم عقب ذلك عن آرائه الخاصة ببعض امور « العقائد » التي أبرزها . وأخيراً نبين الحلول التي اقترحها لعلاج هذا التدهور الديني. وفيما يختص بشؤون الحياة العامة « المعاملات » وبرغم أنها على صلة وثيقـة بالدين ، فسوف ندخلها في المجموعتين الاخيرتين من الإصلاحات الاجتماعية والسياسية ، حرصاً منا على الايضاح

والترتيب [1] .

أ ــ « اصول الفقه » والروح التي يجب تفسيرها بها :

المصادر بالنسبة للكواكبي ، كما هي بالنسبة لكل مشرع « اصولي » مسلم ، هي التعاليم التي تضمنها القرآن وسنة الرسول بالضبط . ولكنه يحتم أن تكون هذه التعاليم الأساسية مفهومة ومنفذة حسب ما اتفق عليه المسلمون الاوائل « السلف » [2]. وعليه فيجب نبذ الاختلاف في التفسير الذي حدث فيما بعد نتيجة للمذاهب المتعددة . وقد أبان الكواكبي هذه الفكرة الأساسية وأعطاها أهمية كبيرة في خطاب الرئيس في حفلة افتتاح المؤتمر (مندوب مكة) [3] . فبعد أن بين المشاكل الخطيرة التي شغلت الجزء الأكبر من الجلسات ، أي « التشخيص الدقيق للداء (الذي تتألم منه الجالية الاسلامية) حتى يمكن تحديد الدواء » [4] . دعا الأعضاء الى

---

١ كان من المحال المحافظة على النظام التقليدي وترتيب مراجع الفقه اذ أن الكواكبي لا يتناول في مؤلفه جميع المسائل بل بعض النقاط الخاصة فقط ويبحثها بلا ترتيب . ومن جهة أخرى ، وبدون الابتعاد نهائياً عن الترتيب الذي يتبعه المؤلفون العرب الآخرون ، فقد أردنا المحافظة على ما يستلزمه المنطق والموضوع .

٢ ليس هذا الموقف بجديد . إنه أيضاً رأي السنيين الحنبليين وخاصة المشرع المصلح ابن تيمية (توفي في ٧٢٩ هـ = ١٣٣٨ م) ، ثم تناقلها الوهابيون ، ثم بعد ذلك المصلحون الحديثون الاوائل : الافغاني والشيخ عبده اللذان سميا حركتهما باسم « سلفية » يقصدان به الحزب المجدد الحر الذي أسساه في باريس عام ١٨٨٣م ، وقد شمل هذا اللقب عقب ذلك كل الحركات التجديدية فساقداً بذلك شيئاً فشيئاً طابعه الديني ليشير إلى حركة اجتماعية وثقافية بوجه خاص .

انظر بخصوص هذه الحركة ، الدراسة الهامة للسيد هـ. لاووست : الاصلاح الارثوذكسي للسلفية والطابع العام لاتجاهها الحالي R. E. I. Revue des Etudes Islamiques ــ ١٩٣٢ العدد السادس ، ص ١٧٥ إلى ٢٢٤ .

٣ اختيار هذا المندوب كرئيس له حتماً دلالته : مكة هي مقر المؤتمر الصوري ومهد الدين الإسلامي .

٤ أم القرى صفحة ١١ .

ترك خلافاتهم الناتجة عن (المذاهب) المختلفة وحدد في الوقت نفسه « الأصول » كما يراها هو نفسه والتي تتفق مع أهل السلف . وها هو نص ما يقول :

« ثم يا أيها الاخوان اظنكم كذلك تستصوبون أن نترك جانباً اختلاف المذاهب التي نحن متبعوها فلا نعرف مآخذ كثير من أحكامها ، وأن نعتمد على ما نعلم من صريح الكتاب وصحيح السنة وثابت الاجماع ، وذلك لكيلا نتفرق في الآراء وليكون ما نقرره مقبولاً عند جميع أهل القبلة ، إذ أن مذهب السلف هو الأصل الذي لا يرد ولا تستنكف الأمة أن ترجع اليه وتجتمع عليه في بعض امهات المسائل ، لأن في ذلك التساوي بين المذاهب ، فلا يثقل على أحد نبذ تقليد أحد الائمة في مسألة تخالف المتبادر من نص الكتاب العزيز أو تباين صريح السنة الثابتة في مدونات الصدر الاول »[1].

وقد حدد الكواكبي « الاصول » بأقصى ما يستطيع ، مستنداً الى القرآن والجزء المطابق تماماً « لسنة » الرسول ، متبعاً في ذلك الرأي المنطقي القوي للشيخ محمد عبده عن « اصول الفقه »[2] . في حين أن الكواكبي قد أضاف « الاجماع » الى هذين المصدرين الاساسيين بواسطة أهم ممثليه « أهل الحل والعقد »[3] . ولقد كانت هذه الفكرة عزيزة

---

١ « أم القرى » ص ١٢ .

٢ انظر « رسالة التوحيد » عرض للدين الإسلامي للشيخ محمد عبده ترجمت للفرنسية بمعرفة ب. ميشيل ومصطفى عبد الرازق . باريس عام ١٩٢٥ . ص ١٣٦ و ١٣٧ .

٣ بخصوص هذه الفئة من الشخصيات المسماة « أولي الأمر » انظر القوانين لرشيد رضا في «الخلافة أو الامامة العظمى » ترجمة وتعليق هـ. لاووست – بيروت ١٩٣٨ صفحة ٢٤ و ٢٨ .

هذا الاصطلاح يستعمله غالباً الفقهاء الحنبليون في تعريفهم « للاجماع » – انظر خاصة « المتون الأصولية بجمال الدين القاسمي ص ١١٥ » التعريف الذي أعطاه الحنبلي صفي الدين البغدادي .

لديه ، حتى أنه أقام مؤتمره على أساس مبدأ الاجماع . فقد كان مقتنعاً بأن القرارات التي ستتخذ سوف يكون لها قوة القانون وسوف تكون مقبولة لدى الجميع . وفكرة الاجماع هذه تفترض بالطبع نبذ الخلافات والعودة الى المنابع والى نقاء الاجيال الاولى من المسلمين . وقد أوضح الرئيس بنفسه مزايا « الاجماع » والآمال التي تتوالد منها :

« فعلى هذا لا أرى من مانع أن نترك النقول المتخالفة خصوصاً منها المتعلق بالبعض القليل من الاصول ونجتمع على الرجوع الى ما نفهمه من النصوص أو ما يتحقق عندنا حسب طاقتنا أنه جرى عليه السلف وبذلك تتحد وجهتنا ويتسنى لنا الاتفاق على تقرير ما نقرره ويقوي الامل في قبول الامة منا ما ندعوها اليه »[1] .

الكواكبي يعتمد إذن على إجتماعات أعيان المسلمين كثيراً لحل المشاكل الجديدة والدقيقة التي تواجه الامة وليجعلها توافق على حلولها . ويرى دائماً في مؤلفه : اتحادات ، اجتماعات مجالس ، مشاورات . ومن ذلك يتضح أنه كان متأثراً بالروح الحرة للعلماء في القرن الثامن عشر ، وبروح الديموقراطية الغربية خلال القرن التاسع عشر ، أسوة بتأثره بتعاليم القرآن نفسها والسنة التي توحي باتباع نظام « الاجماع ». وقد اتخذ المؤلف من ذلك المصدر الهام تطبيقات متعددة وخاصة في مبدأ الخلافة . لكن هذا « المبدأ الجماعي » لا يكون صالحاً كما يقول الكواكبي ، إلا اذا كان منفذاً بمعرفة طبقة خاصة من الاشخاص ، ومن مجموعة من المسائل المحددة كما سوف يتضح لنا . والواقع أنه ليس المقصود أن يترك لكل من يشعر في نفسه المقدرة، حرية التصرف حسب رأيه الخاص «الاجتهاد» الذي يعتبر المصدر الرابع والهام للتشريع .

---

١ أم القرى ص ١٤ .

هذا المجهود للحكم الشخصي قد أهمل منذ مدة طويلة واستبدل بـه « التقليد » الاعمى لقرارات اتخذها الأئمة الأوائل « المجتهدون » الذين كما يقول ، قد فسروا الآيات المقدسة بطريقة شديدة الصلابة معتمدين في ذلك فقط على ظروف الحياة في زمانهم . وإن المتحدث بلسان المؤلف عن تلك الفكرة الأساسية هو مندوب اليمن ، الذي بيّن خلال حديث طويل[1] ، أن مؤسسي « المذهب » لم يفعلوا سوى التعبير عـن رأيهم الشخصي ، بدون تأكد وبدون أن يبيحوا للمسلمين أتباعهم . ويتحدث عن العلماء في بلاده ، الذين يقدمهم هنا في أحسن مظهر ، اذ يقول :

« لا يجوزون اتبـاع امام اذا رأوا ما ذهب اليه في المسألة بعيداً عن الصواب فلا يقلدون أحداً تقليداً مطلقاً كأنه نبي مرسل »[2] .

ويتم هـذا المندوب نفسه حديثـه ، بالمناداة بالحكم الشخصي الذي تستدعيه الحياة العصرية ، بالألفاظ الآتية :

« والقول الذي فيه فصل الخطـاب ان الله سبحانه ولـه الحكم لم يرضَ منا ان نتبع الا علم الافضل بل كلفنا بأن نستهدي من كتابه وسنة رسوله على حسب امكاننا وطاقتنا وهو يرضى منا بجهدنا حيث قال تعالى (لا يكلف الله نفساً الا وسعها) فنسأل الله التوفيق لسواء السبيل »[3] .

وفيما بعد يتخيل الكواكبي في حديث مندوب قازان مناقشة بين أحد أنصار التقليد (مفتي قازان) ، وأحد العلماء العصريين (مستشرق روسي قد أسلم وهو واسع العلم في الأمور الاسلاميـة) ومن المؤيدين بحرارة تطبيق المنطق والحكم الشخصي . هذا العالم يعبر عن فكرة المؤلف ، وينتقد

---

١ أم القرى ص ١٠١ إلى ١١٠ .

٢ المصدر نفسه ص ١٠٣ .

٣ أم القرى ص ١٠٩ و ١١٠ .

تقليد انصار المذهب ويستخلص من ذلك طريق السير الواجب اتباعه :

« بناء عـلى ذلك لا بد للمتحري في دينه من أن يستهدي بنفسه لنفسه أو يأخذ عمن يثق بعلمه ودينه وصواب رأيه ولو من معاصريه لأن الدين أمر عظيم لا يجوز العقل والنقل فيه المماشاة واتباع التقليد »[1] .

وكما يقول ، ان هذه الحرية في الحكم يجب الا تنطبق الا في الشؤون الاجتماعية فقط ، اذ ان شؤون الدين نفسه ، قد حددت بطريقة واضحة ونهائية بالنصوص المقدسة (القرآن والسنة) .

« ولو أن الامر نظام وضعي لما كان ايضاً من الحكمة أن يلتزم أهل زماننا بآراء من سلفوا من عشرة قرون ولا أن يلتزم أهل الغرب بقانون أهل الشرق . وعندي أن هذا التضييق قد استلزم ما هو مشاهد عندكم من ضعف حرمة الشرع المقدس .

« وأعيد قولي انكم تحبون أن تكلفوا أنفسكم بما لم يكلفكم به الله[2] ولو أن في الزيادات خيراً لاختارها الله لكم ولم يمنعكم منها بقوله تعالى (ما فرطنا في الكتاب من شيء) « قرآن كريم ٦ — ٣٨ » أي مما يتعلق بالدين[3] ... ولكن علم الله الخير في القدر الذي هداكم اليه وترك لكم الخيار على وجه الإباحة في باقي شؤونكم لتوفقوها على مقتضيات الزمان أبى

١ أم القرى ص ١٢٠ .

٢ اشارة إلى المغالاة في الأمور الدينية .

٣ هنا يبين الكواكبي في ملحوظة ان القرآن قد حدد جميع الأصول الخاصةبالدين نفسه «عقائد وعبادات » وليست علوم الله كلها كما يتخيله الكثيرون فهل نرى من تلك النقطة الأخيرة الشديدة الأهمية في الشريعة وعلوم التفسير ، تأثيراً بعيداً للموقف « الزاهري » ؟

الغير وموجبات الاحوال التي لا تستقر فبناء عليه اذا اتيتم اكثر اعمالكم الحيوية باطمئنان قلب بأباحتها يكون خيراً من أن تأتوها وأنتم حيارى لا تدرون هل أصبتم فيها أم خالفتم أمر الله فتعيشون وافئدتكم هواء.. وليس هذا من مخافة الله التي هي رأس الحكمة... بل هذا من الارتباك في الرأي والاضطراب في الحكم ونتيجة لذلك فقد الحزم والعزم في الامور »[1] .

هذه المقتطفات تبيح لنا أن نحدد بالضبط موقف الكواكبي فيما يختص بالمصدر الرابع ، وهو « المجهود الشخصي » في الحكم والتقرير (الاجتهاد) .

فهو اولاً لا يبيح التقليد الا في القرارات التي اتخذتها مجالس صحابة النبي الأوائل او خلفائهم الراشدين فيما يختص بالمسائل الدينية البحتة . وهذا يمس المصدر الثالث اي « الاجماع » والذي يكلف به العلماء الحاليون فيما يختص بالمشاكل المستجدة . أما فيما يختص بالمسائل الاخرى ، أي تلك التي تخص التصرفات في الحياة الاجتماعية العامة (المعاملات) ، فالتقليد ليس مستساغاً . حتى ان جميع كبار المشرعين القدماء والمحدثين تقريباً يحكمون ضده ويحذرونه . اذن فيجب اللجوء الى اجتهاد المؤمنين القادرين . أما الآخرون فعليهم ان يتبعوا رأي العالم الذي يثقون به ، حتى ولو كان من معاصريهم .

وأخيراً يوجد مصدر خاص لا يشير اليه الكواكبي الا عرضاً ، ولكنه يقبله طوعاً ، كأغلب العلماء المصلحين وخاصة رشيد رضا ، وهو الاهتمام « بالمصلحة » العامة . والواقع أنه فيما يختص بالمسائل الحالية التي تمس مجموعة الطائفة ، من الوجهة القضائية والاجتماعية والسياسية ، والتي لها صلة بالدين ، ينادي المؤلف « باجماع » العلماء ، لكن قرارات هؤلاء الممثلين ، سوف يكون رائدها بلا شك الاهتمام « بالمصلحة » العامة ،

---

١ أم القرى ص ١٢٢ و ١٢٣ .

التي لا يمكن التغاضي عنها حتى يمكن قبول هذه القرارات وتطبيقها من جميع أفراد الطائفة . فضلاً عن انــه يجب ان يعتمدها الامام الأكبر « الخليفة » أو نيابة عنه السلطان الذي يمنحه المؤلف سلطة « الاجتهاد » وان كان في الواقع تحت اشراف مجلس العلماء .

وخلاصة القول ان موقف الكواكبي فيما يختص بهذه المسائل الهامة الخاصة (بأصول الفقه) ، برغم شدة صلابته فيما يختص بالنقط الدينية البحتة، هو موقف متسامح ومتطبع بروح حرة مؤسسة على المنطق والتقدم والمصلحة العامة وروح الاتحاد في كل المسائل الخاصة بالحياة الجارية الحالية (اجتماعية وعائلية وقضائية وسياسية) . انها وجهة نظر ثورية لانه أولاً مفكر مسلم في العصر الحديث، حاول أن يفرق بين الاعمال الدينية حقاً، وبين التصرفات الدنيوية التي تدفعــه اليها ضروريات الحياة الحاليـــة ، والمؤلف يعيد تناول هذه الفكرة بوضوح في تعريفه للخلافة .

هذا الجزء الاساسي من الاصول يخص كما نرى المجالات الثلاثة : الدينية والاجتماعية والسياسية . ولكن لا شك أن بحثـــه في نطاق الآراء الدينية يكون أكثر منطقاً ، إذ يجب ألاّ يغرب عن بالنا أن الدين، حين نتكلم عن الإسلام ، هو الذي ينظم كل شيء .

ب ـ بعض النقاط الخاصة في تطبيق هذه الاصول .

لنبدأ من الاصول التي حددناها ، ولنحاول أن نختبر بعض التطبيقات التي يراها مؤلفنا في الميدان الديني . وهنا أيضاً نرى أنه يهتم خـــاصة بالخلافات القائمة بين المذاهب المختلفة .

إنه يريد علاج هذه الخلافات بأن يبدأ بعرض مبدأ التسامح بين هذه المدارس عن طريق مندوب تبريز ، الذي أخذ على نفسه الدفاع عن

طريقة « التلفيق »[1] التي يعتبرها مقبولة فعلاً رغم رأي بعض الفقهاء في أنها نوع من الغش في الدين ، وهذا المندوب يقول في الواقع :

« لأنــه لا يعقل ان يكلف هذا المقلد بأخذ دينه كله من عالم واحد ولأن الدين يلزم المسلم بأن يتبع في كل مسألة منه الشارع لا الامام وان يعمل في مواقع الاجتهـاد باجتهاده لا باجتهاد غيره وان كان افضل منه »[2].

فضلاً عن أنـــه يذكر ان الكثير من « المجتهدين في المذهب » لم يكونوا متفقين في الرأي مع إمامهم « المجتهد المطلق » ، على عدد من المسائل .

وقد دفع ذلك طبيعياً الكواكبي الى أن يشير « بالتسامح بين المذاهب » في تطبيق « الشريعة »[3] . وبقبول « التقليد » ، وعلى هـــذا الاساس انتقد « التعصب » الموجود لدى بعض أتبـــاع المذهب ، اذ أن ذلك مخالف لأوامر الله تعالى : « أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه » — (قرآن كريم ١٣ — ١٣)[4].

فاذا كان الكواكبي ينادي بالتسامح بين المذاهب والشيـع ، فانه يود

---

١ نوع من الاختيار في التشريع الإسلامي يستخلص من المذاهب الأخرى غير المذهب المتبع عادة لحل بعض المشاكل الدينية والقضائية .

٢ أم القرى ص ١٣٣ .

٣ روح التسامح هذه تقربه من موقف الشيخ عبده الذي استند إلى حديث ليثبت أن التسامح الذي يجب أن يتبعه مسلمو المذاهب المختلفة نحو بعضهم — قارن الحديث الذي يقول : « ستنقسم أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة ستهوي كلها في النار إلا فرقة واحدة » — فكرة التسامح هذه بين المسلمين قد أوضحها الشيخ عبده في أحد أوائل مؤلفاته « العقائد العدوية — القاهرة ١٢٩٢ هـ — ١٨٧٦ م » ، وعقب ذلك ينصح بالتسامح نحو الاديان الأخرى في مؤلف آخر « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » القاهرة ١٣٢٠ هـ = ١٩٠٢ م .

٤ أم القرى ، ص ١٣٤ .

اتحاد المسلمين ، ويرغب أن تكون الطائفة الاسلامية وحدة روحية قوية. وهذه الفكرة تتكرر مرات عديدة في مؤلفه . ولتحقيقهـــا اقام المؤلف أكبر آماله على الشعب العربي :

« جمعيـــة ام القرى تعتبر العرب هم الوسيلة الوحيدة الكلية الدينية بل الكلمة الشرقية »[1] .

وفيما بعد يحدد :

« وإنمـــا يرى ما لا بد أن يراه كـل حر مدقق يتفحص الأمر .. ان المشيئة الالهية قد حفظتهـــم من تلك الأمراض الأخلاقية التي لا دواء لها »[2] .

ويشير هنا الى الامراض التي تتفشى من الوجهـــة النفسية والدينية . ويعتبر ايضـــاً ان تحقيق هذه الوحدة الروحية ، لا يمكن ان توجد الا بالاكثار من الاجتماعات و « الجمعيات » والاستشارات والمحاضرات في المواضيع المفيدة ، روحية أو مادية ، بالاستعانة بالعلماء الحقيقيين « أهل الحل والعقد » و « بأهل الحكمة » حسب مبدأ الشورى الذي اتبعه النبي والخلفاء الاربعة الاوائل ، ثم تغوضي عنه فيما بعد[3] . ولقـد أعطى النبي المثل الاول للشورى باتباعه أوامر الله الذي أمره « وشاورهم في الامر » (قرآن كريم ٣ — ١٥٩)[4] .

ومن المحقق ان تطبيق مبدأ الشورى ، حسب الآيات المقدسة ، هو الذي دفع مؤلفنا لعقد هذا المؤتمر الصوري . ولكي يعطي ايضاً مثلاً حياً

---

١ أم القرى ، ص ١٩٧ .

٢ أم القرى ، ص ٢١٢ .

٣ انه « معاوية » الذي انتصر على «علي » هو الذي ترك في عام ٦٨٠ هـ مبدأ الشورى في اختيار الخليفة وأقام الخلافة الوراثية .

٤ أم القرى ، ص ٥٨ .

فقد نادى بمشروع الجماعة الدولية التي سوف نعود لذكره ، وغرضه من ذلك هو : الوحدة الروحية للعالم الإسلامي ، وفي الوقت نفسه لا يحيد عن فكرة موضوع الامام الأعظم على رأس الطائفة والذي يجب ، كما يقول : أن يكون العامل الأساسي لحفظ وتقوية هذه الوحدة . فقد كان مندوب التتار ، رغم عدم توفيقه اللغوي ، هو أول من أكد أن الآلام التي تشكو منها الطائفة ترجع الى :

« فلا أمير حازم مطالع ليسوق الأمة طوعاً أو كرهاً الى الرشاد ، ولا حكيم معترف له بالمزية والاخلاص لتنقاد اليه الأمراء والناس » .

إذن فهذه في الحقيقة إثارة « موضوع الخلافة » التي فقدت على يد الملوك العثمانيين [١] ، منذ قرون عديدة ، كل هيبتها وخاصة معناها الروحي ، ويشير الكواكبي الى ذلك مرات عديدة أثناء المؤتمر نفسه ، عن طريق بعض المندوبين [٢] . ولكنه قد بحث خاصة في «اللاحقة» ــ الجزء الذي ضم الى محضر الجلسات ــ هذا الموضوع الهام . وهناك يستعين باجتماع صوري متخيلاً النقاش بين مندوب الهند وأمير « شهير عظيم يعد من أنبل أشخاص الطائفة ومن أكبر رجال السياسة » [٣] هذا الأمير بعد أن

---

١ ويزيد مندوب التتار أيضاً سببين من أسباب الآلام المنتشرة وهي «نقص المبادئ القومية للتعليم الذي يؤدي إلى الاجماع والجمعيات المنظمة التي تكتل جهودها للخير » . انظر « أم القرى » ص ٥١ و ٥٢ .

٢ التتري الذي ذكرناه الآن هو مندوب تبريز الذي سبق الاشارة اليه والذي سوف نتحدث عنه فيما بعد .

٣ هذه الشخصية تبدو صورة كاملة للأمير ، ولكن ربما يكون مؤلفنا قد تأثر بالاعجاب الذي يكنه المتنورون في أواخر القرن التاسع عشر لعالم هندي ذي اتجاه عصري ومنفذ الاصلاحات في بلاده : السيد أحمد خان بهدور ، ولد في دلهي عام ١٨١٧ م وتوفي عام ١٨٩٠ م . وهو مؤلف لعدة مراجع في الإسلام . ويعالج من بين هذه المسائل الخلافة والجهاد والإسلام أمام الحياة العصرية . ولكن ما قام بتنفيذه في حياته هو انشاء جامعة عليكره في عام ١٨٧٥ م ويبدو أن المؤلف قد اقتبس كثيراً من الافكار عن ذلك العالم العصري .

انتقد السياسة الدينية للعثمانيين الذين ، كما يعتقد ، كان همهم الاكبر هو تثبيت سلطانهم وليس المحافظة على الاسلام ، وبعـد أن أشار الى عدم الخلافة ، يعرض المبادىء الاصولية ، التي يجب ، على حد قوله ، أن تنظم هذه الوظيفة العليا . وينتهز الفرصة في الوقت نفسه ليبين الوسيلة لتطبيـق الشورى والاجتهاد وصفة الاجماع للممثلين الجديرين للطائفـة . فالكواكبي يعطينا بذلك وبطريقة محـددة ، فكرته التي يرى بها التنظيم الروحي والديني لتلك الطائفة ، بتطبيق التعاليم التي تحتويها الآيات المقدسة مع مراعاة الظروف السياسية الخاصة للدول الاسلامية المختلفة . ونعتقد أن هذه الفقرة من الاهمية ، بحيث يجب أن نذكرها بأكملها ، فهي تحتوي على ثماني عشرة نقطة وبعض التحديدات الدقيقة الملحقة بها :

١ — إقامة خليفة عربي قرشي مستجمع للشرائط في مكة .
٢ — يكون حكم الخليفة مقصوراً على الخطة الحجازية ومربوطاً بشورى خاصة حجازية .
٣ — الخليفة ينيب عنه من يترأس هيئة شورى عامة اسلامية .
٤ — تشكل هيئة الشورى العامة من نحو مائة عضو منتخبين مندوبين من قبل جميع السلطات والامارات الاسلامية وتكون وظائفهـا منحصرة في شؤون السياسة العامة الدينية فقط .
٥ — تجتمع الشورى العامة مدة شهر في كل سنة قبيل موسم الحج .
٦ — مركز الشورى العامة يكون مكة عندما يصـادف الحج موسم الشتاء والطائف في موسم الصيف .
٧ — تقترع الشورى يوم افتتاح كل اجتماع على انتخـاب نائب الرئيس ويعينه الخليفة .
٨ — تعيين وظائف الشورى العامة بقانون مخصوص تضعه هي ويصدق عليه من قبل السلطنات والامارات .
٩ — ترتبط بيعة الخليفة بشرائط مخصوصة ملائمة للشرع اذا تعـدى

شرطاً منها ترتفع بيعته وفي كل ثلاث سنين يعاد تجديد البيعة .

١٠ ـ انتخاب الخليفة يكون منوطاً بهيئة الشورى العامة .

١١ ـ الخليفة يبلغ قرارات الشورى ويراقب تنفيذها .

١٢ ـ الخليفة لا يتداخل في شيء من الشؤون السياسية والادارية في السلطنات والامارات قطعياً .

١٣ ـ الخليفة يصدق على توليات السلاطين والامراء التي تجرى احتراماً للشرع على حسب اصولهم القديمة في وراثاتهم للولاية .

١٤ ـ الخليفة لا يكون تحت أمره قوة عسكرية مطلقاً ويذكر اسمه في الخطبة قبل اسماء السلاطين ولا يذكر في المسكوكات .

١٥ ـ يناط حفظ الأمن في الخطة الحجازية بقوة عسكرية تتألف من ألفين الى ثلاثة آلاف من جنود مختلطة ترسل من قبل جميع السلطنات والامارات .

١٦ ـ تكون القيادة العامة للجنود الحجازية منوطة بقائد من قبل أحد الامارات الصغيرة .

١٧ ـ يكون القائد تحت أمر هيئة الشورى مدة انعقادها .

١٨ ـ هيئة الشورى تكون تحت حماية الجنود المختلطة .

« أما وظائف الشورى العامة فيقتضي أن لاتخرج عن تمحيص امهات المسائل الدينية التي لها تعلق مهم في سياسة الأمم وتأثير قوي في اخلاقها ونشاطها وذلك مثل :

« فتح باب النظر والاجتهاد تمحيصاً للشريعة وتيسيراً للدين وسد أبواب الحروب والغارات والاسترقاق اتباعاً لمقتضيات الحكمة الزمنية .

« وكفتح أبواب حسن الطاعة للحكومات العادلة واستفادة من ارشاداتها وإن كانت غير مسلمة وسد أبواب الانقياد المطلق ولو لمثل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) .

« وكفتح باب أخذ العلوم والفنون النافعة ولو عن المجوس.
وسد باب اضاعة الأوقاف بالعبث ونحو ذلك من أمهات
المنجيات والمهالك »[1] .ويستنتج الأمير من ذلك :

« وبمثل هذا الترتيب تنحل مشكلة الخلافة ويتسهل عقد اتحاد
اسلامي تضامني تعاوني[2] » .

ان طابع الخلافة الذي يوضحه الكواكبي يتشابه ، في بعض النقاط فقط ، مع آراء المشرعين التقليديين وأهل « السلفية » المحدثين ، وخاصة تعاليم الشيخ رشيد رضا الموضحة في أحد أهم مؤلفاته[3] . ولنذكر ان مؤلفنا في الأيام الأخيرة من حياته كان من أتباع مدرسة « المنار » التي كان يديرها هذا العالم المصلح الذي يعتبر نشاطه تكملة لرسالة الشيخ محمد عبده . هذا التشابه في الآراء عن الخلافة تشمل ثلاث نقط هامة بلا شك وهي : نسب الخليفة (من قبيلة قريش) ، واختياره بمعرفة أعضاء يمثلون جميع البلاد الاسلامية ، وتطبيق مبدأ الشورى أي استشارة العلماء من « أهل الحل والعقد » .

في حين انه رغم هذه النقط المشتركة ، فان الكواكبي يظهر بمظهر المنفرد في مدرسة المنار ، وكانت تعاليمه عن الخلافة خاصة تبين خلافات أساسية مع رئيس هذه المدرسة . فالواقع انه كان من انصار فصل السلطات الروحية والدنيوية بطريقة قاطعة ، والفترة التي ذكرناها الآن تحدد بكل

---

١ أم القرى ، ص ٢٠٧ إلى ٢٠٩ .

٢ أم القرى ، ص ٢١٠ .

٣ (الخلافة أو الإمامة العظمى) — القاهرة ١٩٢٢ م . وهذا المؤلف يعطينا صورة عن موقف الحركة التجديدية في الربع الأول من القرن العشرين وفي الوقت نفسه شبه نصف متصوف وحنبلي جديد متأثر بالروح الدفاعية التي انتهت بأن تقود إلى المحافظين الحديثين . وعند الكثير من المفكرين المسلمين الحديثين كرشيد رضا نلاحظ هذا التطور في الافكار السائدة خلال حياتهم .

دقة هذه التفرقة . ولكن رشيد رضا ، متفقاً في ذلك مع المشرعين المحافظين ، جعل من الخليفة شخصية ذات سلطات واسعة . فاذا كان مجتهداً ، وله في الوقت نفسه صفات القاضي والمفتي (وهو قادر على تفسير الآيات) أي مكلف بحماية الدين ، فيجب ايضاً ان يقوم بادارة المصالح المادية للطائفة ، أما بالنسبة لمؤلفنا ، فان السلطات الروحية للخليفة ما هي في الواقع سوى مظهرية فقط « اعتماد القرارات » ما دامت تحت اشراف مجلس الشورى . فضلاً عن أنهم متحدون مع سلطة دنيوية ضئيلة، هي ايضاً تحت الاشراف ، ومحددة في نطاق الأراضي المقدسة للحجاز . ويظهر ان هذه الامتيازات لرئيس الطائفة الاسلامية تقارب ، بالنسبة اليه، تلك التي يحوز عليها « البابا » مع الاختلاف الاساسي فقط في عقيدة العصمة من الخطأ التي لا توجد لدى المسلمين . وعلى كل حال فان الكواكبي قد يكون أول مفكر حديث تراءى له بصفة واضحة هذا الوضوح ، « التفرقة بين الروحي والدنيوي » [1] . التي سبق تخطيطها في موضوع الاصول . وبسبب الدور الروحي فقط الذي خصصه مؤلفنا للخليفة فاننا قد رأينا ان من الافضل أن نتناول موضوع الخلافة في فصل تطبيق الأصول في الميدان الديني .

هناك نقطة لها أيضاً علاقة بتطبيق القانون المقدس ، تُظهر بدقة الخلافات بين المدارس والتحريف الذي أدخل على روح الدين نفسه، وهي

---

١ في حين أن التفرقة بين الروحي والمادي ظهرت معالمها عند المتصوفين الاوائل وخاصة الحسن البصري (توفي عام ٧٢٨) ، والحلاج (توفي عام ٩٢٢) ، ولكن السنة التقليدية كانت باستمرار ضد هذه التفرقة بين الروحي والمادي وكانت لها في النهاية الكلمة الاخيرة ضد كل محاولة تبدى لقبول هذه النظرية . ولا يخفى الاستقبال العدائي الذي حدث لمؤلف الشيخ علي عبد الرازق الذي أوضح فيه بالذات هذا الرأي في عام ١٩٢٥ م وهو « الإسلام وأصول الحكم » ، القاهرة ١٩٢٥ ، الترجمة الفرنسية بمعرفة ل. برشر ، تحت عنوان « الإسلام وأساس الحكم » ، انظر كراسة ٣ من سنة ١٩٣٣ ، ص ٣٥٣ — ٣٩١ ، وسنة ١٩٣٤ ، كراسة ٢ ، ص ١٦٣ — ٣٢٢ . وعلى كل حال فقد حاز هذا الرأي على مؤيدين أكثر فأكثر .

تلك « الحيل » القضائية[1] ولم يلبث ذلك أن أثار اهتمام الكواكبي، الحريص على تبيان الاستغلال ومعالجته. والحل الذي يقترحه هو بالضبط ذو علاقة بسلطات الخليفة وهذا يعطينا المثل الذي نرى به كيف تسير بسهولة تلك المجموعة التي ذكرناها ، والمكونة من الامام الأعظم ومجلس الشورى العام.

ولقد ذكر مندوب تبريز ، بعد أن أكد أن نظام « التلفيق » أفضل بكثير من نظام « الحيل » ، بعض الأمثلة الواقعية من هذه الحيل :

« حيث لا يعقل أن يقال مثلاً ان الشفعة مشروعة دفعاً للضرر عن الشريك أو الجار — ولكن يجوز هذا الاضرار للمحتال .

أو ان الربا حرام ولكن اذا اضيف للقرض ثمن مبيع خسيس بنفيس جاز تحصيل مقصد الربا .

أو أن ايتاء الزكاة فرض ولكن اذا اخرج رب المال ماله قبل الحول ثم استعاده سقطت عنه الزكاة .

والى غير ذلك من إبطال الشرع وجعل التكليف تخييراً والتقييد اطلاقاً ولا شك أن بذلك صار المسلمون كأنهم لا شرع لهم. وقد غضب الله على اليهود لتحايلهم على صيدالسبت فقط ونحن نجوّز الف حيلة مثلها بضرورة وبلا ضرورة »[2].

وبعد ذلك يقترح المندوب الحل التالي ، الذي يظهر انه يطابق مبدأ مؤلفنا حول السلطات للخليفة :

« بناء عليه من الحكمة أن نلتمس للضروريات أحكاماً اجتهادية فيأمر بها الامام وإن وجد وإلا فالسلطان ليرتفع

---

[1] حيل يستعملها الفقهاء لقبول أشياء تنهى عنها الشريعة الإسلامية المقدسة .

[2] أم القرى ، ص ١٣٤ و ١٣٥ .

الخلاف فتعمل بها الأمة ما دام المقتضى باقياً فاذا ألجأ الزمان
الى تبديلها بقول اجتهادي آخر فكذلك يأمر به الامـــام أو
السلطان رفعاً للخلاف . ويمثل هذا التدبير الذي لا يأباه شرعنا
ولا تنافيه الحكمة تستعرض تلك الحيل المعطلة للشرع المسلمة
لترفيعات كل فقيه ومتفقة بأحكام شرعية ايجابية لا زيغ فيها.
وبنحو ذلك يسلم شرعنـا من التلاعب والتضـــارب ويتخلص
القضـاء والافتاء من التوفيـق على الأهواء وحينئذ يتحقق أن
الخلاف في الفروع رحمة، والحاصل أنه يقتضي على العلماء أن
يقاوموا فكرة التعصب لمذهب دون الاخر فيكون سعيهم هذا
منتجاً للتأليف وجمع الكلمة في الأمة » [1] .

هذا النداء لاجتهاد العلماء والذين يعتمد الخليفة قراراتهم ، وهو الذي
بموجب سلطته الروحية وهيبته الدينية ، يمكنه بتلك الوسيلة ازالة الخلافات
في هذه المسائل الحساسة « كالحيل » ، يقرب من الاستحالة . في حين
انه يمكننا أن نعترف بأن هذا الحل لا ينقصه بعد النظر .

وأخيراً لا نستطيع أن ننتهي من تلك التطورات في بعض التطبيقـات
للأصول التي اقترحها مؤلفنا من الوجهة الدينية ، بدون ان نتحدث عن
الحل العملي والنسبي الذي اقترحه مندوب القاهرة ، لأجل علاج الارتباك
الذي يحدث في مخيلة المؤمنين نتيجة هذه الخلافات بين المذاهب . ولما كان
المؤلف يرى هذه الصعوبات من الوجهة الفعلية ، فإنه يوضح تلك المشكلة
كالآتي :

« ولمـــا كان اكثر الأمـة هم العامـة الذين لا يقدرون ان
يميزوا بين الواجب والسنة والمندوب وبين النفـــل والمباح أو
يفرقوا بين الكفر والحرام وبين الكبيرة والصغيرة والمكـروه

---

[1] أم القرى ، ص ١٣٥ و ١٣٦ .

تنزيهاً والتقوى بلى تنقسم الأحكام كلها في نظرهم الى نوعين أصليين فقط مطلوب ومحظور وبتعبير آخر الى حلال وحرام وكانت احكام الشريعة كثيرة جداً فالعامة يجدون أنفسهم مكلفين بما لا يطيقون الاحاطة بمعرفته فضلاً عن القيام به ويرون ان لا مناص لهم من التهاون في أكثره أو بعضه فيقوم أحدهم بالبعض دون البعض فيأتي بالنقل ويتهاون بالواجب ويتقي المكروه ويقوم على الحرام وذلك كما قلنا لاستكثاره الاحكام وجهله بمراتبها في التقديم والتأخير »[1]

وبعد ذلك يقترح حلاً عملياً ، يتيح للمسلم المتوسط أن يعرف طريقه بين الآيات المتعددة ، لكي يطبقها بطريقة مرضية ، وها هو :

« بناء على ذلك أرى لو أن فقهاء الأمة كما فرقوا مراتب الأحكام على المسائل يفرقون المسائل ايضاً على المراتب في متون مخصوصة.

فيعقدون لكل مذهب من المذاهب كتاباً في العبادات ينقسم الى أبواب وفصول تذكر في كل منها الفرائض والواجبات فقط وتنطوي ضمنها الشرائط والأركان بحيث يقال ان هذه الأحكام في هذه المذاهب أقل ما تجوز به العبادة .

ويعقدون كتاباً آخر ينقسم الى عين تلك الأبواب والفصول تذكر فيها السنن بحيث يقال ان هذه الأحكام ينبغي رعايتها في اكثر الاوقات . ثم كتاباً ثالثاً مثل الأولين تذكر فيه سنن الزوائد بحيث يقال ان هذه الاحكام رعايتها أولى من تركها.

وعلى هذا النسق بوضع كتاب المنهيات يقسم الى ابواب وفصول تعد فيها المكفرات والكبائر وكذا الصغائر والمكروهات.

ومثل ذلك نقسم كتب المعاملات على طبقات من الاحكام

---

[1] أم القرى ، ص ٩٩ .

الاجماعية أو الاجتهادية أو الاستحسانية .

فبمثل هذا الترتيب يسهل على كل من العامة ان يعرف ما هو مكلف به في دينه فيعمل به على حسب مراتبه وامكانه وبهذه الصور تظهر سماحة الدين الحنيف ويصير المسلم مطمئن القلب مثله كمثل تاجر له دفاتر وقيود وحسابات وموازنات منتظمة فيعيش مطمئن الفكر. وكم بين هذا التاجر وبين تاجر آخر حساباته في اوراق منتشرة ومعاملاته مشتتة تزاحمه في فكره لا يعرف ما له وما عليه فيعيش عمره مرتبك البال مضطرب الحال »[1].

وقد نشر الكواكبي فكره ،مقتبسة من روح الواقعية الغربية، التي لاقت رواجاً كبيراً. إذ أنه في خلال النصف الأول للقرن العشرين ، طبع عدد صغير من الدلائل الصغيرة ، مبنية على أساس تجميع وتبسيط الامور الدينية ، في اغلب البلاد الإسلامية وخاصة في مصر وسوريا. ولا يفوتنا ان نبين هنا ان مؤلفنا هو أول شرقي يبتدع فكرة هذا التجميع وبطريقة واضحة عملية . وهذا ما يتميز به فانه بلا شك ذو روح مركزة وواقعية. وخلقه يتبين غالباً في آرائه التجديدية ، وقد سنحت لنا الفرص للتحقق من ذلك الطابع العلمي المعروف لدى كل المفكرين المجددين، وقد ظهر بوضوح لدى الشيخ عبده .

ج – بعض نقط من العقائد

ان آراء مؤلفنا نحو نقط العقائد يظهر انها تقليدية وكلاسيكية . ويتبين أنه يريد أن يعطي اهتماماً خاصاً لمسألتين انشغل بهما ايضاً أغلب المصلحين :

---

١ أم القرى ، ص ٩٩ و ١٠٠ .

« عقيدة التوحيد وأفضلية الدين الاسلامي » .

وسوف نرى الطريقة التي يعالج بهـا على التوالي ، هاتين النقطتين الأساسيتين في العقائد ، والنتائج التي يحصل عليها في كل منها :

أما فيما يختص بأهمية عقيدة التوحيد ، فهو بالخصوص ما نجده مذكوراً في الحديث الطويل لمندوب نجد [1] الذي يحدد لنا آراء الكواكبي . هـذا الخطيب يوضح في بادىء الأمر ، أن سبب الآلام التي انتابت الاسلام ، هي التحريف الذي أدخل على الدين الحق حتى في أساسه ويحدد :

« هذه الطوارىء من تغييرات او متروكات أو مزايدات أكثرها يتعلق بأصول الدين وبعضهـا بأصول الأصول أعني التوحيد وكفى بأن يكون سبباً للفتور وقد قال الله تعالى (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (قرآن كريم ١٣ — ١١) » [2] .

وعليه فالنجدي يحاول بكل قوة ان يبين عقب ذلك ان العقيدة قوة سماوية (من الله) وشعور طبيعي يوجد في قرارة كل انسان ، ويقوده في تصرفاته ، بتحسين احساساته الحيوانية . وهكذا يصل الى الاعتراف بأن كل ديانة مرسلة تبدأ من مبادىء سليمـة وتدعو لغرض سامي : « راقياً بهم الى اوج السعادة في الحياة » .

ويصل المتحدث الى العقائد وعبادة التوحيد: ويذكر أمثلة عديدة يبين بها [3] عملياً ان هذه العبادة قد اهملها الكثير من الشيع وجماهير المؤمنين ، ويشرح هذا الضلال بالميل الطبيعي للانسان لعبادة الاشياء الملموسة الذي يبعده عن مبدأ الاله المنزه . وبالنسبة اليه فهذا التحول عن عبـادة الله

---

١ أم القرى ، ص ٥٩ — ٦٥ .

٢ أم القرى ، ص ٦١ .

٣ أم القرى ، ص ٦٢ ، التشابه في روح الاديان ذكره أيضاً الشيخ عبده في كتابه السالف ذكره « الإسلام والنصرانية » .

الاوحد ، نتج من التقـديس المغالى فيه لاولياء الله وبعض الشخصيات الدينية وحتى السياسية . ومن اجـل ذلك يشعر بالحاجة للتذكير بالموقف التقليدي للارثوذكسية بخصوص الكثير من امور العقائد .

اما عن الانبياء وخلقهم الانساني الاصيل فرسالتهم : إيصال رسالة الله وإصلاح روح ونفسية الانسانية المنحلة .

وبخصوص تصرفات المؤمـن في الحيـاة العمليـة ، فيجب أن تكون مبنية على حرية التصرف ، وان تخلو من التعصب والاستكانـة [1] ، على شريطة ان يحترم القواعد الدينية والاخلاقية[2]. بالنسبة للايمان .

بالنسبة للشرك بالله ومظاهره المتعددة : في ذاته وفي ملكه وفي صفاته.

وهاجم المتحدث بشدة كل انواع عبادة أولياء الله، وزيارة الاضرحة والمساجد واماكن الحج . والعادات الشائعة وخاصة نحر الحيوانات مرضاة للأولياء المحليين ، والتمائم التي تحلى بها المنازل والمساجد . ويعتبر حتى بعض الصلوات والتمجيدات التي تتغنى في مدح ولي الله نوعاً من الاشراك، فهي إذن بدعة منكرة .

وبذلك تمكن الكواكبي ، وذلك ايضاً عن طريق هذا المندوب ، ان يصل الى انتقاد معتدل للصوفية ، ويصفها بأنها مخالفه لعقائد التوحيد .

---

١ وفي فقرة أخرى يحذر مندوب سوريا من التوكل الأعمى والمغالاة فيه الذي يشل النشاط ويقود إلى حياة الزهد وعدم المبالاة ويجعل الآمال الحيوية والنبيلة تختفي من الإنسان . انظر أم القرى ، ص ٢٣ — ٢٤ . ثم يأتي بعد ذلك مندوب القدس ليؤكد معارضة مؤلفنا للتواكل . ويوضح ذلك بجهل المسلمين بأسباب الحوادث وعدم مقدرتهم الناتجة أصلا عن عـدم وجود قوة الارادة فيهم للوصول إلى الطيب وابعاد الشر . انظر أم القرى ، ص ٢٤ و ٢٥ .

٢ هنا يبين المؤلف أن المؤمن في الحياة العامة يجب عليه ، بجانب المطالب الأخرى ، أن يدرس العلوم النافعة . انظر أم القرى ، ص ٢٧ . وسوف نعود إلى هذه النقطة الهامة فيما يختص بالاصلاحات في الميدان الاجتماعي .

ويندد بكل وسائل السحر والشعوذة « ويخدعون بذلك البسطاء ويسترهبون الحمقاء » ، والتي تجعلهم يعتقدون ان في ذلك عبادة الله [1] ، وفي نفس الوقت يلوم العلماء الذين يبقون جمهور المؤمنين في الجهالة بعبادة التوحيد ويردونهم في الاخطاء ، ليستفيدوا بمزايا مادية. ويؤيد هذا الموضوع قول الله في الاية :

> « إن الذين يكتمون ما انزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً اولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار » (قرآن كريم ١ – ١٧٤) [2] .

حتى وفي مؤلفه الاخر ، قد عرف المستبد بأنه عدو للتوحيد ، فان هذه الشخصية تدعي تمتعها من رعاياها بالاحترام والتبجيل شبيهاً لما يكنه المؤمنون لله . ولذلك يخشى ان تبلغ الحقيقة انفس القوم ، هذه الحقيقة التي ليست سوى « لا إله إلا الله » [3] .

هذه كل الانتقادات للشرك والسحر والشعوذة حتى للاستبداد ، من مؤلفنا ، رغم انها مطابقة للارثوذكسية التقليدية ، فانه يقصد بها في نفسيته اصلاحاً دينياً هاماً : العودة للعبادة الكاملة لله الأوحد واحترام العقائد الأساسية . هذا الموقف هو نفسه موقف جميع المصلحين السلفيين ، وقد نادى به مبدئياً السيد الأفغاني . اما الشيخ عبده ، فرغم انه كان من أنصار هذا الرأي ، الا انه كان يتساهل فيما يختص بعبادة الأولياء باعتبارهم مبجلين كنوع من رفقاء الأنبياء ، حتى انه يعترف لهم بالمقدرة على القيام ببعض الأعمال الخارقة « الكرامات » ، وبالطبع اقل قدراً ومفعولاً مما يقوم به الأنبياء « المعجزات » [4] . ولكننا نعلم ان نشأة الشيخ

---

١ انظر أم القرى ، ص ٨٠ .

٢ أم القرى ، ص ٨٩ .

٣ طبائع الاستبداد ، ص ٣٨ .

٤ انظر ب. ميشيل ، م. عبد الرازق op - cit مقدمة ، ص ٧٨ .

كانت متأثرة كثيراً بالصوفية . ولكن هذا التأثير لم يكن ملحوظاً عند الكواكبي ، رغم مدحه على لسان بعض المندوبين [1] ، للفضائل النفسانية للصوفية والاسباب التي دعت الشافعيين بمصر وبعض الحنفيين والشافعيين في الهند للانضمام اليها . وبخلاف ذلك كله ، فان مؤلفنا يظهر بعض المعارضة للصوفية [2] للأسباب السابق توضيحها ، وهي عدم مراعاة العقائد وعبادة التوحيد . وبذا يعترف مندوب السند ، عقب تصريحات بعض اعضاء المؤتمر ، بأنه اصبح مقتنعاً ان الطريقة التي ينتمي اليها « النقشبندية » [3] ، تمارس في الواقع الشرك ، وعليه فقد اخذ على نفسه عهداً امام زملائه ان يقوم بدعاية صحيحة لدى أتباع هذه الشيعة ، حتى يدفعهم الى تصحيح وجهتهم بأن يذكروا الله قلباً ولساناً وبدون عدد مخصوص معين قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم بدون هيئة او كيفية معينة متى شاءوا او ارادوا » [4] .

وموضوع العقائد هذا قد اقحمنا ولا محالة في ممارسة العبادة ، اذ ان في الوسيلة التي تتبع في عبادة التوحيد الطريق لمعرفة كيف فهمت العقيدة. هذان الاتجاهان من الموضوع نفسه هما بالطبع مرتبطان في فكر الكواكبي.

ونصل الى النقطة الثانية من العقيدة التي يعطيها المؤلف ايضاً عناية اساسية : تفوق الدين الاسلامي في جميع الميادين . انه يلمح لذلك في

---

١ مندوب مصر (أم القرى ، ص ٨٦ — ٨٨) ، ومندوب السند (أم القرى ، ص ١١١ — ١١٥) أما عند مندوب القدس فقد أظهر فضائل الصوفية وخاصة من الوجه النفسية : « إذا تتبعنا كل ما ورد في الإسلامية حاثاً على الزهد نجده موجهاً إلى الترغيب بالاثرة العامة أي بتحويل المسلم ثمرة سعيه للمنفعة العمومية دون خصوص نفسه » ، أم القرى ، ص ٢٥ .

٢ حتى أن رشيد رضا يعارض بشدة عبادة الأولياء والصوفية التي يتهمها بالدعوة إلى الانفصال عن العالم وادخال بدع منكرة في العبادات الدينية . انظر هـ . لاووست op-cit ص ٢٥٦ ، ملحوظة ٢٦ .

٣ التصوف في الهند — يقومون بحركات قاسية تقود إلى نوع من الذهول .

٤ أم القرى ، ص ١٢ .

مؤلفيه الاثنين . انها وجهة التمدح في مؤلفه التي سوف نتناولها وقد سبق ان بينا اهمية وجهة النظر هذه في اعين المفكرين المصلحين [1] .

إن الاهتمام الأساسي لمؤلفنا هو رغبته في أن يثبت بجميع الطرق أن المبادىء التي يتضمنها القرآن خاصة ، وايضاً ما تتضمنه السنة ، مطابقة تماماً لوجهة نظر العلم الحديث ومتطلبات الحياة الحالية . فضلاً عن انه يثبت اعلانهم « للاكتشافات العلمية » وانهم وجدوا الحلول « للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية » التي تواجه العالم اليوم . وبجانب ذلك لا يفوته أن يمدح النبي في كل مناسبة تمر .

ولندرس اولاً القرآن ، الذي ميزته التي لا يمكن تقليدها : « الاعجاز » ، هي عقيدة هامة لدى المسلمين . والكواكبي يهتم بتلك النقطة في مرات عديدة ، ولكن فضلاً عن أنها مقبولة اجماعياً لدى المسلمين كمبدأ أساسي ، فانه يحاول اعطاء الأدلة ليرضي ، كما يظهر مغالاة الفكر الحديث ذي التقديرات المنطقية . في الواقع ان ادلته غير قوية وبسيطة وغير مقنعة ، بسبب سذاجة طابعها [2] حتى ان مندوب قازان ، الذي يذكر كلمات المستشرق الروسي الذي أسلم حديثاً ، يريد أن يثبت القدسية والطابع السماوي للقرآن الذي لم يجد فيه أحد أي نقطة من الضعف ، رغم ثلاثة عشر قرناً من المضاربات الفكرية ، ويضيف :

« بل الأمر كما تنبه اليه المدققون المتأخرون ، انه كلما اكتشف العلم حقيقة وجدها الباحثون مسبوقة التلميح او التصريح في القرآن اودع الله ذلك فيه ليتجدد اعجازه ويتقوى الايمان

---

١ انظر ما قبله في المقدمة ، ص ٦ ، مذكرة رقم ١ .

٢ اننا نشير خاصة إلى أمثلة الاكتشافات الحديثة التي يحاول المتحدثأن يجد الاشارة اليها في القرآن . هذه الأمثلة سوف نذكرها فيما يأتي . ولكن يظهر أن الكواكبي قد نسي أن النظرياتالعلمية ليس لها صفة دائمة وأن ما كان تتراءى صحته في أواخر القرن التاسع عشر ظهر منذ ذلكالوقت خطأه تبعاً للتقدم الاخير في العلوم وخاصة في الطبيعة الذرية.

به انه من عنــد الله لانه من شأن مخلوق ان يقطع برأي لا يبطله الزمان »[1].

هذا التأكيد للمستشرق يعبر عن اعز الافكار قرباً الى مؤلفنا : القرآن يتنبأ ويحتوي على خلاصة الاكتشافات العلمية الحديثة والتقدم . وهــذه الفكرة توجد ايضاً في تفسير القرآن الذي كتبه الشيخ عبده في السنوات الاخيرة من حياته والذي لم يتمه ، وخاصة في التفسير المشهور للشيخ طنطاوي الجوهري[2] . ثم تتابع ذلك بمعرفة الدعاة الحديثين اللاحقين ولكن الكواكبي كان بكل تأكيد اول من بذل مجهوداً لجميع الآيات التي تؤيد الطابع التنبؤي للكتاب المقدس، والذي اساسه السماوي انسجام الاسلام مع العلم الحديث ، وقد اوضح هذه الفكرة في مؤلفيه .

ان المندوب الكردي في « ام القرى » ، عندما يشرح تأخر المسلمين في ميدان العلوم الحديثة « الطبيعية وعلوم الاحياء » يؤكد ان اخوانه في الدين لو بذلوا مجهوداً في هذه العلوم لتوصلوا الى مكاسب جمة .

« ولا شك ان المسلمين اصبحوا بعد الاكتشافات الجيدة يستفيدون من العلوم الطبيعية والحكمية فوائد عظيمة جداً بالنظر الى كشفها بعض اسرار الله وبالغ الحكمة المنطوية فيه مما كان مستوراً الى الآن وقد خبط فيه المفسرون خبط عشواء»[3].

والمؤلف يعطي الامثلة الاتية[4] :

« كظهور الجمادات بماء التبلور « وجعلنا من الماء شيء

---

١ أم القرى ، ص ١٢٥ .

٢ الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، القاهرة ١٣٤١ هـ = ١٩٢٢ م .

٣ أم القرى ، ص ٤٧ .

٤ ان جميع الامثلة تقريباً التي يذكرها المندوب الكردي كانت تحول بمعرفة المؤلف إلى ملحوظات يذكر فيها حسب رأيه الآيات القرآنية التي ذكرت بها هذه الاستكشافات .

حي » قرآن كريم ٢١ — ٣٠ .

وكازدواج النباتات عامة « سبحان الذي خلــق الازواج كلها مما تنبت الارض ومــن انفسهم » قرآن كريم ٣٦ — ٣٦ ، « فأخرجنا به ازواجاً من نبات شتى » ٢٠ — ٥٣ ، « وانبتت من كل زوج بهيج » قرآن كريم ٢٢ — ٥ ، «من كل الثمرات جعل فيها زوجين » قرآن كريم ١٣ — ٣ .

وكقبول الارض الانتقاص وانشقاق القمر منهــا « أفلا يرون أنا نأتي الارض ننقصها من اطرافهــا » قرآن كريم ٢١ — ٤٤ .

وكانفتاق الارض من السماء « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما» قرآن كريم ٢١ — ٣١.

وكحدوث الجدري الذي نشأ في اصحاب الفيل بالمكروب « وارسل عليهم طيراً ابابيل ترميهم بحجارة من سجيل » قرآن كريم ١٠٥ — ٣ ، ٤ .

وكظهور سلسلة خلق الحيوان من تراب وطين وصلصال بقاعدة الترقي التي اثبتها العلامة داروين « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين » قرآن كريم ٢٣ — ١٢

وكظهور صفة الحركة الدائمة من الشخوص والهبوط المستمر بين الكائنات كلها « وكل في فلك يسبحون » قرآن كريم ٣٦ — ٤٠ .

وكظهور سر ضبط المقادير في التركيبات الكيماوية « كل شيء عنده بمقدار » قرآن كريم ١٣ — ٨ .

وكظهور انقسام طبقات الارض الى سبعة على الرأي الاصح. وكظهور ان السماء فضاء بالاجماع وبذلك تندفع مشكلة قبولها الفتق والرتق . وكظهور امتلاء الكون بالأثير وانه اصل مادة

الكائنات « ثم استوى الى السماء وهي دخان » قرآن كريم ٤١ — ١٠ .

وكالأخبار عن المركوبات البرية البخارية والكهربائية « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » قرآن كريم ٣٦ — ٤١ و ٤٢ . وغير ذلك من الحقائق التي كشفها العلم أخيراً وأعظم بها من براهين قطعية على اعجاز القرآن وتجدد اعجازه ما كر الجديدان » [1] .

وفي مؤلفه طبائع الاستبداد ، يتحدث الكواكبي عن اعجاز القرآن وأنه ليس في متناول العلماء المدعين والمنافقين والجهلة في المسائل الدينية ، ويؤكد انها « أهم نقطة في العقيدة » [2] . ويستعمل تقريباً حرفياً نفس ألفاظ المتحدثين في المؤتمر [3] ، الذين يدافعون عن هذه النظرية ، وذكر أيضاً أمثلة عديدة ترى الكثير منها في الفقرة التي سبق ذكرها من أم القرى ، وعلى ذلك فلا داعي لاعادتها . وعليه فسوف نذكر أمثلة أخرى وردت في طبائع الاستبداد ، فضلاً عن أن المؤلف يبين هنا في الفقرة نفسها التقارب بين الاكتشافات العلمية والآيات القرآنية التي ، كما يذكر ، قد وضحت بطريقة « واضحة أو ضمنية منذ ثلاثة عشر قرناً » [4] . وهذه هي الفقرات التي تهمنا :

« وحققوا » (العلماء الغربيون الحديثون) انه لولا الجبال لاقتضى الثقل النوعي ان تمتد الارض ، اي ترتج في دورتها

---

١ أم القرى ، ص ٤٧ — ٤٩ .

٢ طبائع الاستبداد ، ص ٢٩ .

٣ مندوب قازان ومندوب كردستان المذكوران أعلاه . انظر ما قبله ص ٤٩ — ٥٢ ، ونرى هنا أيضاً دليلا على أن جميع الخطب في المؤتمر من تأليف الكواكبي فاذن هذه الشخصيات مختلقة .

٤ طبائع الاستبداد ، ص ٢٩ .

والقرآن يقول « وجعلنا في الارض رواسي أن تميد بهم » .
قرآن كريم ٢١ – ٣١ .

وكشفوا طريقة أسماك الظل أي التصوير الشمسي ، والقرآن يقول « ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً » . قرآن كريم ٢٥ – ٤٥[١] .

ومن الواضح ان هذا التقارب يظهر شاقاً ، ولا يكف بالطبع ، ان يثبت ان القرآن أعلن عن جميع الاكتشافات العلمية الحاضرة والمقبلة .

وفيما عدا الطابع السماوي والإعجازي للقرآن ، فالكواكبي يدفع غالباً في مؤلفه عن وجهة نظر تفوق الإسلام على المسيحية والأديان الأخرى، مؤكداً أن الدين الاسلامي هو وحده الذي ينسجم مع العلم والتطور[٢] .

وهكذا فان المندوب الكردي[٣] السابق ذكره بعد أن انتقد عدم مبالاة المسلمين بالعلوم الحديثة ، اختتم حديثه بالمديح ، مع مهاجمة المسيحية في نفس الوقت :

« وعنـــدي انه لولا هذا القصور ما وقع المسلمون في هذا الفتور والأمل بعناية الله انهم بعد زمان قصير أو طويل لا بد أن يلتفتوا لهذه العلوم النافعة فيستعيدوا نشأتهم بل يجلبوا الى دينهم العالم المتمدن لأن نور المعارف على قدر ابعاده العقلاء عن النصرانية وامثالها يقربهم من الإسلامية لأن الدين المملوء بالخرافات والعقل المتنور لا يجتمعان في دماغ واحد »[٤].

---

١ طبائع الاستبداد ، ص ٣٠ – ٣١ .

٢ وجهة النظر الدفاعية هذه توجد في نفس الحقبة عند الشيخ عبده في مؤلفه الدفاعي السابق ذكره وتوجد أيضاً عند أغلب المدافعين المعاصرين لمؤلفنا واللاحقين له وخاصة قاسم أمين وفريد وجدي .

٣ انظر ما قبله ، ص ٥٣ .

٤ ام القرى ، ص ٤٩ .

فضلاً عن أن المستشرق الروسي ، الذي يمثله مندوب قازان، ذكر في خلال تدليله على ابتعاد نخبة القوم عن المسيحية الآتي :

« العلم والنصرانية لا يجتمعان ابداً كما ان الاسلامية بحصر المتفننين تضلل العقول وتشوش الافكار .

أما الإسلامية السمحاء الخالصة من شوايب الزوائد والتشديد فان صاحبها يزداد إيماناً كلما زاد علماً ودق نظراً لأنه باعتبار كون الاسلامية هي احكام القرآن الكريم وما يثبت من السنة وما اجتمعت عليه الأمة في الصدر الأول لا يوجد فيها مما يأباه عقل او يناقضه تحقيق علمي »[1] .

ومن الوجهة الروحية فان الدين الاسلامي صريح وان مندوب تبريز ليذكر بشدة هذا المبدأ الاساسي الذي اعلنه القرآن ونصحت به السنة : « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

وانه وان كان الاسلام هو دين المنطق والعلم فيما يختص بتطبيق الاصول والخلافة[2] حتى انه ، كما يذكر ، مطابقاً للمبادىء الاشتراكية الحديثة، باعتبار انه اول تشريع اقترح نظاماً اقتصادياً .

ولندع المندوب الانجليزي القادم من ليفربول يتحدث ، ليندد بأن المسلمين في الواقع لا يتبعون بدقة وامانة التوجيهات الاقتصادية التي تنادي بها ديانتهم نفسها ، وخاصة فيما يتعلق بالصدقة القانونية « الزكاة » ، والصدقات التكفيرية « كفارة » .

« لأن فريضة الزكاة على مالكي النصاب والكفارات المالية جاعلة لفقراء الأمة وبعض المصاريف العمومية نصيباً غير قليل في مال الاغنياء بحيث اذا عاش المسلمون مسلمين حقيقة

---

١ أم القرى ، ص ١٢٤ .

٢ انظر ما قبله ص ٣٣ إلى ص ٤١ ، هذه النظم سوف تذكر أيضاً بخصوص الجمعية . (انظر ما بعده ص ٧٢ إلى ص ٨٥) ، وكذلك بعض الاصلاحات في الميدان السياسي .

آمنوا الفقراء وعاشوا عيشة الاشتراك العمومي المنتظم التي يتمنى ما هو من نوعها اغلب الظلم المتمدن الافرنجي وهم لم يهتدوا بعد لطريقة نيلها مع انه تسعى وراء ذلك منهم جمعيات وعصبيات مكونة من ملايين باسم (كومون وفنيان ونيلست وسوسياليست) كلها تطلب التساوي والتقارب في الحقوق والحالة المعاشية ذلك التساوي والتقارب المقررين في الإسلامية ديناً بوسيلة انواع الزكاة والكفارات » [1] .

ويختم المندوب الانجليزي تحليلاته ، بأن يؤكد أنه بهاتين الطريقتين يمكن موازنة الميزانية بسهولة .

ومن السهل الاعتراف بأن هذه المبادىء للدعوة رغم انها قائمة على حقائق من الاصل غير قابل للنقاش ، فانها تظهر احياناً في منتهى الضعف اذا ما رأينا النتائج الايجابية وأننا من وجهتنا لنعتقد ان الاسلام ، كالمسيحية والأديان الأخرى ، لا يعارض العلم او المنطق[2] ، حقيقة ، ولكن في الواقع ان الامر يتعلق بميدانين مختلفين مفتوحين لمضاربات النفس البشرية فضلاً عن انه من المعقول ان يسمح لنا بالشك ، في ان تكفي « الزكاة » و « الكفارة » لتمحو عدم التعادل الاجتماعي والبؤس واختلال الميزانية . ولنعترف على اي حال لمؤلفنا بالفضل في ان يكون اول المدافعين ، الذي بحث في « الشريعة » عن مبادىء النظام الاقتصادي . وهذه الفكرة اثيرت فيما بعد بمعرفة مصلحين حديثين مثل رشيد رضا [3] .

وأخيراً لم ينس الكواكبي في خلال شرح آرائه الدفاعية ان يشير الى عقيدة الرسالة النبوية ، والصفات الممتازة للنبي محمد . وبعدئذ فان المستشرق

---

١ أم القرى ، ص ٥٣ .

٢ مؤلفنا مسير في كل تقدماته الدفاعية بعقدة الروح لدى « المعتزلة » التي تنادي بأن القرآن مطابق للمنطق .

٣ قارن هـ . لاووست ارجع إلى « الخلافة » op - cit . انظر خاصة ، ص ٢٦٦ ، ملاحظة ٤١ .

الروسي الذي أسلم ، والذي سبق ذكره مرات عديدة ، قد اشاد بـ « اعجاز » القرآن وقال عن « سنة » محمد :

« إن في السنة المحمدية على صاحبها افضل التحية من الحكم والحقائق الاخلاقية والتشريعية والسياسية والتعليمية الوفاً من المقررات المبتكرة ، ويتجلى عظم قدرها مع تجدد الزمان وترقي العلم والعرفان »[1] .

ويضيف بخصوص الرسول :

« وكفى بذلك ملزماً لأهل الانصاف بالاقرار والاعتراف لصاحبها عليه السلام بالنبوة والافضلية على العالمين عقلاً وعلماً وحكمة وحزماً واخلاقاً وزهداً واقتداراً وعزماً . وكفى ايضاً بهذه المزايا العظمى ملزماً بتصديقه في كل ما جاء به واتباعه في كل ما أمر او نهى لأن الدهر لم يأت بمرشد للبشر اكمل وأفضل منه »[2] .

ويستمر المتحدث في تعداد الصفات الممتازة للرسول وتفوق الإسلام ، حتى باعتراف الغربيين أنفسهم ، الذي اتاح له ان يشيد في هذه المناسبة بتفوقهم الفكري . وعندئذ اعلن المندوب الكردي :

« بل واضحى المسلمون محتاجين للحكمة العقلية التي كادت تجعل الغربيين ادرى منا حتى في مباني ديننا كاستدلالهم بالمقايسة على ان نبينا عليه افضل الصلاة والسلام افضل العالمين عقلاً واخلاقاً وكاثباتهم بالمقابلة ان ديننا اسمى الديانات حكمة ومزية »[3].

كل هذه الافكار الدفاعية تعتمد فقط على دخيلة المؤمن ، ولا تحتوي في الواقع إلا على القليل من الاثر الواقعي والايحائي . فالكواكبي لا يذكر

---

١ أم القرى ، ص ١٢٥ .
٢ أم القرى ، ص ١٢٥ و ١٢٦ .
٣ أم القرى ، ص ٤٩ .

اي مصدر لتأكيداته عن الغربيين ، ولذلك فلا يمكن مراجعتها ، وليس معنى ذلك عدم صحتها تماماً.

ويعطي المؤلف كنتيجة لمبادئه الدفاعية « التبشير » وخاصة عن البروتستانت [1] والضالين المسيحيين . وقد اختار كمتحدث عن ذلك بروتستنتياً قد اسلم ، هو الانجليزي القادم من ليفربول ، والذي قدم بعض مواطنيه المسلمين (بروتستنتيين سابقين ايضاً) الذين كونوا اتحاداً منظماً يرغب في نشر الإسلام في امريكا واوروبا وجنوب افريقيا ويرمي الى هداية البروتستانت والضالين [2] (بين المسيحيين) في هذه القارات :

« غالبهم مستغدون لقبول ديانة تكون معقولة حرة سمحاء تريحهم من نصب الكفر في الحياة الحاضرة فضلاً عن العذاب في الآخرة .

ومن غريب نتائج التدقيق ان افراد هذه الفئة كلما بعدوا عن النصرانية نفوراً من شركها وخرافاتها وتشديداتها يقربون طبعاً من التوحيد والاسلامية وحكمتها وسماحتها » [3].

الرغبة في ضم الشخصيات « المتمدنة والمثقفة » لا تقف بمؤلفنا عند هذا الحد ، بل تتعداه الى هداية المستشرقين ، وعن طريقهم ، تصل الى العالم اجمع . وهنا يكون المتحدث بالطبع هو المستشرق نفسه الذي سبق اسلامه :

---

١ الكواكبي يشعر بعطف شديد نحو البروتستانت الذين هم عماد العودة إلى مبادئ الأصول (هنا الانجيل) بالنسبة للكاثوليك الذين هم كما يقول عماد « التقليد » . قارن أم القرى ، ص ٦١ . والشيخ عبده يشعر أيضاً بنفس العطف اذ أنهم يتقاربون كثيراً مع الإسلام . قارن ب. ميشيل ، و م. عبد الرازق op-cit ، ص ٤٦ — ٤٧ .

٢ يقدر المؤلف عدد هؤلاء بأكثر من مائة مليون في أوروبا وامريكا — انظر أم القرى ، ص ٩٣ ، هذا التقدير هو على الاقل تقريبي .

٣ أم القرى ، ص ٩٣ و ٩٤ .

« وعندي ان لو قـــام في الاسلام سواه حكماء دعاة مقدمون لما بقي على وجه الارض عاقل يكفر بالله .

واني ارى انـه لا يمضي قرن الا ويكـــثر المهتـدون من المستشرقين ويرسخون في الدين فيتولون تحرير شريعة الاسلام ويفيضون بها على الانام حتى على اهل الركن والمقام »[1].

وموضوع هذه الارساليات المبشرة « دعوة » التي يذكرهـا الكواكبي ببساطة كما نرى ، سوف يعود رشيد رضا الى ذكرها [2] ، ولكن بطريقة اكثر دقة واكثر واقعية .

هذه النظرة العامة للمبادىء الدعوية لمؤلفنا وافكاره الخاصة بالتبشير ، هي نهاية مواضيع العقائد التي يبدي بخصوصها اهتماماً خاصاً ، او يظهرها كمبادىء لها شكل فريد من نوعه .

د ـــ العبادات

إن موقف الكواكبي فيما يختص بالعبـادات معتدل جداً ، اسوة بما يتبعه في الكثير من الميادين الأخرى .

انه يلوم المسلمين على اهمــالهم في القيام بالفروض الدينية (الصلاة والصوم ولا سيما الزكاة) . ولكن الشباب منهم خاصة ، الذين تأثروا بالافكار الغربية ويحـاولون شق طريقهم في الحياة ، هم الذين ينصحهم بالمثابرة التامة على العبادات . وفي حديث طويل [3] عن هذا « الاهمال » يصرح :

---

١ أم القرى ، ص ١٢٦ .

٢ رشيد رضا يرى انشاء « دار الدعوة والارشاد » لتخريج القضاة والمفتين والارساليين . قارن ه. لاووست « الخلافة » op-cit ، ص ١٠٩ و ١٣٢ و ١٣٣ و ٢٦٣ ، ملحوظة ٣٦ ولنذكر بهذه المناسبة أن التبشير قد نصح به بعض المشرعين المسلمين فقط .

٣ أم القرى ، ص ١٤٩ — ١٦٥ .

« أما الناشئة المتفرنجـــة فلا خير فيهم لانفسهم فضلاً عن ان ينفعوا اقوامهم واوطانهم شيئاً وذلك لانهم لا خلاق لهم تتجاذبهم الاهواء كيف شاءت لا يتبعون مسلكاً ولا يسيرون على ناموس متطرد لانهم يحكمون الحكمة فيفتخرون بدينهم ولكن لا يعملون به تهاونا وكسلاً »[1] .

ويؤكد المؤلف في ملحوظة عن هذا الموضوع، بأن هذا الاهمال يظهر خاصة فيما يتعلق « بالصلاة » التي هي « عماد الدين » . ولحثهم على ذلك استعان ببراهين عملية وحديثة ، وقال مخاطباً اياهم ، بلغة الشباب الخاصة بهم :

« اكبر مـــا يشق عليهم ويتكاسلون عنه الصلاة التي هي عماد الدين . ولنخاطبهم بلسانهم فنقول ان الطهارة والوضوء هما عـين (التواليت) او بعضه ويتمان بدقيقتين او ثلاث ، وافعال الصلاة هي عين « الجمنستيك » واكمـــل منه لانها موزعة ولا تستغرق الركعة منها اكثر من دقيقة . فأطول صلاة تطول عشر دقائق . بنـــاء عليـه فليبك على نفسه من يقصر نشاطه عن الصلاة والصوم اللذين لو لم يكن فيهما حكمة غير انهما شعار يعرف بها المسلم اخاه لكفى »[2].

مما لا شك فيه ان هذه الآراء، التي لا تخفى قيمتها وخاصة في اعين الشباب تظهر غير طبيعية ومادية للغاية بالنسبة لشيء كالصلاة الدينيـــة للمسلمين ، التي لها في حد ذاتها قيمة روحية كبيرة .

اما فيما يختص « بالزكـاة » ، فان الكواكبي يأسف ايضاً لعـــدم تنفيذها ، اذ رأينا قبلاً من آرائه التي يدعو اليهـا كل ما يتوقعه من

---

١ أم القرى ، ص ١٦٣ .

٢ أم القرى ، ص ١٦٣ ، ملحوظة ١ .

تطبيق الزكاة والكفارة . انه يعتبر هذه الفريضة الدينية كواجب للتضامن والمساعدة في العالم الحديث ، ويأسف ايضاً ان الحكومات الاسلامية (ويقصد هنا خاصة العثمانيين) يتبعون في تنفيذها النظام المضاد للتعاليم الدينية في هذا الموضوع. وبذلك فليس من الغريب ان تكون الامة فقيرة. وهنا يعبر مندوب الافغان عن رأي مؤلفنا :

« ومن اعظم اسباب فقر الأمة ان شريعتنا مبنية على ان في اموال الاغنياء حقاً معلوماً للبائس والمحروم فيؤخذ من الاغنياء ويوزع على الفقراء ، وهذه الحكومات الاسلامية قد قلبت الموضوع فصارت تجبي الاموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للأغنياء وتحابي بها المسرفين والسفهاء »[1].

اما عن الحج فقليلاً ما ذكره المؤلف ، ولكن فكرته في اقامة المؤتمر في اليوم السابق لافتتاح موسم الحج وتحديده لهذه الفترة نفسها موعداً لاجتماع الهيئة الاستشارية العامة لتثبيت الخلافة ، مما يوضح انه يكن لتلك الفريضة كل ما لها من المعنى الروحي ويجعل منها مثلاً للاتحاد الروحي في الاسلام ، ويحاول ان يخلق بهذه الوسيلة اتصالات سنوية بين ممثلي جميع اجزاء العالم الاسلامي . لذا فهو يحذر زملاءه في المؤتمر من عدم توافر ظروف الامن وذلك بسبب العثمانيين ، والذي قد يجعل من الخطورة القيام بفريضة الحج للمؤمنين القادمين من بعض البلاد الاجنبية ، وذلك يمثل في نظره خطراً جسيماً[2] .

اما عن « الجهاد » ضد الكفار ، فالكواكبي وان كان بعيداً عن ان يرى فيها نوعاً من الفروض الدينية ، فانه يعتبر هذه الوسيلة قاسية ويعلن انها قد اصبحت لا داعي لها منذ امد بعيد ، ولنأخذ لذلك مثلاً

---

١ أم القرى ، ص ٥٢ — ٥٣ .

٢ أم القرى ، ص ١٤٨ ، ملحوظة ١ .

من اقوال الامير الهندي الشهير الذي سبق ان اشرنا اليه[1] :

« فاذا أرشـد اولئك السياسيون (الأوروبيون) لأن يضموا الى معرفتهم هذه علمهم ايضاً بالاحكام الاسلاميـة في مسألة الجهاد التي يتهيبونها، علماً يستخرجونه مما عندهم من تراجم القرآن الكريم لا من مؤلفات متعصبي الطرفين حيث يجدون نحواً من خمسين آية بأساليب شتى كلها تنهى عن الالحاح في الهداية الى الدين فضلاً عن التشديد والالزام بالقتال كقوله تعالى « انك لا تهدي من أحببت » (قرآن كريم ٢٨ ـ ٥٦) ، « وجادلهم بالتي هي احسن » (قرآن كريم ١٦ ـ ١٢٥) ، « لست عليهم بمسيطر (قرآن كريم ٨٨ ـ ٢٢) ، ويجـدون آيتين في التشديد احداهما «فاصدع بما تؤمر » (قرآن كريم ١٥ ـ ٩٤) ، والأخرى « وجاهدوا في الله حق جهاده » (قرآن كريم ٢٢ ـ ٧٨) . وبمراجعـة اسباب نزول هاتين الآيتين يعلمون انهما نزلتا في حق المشركين والكتابيين من العرب بين المسيحيين واليهود (الموجودين بين العرب) ولا يوجد في القرآن ملزم لاعتبار عمومية حكمها » [2] .

ومما يحسن الاشارة اليه ان الامير يدافع عن وجهة نظره في الجهـاد بأنه ما هو في الواقع سوى جهاد رمزي من الوجهة النفسية ضد المغريات والمنكرات . وفي الواقع ان العلماء النفسانيين ، مثل الغزالي ، دافعوا عن وجهة النظر هذه وأولوها مكاناً بارزاً ، والشيخ عبده نفسه لا يحبذ وسيلة الايمان بالقوة ، ويطلب من المسلمين ان يستعملوا اللطف [3] ، وهـا هو

---

١ انظر ما قبله ص ٣٣ و ٣٤ ، ونفس الصحيفة ملحوظة ٣ .

٢ أم القرى ، ص ٢١٣ ـ ٢١٤ .

٣ انظر ب. ميشيل B. Michel ، و م. عبد الرازق ، ص ١١٦.

يقصد ما يقصده الامير بمعنى الجهاد :

« واذا دققـوا البحث (السياسيون الاوروبيون) يجدون ان ليس في علماء الإسلام مطلقاً من يحصر معنى الجهاد في سبيل الله في مجرد محاربة غير المسلمين بل كل عمـل شاق نافع للدين والدنيا حتى الكسب لأجل العيال يسمى جهاداً . وبذلك يعلمون أن قصر معنى الجهاد على الحروب كان مبنياً على ارادة الفتوحات والتوسل للتشجيع حين كان مجال للفتوحات كما اعطى اسم الجهاد مقابلة لاسم الحروب الصليبية التي أصلى نارها المسيحيون »[1] .

إن تفسير « الجهاد » خلال القرون الوسطى للإسلام ، بالرغبـة في الفتوحات ، تبين لدى مؤلفنا روح الواقعية والنظر الثاقب وان لديه نوعاً من الشعور بالروح الاشتراكيـة وانه يضع في المكان الثاني الدافع الديني لهداية الكفار ، مبيناً أن الدافع الاكبر هو حب العرب للفتوحات، وهذه النظرية قد دافع عنها فيما بعد، في النصف الأول للقرن العشرين اجتماعيون كبيرون ومستشرقون . هؤلاء[2] لفتوا النظر الى ان العرب قوم رحـل بطبيعتهم وتمثلون نوعاً معروفاً للغاية من المحاربين المعروفين ، وانهم قبل كل شيء ذوو روح حربية وتوسعية، فضلاً عن انهم قد لفتوا النظر الى

---

١ أم القرى ، ص ٢١٤ .

٢ قارن ج. شمبتر J. Schumpeter مساهمة في دراسة الامبراطورية

— وأيضاً الغزو الإسلامي والامبراطورية العربية للمؤلف نفسه (١٨٨٣ هـ = ١٩٥٠ م) ، مقدمة وتعريف وملاحظات ج. هـ. بوسكيه G. H. Bousquet في « المجلة الافريقية » ، مجلد ٩٣ ، الثلاثة شهدت الاولى والثانية من عام ١٩٥٠ ، ص ٢٨٣ إلى ٢٩٧ ،

— أ. بل — A. Bel الدين الإسلامي عند البربر (مجلد واحد ظهر فقط) — باريس عام ١٩٣٨

— و. مارسية — W. Marçais مجموعة محاضرات في ستراسبورج عام ١٩٢٢ غير منشورة

— العقيدة والقانون الإسلامي — الترجمة الفرنسية باريس عام ١٩٢٠ بمعرفة ف. آران. F. Arin

Goldziher - der Islam

أن القرآن أكد في مواضع عدة ، عدم اخلاص العرب البدو للإسلام في بادىء الأمر .

وبعد أن عرضنا الفروض المختلفة للعبادات التي أشار اليها الكواكبي ، يبقى لدينا أن ندرس نصيحتين ألح عليها بنوع خاص :

الأولى يمكن تلخيصها كالاتي : يجب تحاشي الانسياق الى التغالي في القيام بفروض العبادات الدينية . وأن مندوب نجد الذي سبق ذكره ، والذي يعتبر كخبير فيما يختص بالعقيدة والعبادات ، بعد أن ذكر كل المضار التي لحقت بعبادة التوحيد[1] ، قد أعلن أن الخطر الثاني هو « التزمت في القيام بالفروض الدينية والمتاعب التي تسببها للمسلمين »[2].

انه يوضح أن سبب وجود هذا التغالي وكذلك ايضاً تحريف عبادة التوحيد ، كانا نتيجة تفسير العلماء الخاطىء للآيات المقدسة وأن هؤلاء لم يبذلوا الجهد الكافي للتحقق من بعض الشعائر ، المرتكزة خاصة على الحديث الذي قد يقرب أو يبعد عن الصواب ، وغالباً ما فسر تفسيراً شخصياً ضيق الأفق . وبذلك خلقت في الدين التزامات غير مكلف بها المسلمون اطلاقاً .

> « وهكذا بالتمادي عظم التشديد في الدين حتى صار اصراً واغلالاً فكأننا لم نقبل ما من الله به علينا من التخفيف فوضع عنا ما كان على غيرنا من ثقيل التكلف[3] ... وأمرنا بقوله تعالى « لا تغلوا في دينكم » قرآن كريم ٥ — ٧٧ » .

ان آيات عديدة اخرى وعادات متنوعة للنبي قد ذكرت ايضاً لتدعو الى الاعتدال في العبادة ، وهنا يذكر النجدي مثلاً لتحريف النصوص

---

١ انظر ما قبله ، ص ٤٤ وما يليها .

٢ أم القرى ، ص ٨٢ .

٣ أم القرى ، ص ٨٣ . وهنا ذكرت آيات عديدة ولكننا لم نذكر منها سوى واحدة هي أشدها أمراً .

وذلك بخصوص تسويك الاسنـــان « السواك » ، الذي هو حسب الحديث يوصي به فقط على انه امر « مندوب » [1] . وقد جعله المشرعون اجبارياً بطريق « السنة » ، وقد قاموا بمجادلات عقيمـة عن طريقة استعمال هذا الشيء « المقاسات — النوع — وقت وجوب استعماله — الخ ... » .

ومن المحقق أن الكواكبي ضد هذه المغالاة وتلك التوافـه في المسائل الدينية ، وانه لا يرى في موضوع سواك الاسنان مثلاً سوى نصيحة لنظافة الفم . اما ادلته فيما يختص بالشعائر الدينية فهي ضعيفـــة ، اذ انه من ناحية الآيات التي ذكرها ، وحتى أشدها أمراً فلم تعط أي تحديـد اذ أنها آيات عامة . ومن الناحية الاخرى فان المثل الذي اختاره هنا (سوك الاسنان) ما هو الا ذو صفة ثانوية ولا يعطينا هنا اية معلومات هامة عن تطبيق العقائد .

اما النصيحة الثانية ، والتي هي في نظرنا اكثر اهميـة من الاولى ، لانها اكثر دقة وهي « ترك العقائد الدخيلة على الاسلام » . فالكواكبي يتهم مدعي العلم بهذا التحريف الذي يقصد به هنا ادخال شعائر مخالفـة للروح الحقيقية للدين . حتى انه في كتابه عن الاستبداد ، ذكر مجموعة منها اقتبسها المسلمون من المسيحيين واليهود والمجوس [2] وهو يحاول هنا ان يثبت ان كل هذه الاشياء الدخيلة ، كان الغرض منها دفع الأمة في طريق الاستبداد ، بابعادهم عن الدين الحقيقي . هذه الامثلة نفسها اعيد ذكرها في « ام القرى » وكان المتحدث باسم المؤلف هو مندوب المدينة الذي يشرح في حديث طويل له النظرية الآتية [3] :

إن الضعف الثقافي لعلمائنا المزعومين نتج من أنهم قد غرقوا في الزهد والتصوف ليخفوا جهلهم وليخدعوا المؤمنين فأدخلوا في العبادات مجموعة

---

١ أم القرى ، ص ٨٥ .

٢ طبائع الاستبداد ، ص ٢٥ — ٢٧ .

٣ أم القرى ، ص ٣٥ إلى ٤٠ ، هـذا التعليق لمندوب المدينة طويل للغاية لذا اكتفينا بتلخيصه .

هائلة من البدع المستعارة من المسيحيين واليهود وغيرهم مثل عبادة الأولياء وفخامة الاحتفالات واماكن الصلاة والاعلام واللوح والزخرفة والسحر وعبادة الاصنام والتماثيل وتضحية الحيوانات وغير ذلك من البدع المستعارة او المبتكرة ويستفيدون من سذاجة الجهلة والضعفاء مثل « النساء وعبيد الشهوة وابناء الشعب والمصابين بأمراض جسمانية او عقلية وحتى الأمراء انفسهم (فالواقع انهم جميعهم يميلون طبيعياً لعبادة اشياء محددة الحركة من السهل ادخالها الى عقولهم اكثر من الالوهية الغامضة) وبلغ من جرأة هؤلاء العلماء المدلسين حد اختراع الاحاديث المشكوك فيها لتحقيق اغراضهم والمركز الرئيسي لهؤلاء المخادعين كان يوجد منذ اربعة قرون في القسطنطينية وانتقل بطريق العدوى الى جميع المناطق » .

لقد جعلوا من وسيلتهم هذه مذهباً يبعث الى الوقوع تحت تأثير السحر والى حالة من « الخبل » يظنونه نوعاً من « الخشوع » ، وبذلك توصلوا الى أن يثروا ويصبحوا من ذوي النفوذ لدى الحاكمين .

« وبذلك ضاق على العلماء الخناق لا رزق ولا حرمة » ، ونتج عن ذلك ان « تشوشت عقائد العامة وضعف يقين المؤمنين » ، وبذلك « فقدوا قوة قوانين الله واعتراهم هذا الفتور » .

ويقول مندوب القسطنطينة « الرومي » [1] مضيفاً بدوره ، ولائماً العلماء الرسميين الذين يحيطون بالسلاطين العثمانيين والذين اسماهم « الجهال المتعممين » ، قائلاً عن هذه الشخصيات :

« اولئك المتورعين رافعي اعلام الشريعة والدين يحاربون الله جهاراً ويستحقون ما يستحقون من الله وملائكته والمؤمنين ، ويكفي حجة عليهم بذلك تميزهم جميعاً بلباس عروس محلى

---

[1] أم القرى ، من ص ٤٠ إلى ٤٦ ، وهنا أيضاً يقوم المندوب بحديث طويل اختصرنا الجزء الأكبر ولم نحتفظ سوى بفقرتين فقط منه .

بكثير من الفضة والذهب مما هو حرام بالاجماع ولا يحتمل التأويل وقد اقتبسوا هذا اللباس من كهنة الروم الذين يلبسون القباء والقلنسوات المذهبة عند إقامة شعائرهم واحتفالاتهم الرسمية. هذا الخطيب في بعض جوامع السلاطين يستوي على المنبر ويقول اتقوا الله وعلى رأسه وصدره ومنكبيه هذا اللباس المنكر »[1].

واستمر المندوب في تأكيداته بالقول بأن الدسائس التي تقوم بها هذه الشخصيات الدينية والقضائية ضد القانون ، مضحين بمصالح اليتيم والزوجة يقبولهم الربا والضرائب على الشعب ، وان نظام الضرائب المعتادة ضد روح الاسلام . والاكثر من ذلك انهم تمكنوا من اقناع الامراء ، بأنه لا يجب عليهم ان يتركوا للشعب التمتع بحرية الرأي ، وان ذلك مطابق للشريعة الالهية ، وحتى انه لا يجوز تطبيق « الشورى » ولا اشراك الشعب في ادارة الشؤون العامة . واطاعة لهذه النصائح ، قام العثمانيون باصدار القوانين المعارضة للتطور وللمدنية وللدين ولتقدم العلوم والثقافة . وقد حذا حذوهم اغلب الحكومات الاسلامية وبهذه الطريقة « فقد ضل اولئك العلماء المعممون وصاروا أضر على الدين من الشياطين »[2] .

وبواسطة تصريحات هذين المندوبين اراد الكواكبي ان يوضح نصيب هذه التصريحات التي ادخلت على الدين بتأثير النفوذ الخارجي ، في افساد العبادات والروح الحقيقية للإسلام على السواء ، ويقصد بذلك اسلام الاجيال الاولى .

---

١ أم القرى ، ص ٤٣ .
٢ أم القرى ، ص ٤٦ .

هـ – حلول لعلاج المتاعب الدينية

حتى الآن ، وطوال شرحنا للاصلاحات المقترحة في الميدان الديني ، قد اشرنا الى حلول يقصد بها علاج هذه المتاعب او تلك الخاصة بالأصول، وتطبيقها ، والعقائد والعبادات . ويعتقد الكواكبي ان مـا يفوق ذلك العلاج ، الذي يمس نقطاً محددة ، هو ان الداء اشد غوراً من ذلك اذ يوجد في الحقيقة في الضمائر . ويرى حلاً عاماً يتضمن الجميع : « انشاء اتحاد دولي » الذي يجب ، عن طريق التعليم ، ان يرفع المستوى الديني والخلقي لدى مجموعة المسلمين ، وفي نفس الوقت يدفعهم للاتحاد روحياً.

ان انشاء هذا الاتحاد ، الذي هو في الواقع نتيجة اعمال مؤتمر « ام القرى » ، هو الحل الذي امكن ايجاده للمتاعب عامة ، بعد ان شارك كلّ مندوب بدوره بنصيب في هذا البناء المشترك .

وعليه فان عرض البنود التي ووفق عليها بالاجماع تعتبر ختاماً للمناقشة وتتويجاً للمشروع [1] . لذا فقد اوليناها هنا مكاناً هاماً .

فقد اسست في بادىء الأمر لجنة لوضع اساس المناقشات . وعليه وضعت لجنة هذه القرارات برئاسة المندوب التركي ، وكانت أهم ما في المشروع . وعقب ذلك في خلال المناقشات ، (قبل اكثر قضاياه وعدل بعضها وضبطت المناقشات على حدة) [2] .

وقد احتاط الرئيس بأن يوضح النقطة التالية قبل المناقشات واعتماد القرارات :

« اننـا نقرأ اليوم قانون الجمعية وقـد علم الاخوان من مطالعة السانحة التي وضعتها اللجنة ان هذا القانون هو الان في حكم قانون مؤقت الى ان تتشكل الجمعية الدائمة ان شاء الله وتتولى وظائفها فهي تعيد النظر فيه وتعتني بتطبيقه على الموجبات

---

١ أم القرى ، ص ١٦٨ – ١٨٦ .

٢ أم القرى ، ص ١٦٧ .

والتحريات ثم تعرضه على الجمعية العامة التي سيأتي ذكرها فيه فاذا امضته صار حينئذ قانوناً [1] » .

ويحذر الكواكبي القارىء ، بأن ما يقترحه ما هو إلا مشروع عرضة للتعديل على انه من الحق الاعتراف بأنه مشروع دقيق للغاية، كما سوف نراه مما يأتي :

انه يعطي لهذه الجمعية الاسم الرمزي « جمعية تعليم الموحدين » : القرارات وعددها ٤٨ مقسمة الى اربعة اجزاء ، ومسبوقة بمقدمة هامة تلخص المناقشات التي ادت الى انشاء هذه الجمعية . وهذه هي صيغة المقدمة ذات العشر النقط :

المقدمة

١ — المسلمون في حالة فتور مستحكم عام .
٢ — يجب تدارك هذا الفتور سريعاً وإلا فتنحل عصبيتهم كلياً .
٣ — سبب الفتور تهاون الحكماء والعلماء ثم الامراء .
٤ — جرثومة الداء الجهل في الدين المطلق .
٥ — اضر فروع الجهل ، الجهل في الدين .
٦ — الدواء هو اولاً تنوير الافكار بالتعليم وثانياً ايجاد سوق للترقي في الرؤوس الناشئة .
٧ — وسيلة المداواة عقد الجمعيات التعليمية القانونية .
٨ — المكلفون بالتدبير هم حكماء ونجباء الأمة من السراة والعلماء .
٩ — الكفاءة لازالة الفتور بالتدريج موجودة في العرب خاصة .
١٠ — يلزم تشكيل جمعية ذات مكانة ونفوذ في دائرة القانون الآتي

---

[1] أم القرى ، ص ١٦٨ و ١٦٩ .

البيان باسم (جمعية تعليم الموحدين)[1] .

ويلي ذلك شرح المواد . فالقسم الاول تناول «تشكيل الاتحاد»[2] . ويحتوي على ١٣ مادة وهذا هو مضمونها :

المادة — ١

تتشكل الجمعية من مائة عضو منهم عشرة عاملون وعشرة مستشارون وثمانون فخريون ويرتبط بالجمعية اعضاء محتسبون لا يتعين عددهم .

المادة — ٢

يجب ان يكون الاعضاء كلهم متصفين بست صفات عامة وهي :

١ — سلامة الحواس وكون السن بين الثلاثين والستين ابتداء .
٢ — الاسلامية من اي مذهب كان من مذاهب اهل القبلة .
٣ — العدالة بحيث يكون غير متجاهر بمعصية شرعية اجماعية ولا متلبس او معروف بخلة منافية للمروءة .
٤ — المزاية بعلم او جاه او ثروة .
٥ — الكتابة باتقان في لغة ولو عامية .
٦ — النشاط بأن يكون ذا همة ونجدة وحمية .

المادة — ٣

تحتوي على اربعة شروط اضافية يجب ان يحوزها الاعضاء الاداريون والاستشاريون وخاصة ، ان يكون قادراً على التحدث والكتابة باللغة العربية .

---

١ أم القرى ، ص ١٦٨ — ١٦٩ .
٢ أم القرى ، ص ١٦٩ — ١٧٣ .

المادة — ٤

تحتوي ثلاثة شروط اضافية يجب ملؤها، للحصول على عضوية الشرف، وخاصة ان يكون قادراً على أن يحرر باحدى اللغات الاربع الآتيــة : العربية — التركية — الفـارسية — الاردية . وان يكون قادراً على نشر مقالة او مؤلف مرة كل شهر ، باحدى هذه اللغات ، في موضوع تحدده الجمعية او يختاره العضو بنفسه .

المادة — ٥

ترى عقد مؤتمر عام سنوي واول التزماته حددت كالاتي :

المادة — ٦

الجمعية العامة بالمذاكرة والانتخاب الخفي والاكثرية المطلقة تميز اولاً المترشحين للهيئة العاملة ثم المترشحين للهيئة المستشارة .
ويختار هـذان المجلسان مجتمعين ، بأغلبيــة الثلثين ، رئيساً ووكيلاً للرئيس وسكرتيراً اولاً وسكرتيراً ثانياً وأميناً للصندوق .

المادة — ٧

فضلاً عن ان لهم الحق في قبول او رفض اي طلب انضمام ، كعضو شرف او عضو عامل وأيضـاً في تقرير فصل احـد اعضاء الجمعية اذا اضطرت لذلك الظروف .

---

١ المؤلف يؤكد في ملحوظة « ان الغنى ليس مطلوباً لنفسه وإنما لأنه يساعدعلىأن يحتفظ الحاصل عليه بأخلاق عالية » ومن السهل أن نتدارك أن هذه الحجة غير صحيحة وان الحقيقة هي أن المؤلف يبحث عن مساعدة مادية .

المادة – ٨ و ٩ و ١٠

الجمعية العامة تقوم بأربع وظائف وهي :

١ – تدقيق اجمالي على جميع الاعمال التي اجرتها الجمعية في السنة الماضية .

٢ – تدقيق حساباتها الماضية .

٣ – تقرير ما يلزم التشبث به من الاعمال الكبيرة في السنة المقبلة .

٤ – تقرير نفقات السنة القابلة .

المادة – ١١

تحدد مكة كالمقر الرئيسي للجمعية ، ولها فروع في جميع عواصم العالم الاسلامي .

المادة – ١٢

توضح ان يكون تشكيل الفروع مماثلاً لتكوين الجمعية الاساسية ، وان يكونوا جميعاً تابعين لها ، فيما عدا الوجهة المالية والنظام الداخلي .

المادة – ١٣

تقرر ان تقوم لجنة لها علاقات مع جميع الفروع باختيار ، في حالة الضرورة القصوى ، مقراً رئيسياً (مؤقتاً) . ويوضح المؤلف في ملحوظة انه ، في الواقع ، وخلال السنوات الاولى فان المقر يمكن ان يكون في بور سعيد او في الكويت ثم ينقل بعد ذلك الى مكة ، ولكنه على كل حال يجب ان يكون للجمعية في تلك المدينة يد قوية ، ولو خفية اذا اضطر الأمر .

والجزء الثاني من القوانين ، سميت « مبادىء الجمعيــة » [1] ، وهي

---

[1] أم القرى ، ص ١٧٤ – ١٧٥ .

تتكون من سبع مواد من ١٤ الى ٢٠ . وها هو نصها الكامل .

المادة — ١٤

الجمعية لا تتداخل في الشؤون السياسية مطلقاً فيما عدا ارشادات واخطارات بمسائل اصول التعليم وتعميمه .

المادة — ١٥

ليس من شأن الجمعية ان تكون تابعة او مرتبطة بحكومة مخصوصة على انها تقبل المعاونة او المعاضدة من قبل السلاطين العظام والامراء الفخام المستقلين والتابعين بصفة حماة فخريين .

المادة — ١٦

لا تنتسب الجمعية الى مذاهب او شيع مخصوصة من مذاهب وشيع الاسلام مطلقاً .

المادة — ١٧

توفق الجمعية مسلكها الديني على المشرب السلفي المعتدل . وعلى نبذ كل زيادة وبدعة في الدين . وعلى عدم الجدال فيه الا بالتي هي احسن.

المادة — ١٨

يكون شعار الجمعية القولي (لا نعبد الا الله) وشعارها الفعلي التزام (المصافحة) على وجه السنة ووجهتها (الغيرة على الدين قبل الشفقة على المسلمين) وأهم اعمالها (تعليم الاحداث وتهذيبهم) تراجع المواد ٤٦ و ٤٧ و ٤٨ .

المادة — ١٩

اعضاء الجمعية لا يتكلفون التناصر والتعاون فيما هو ليس من مقاصد الجمعية اي التعاون بالمال او الجاه فيما بينهم الا من يصاب ويتضرر بسبب الجمعية .

المادة — ٢٠

تتكفل الجمعية بإعاشة عدد مخصوص من اصحاب المزايا العلمية الخاصة او العزائم الخارقة العـادة بشرط ان يكونوا مجردين لا عيال لهم او شبيهين بالمجردين .

والقسم الثالث وعنوانه « مالية الجمعية »[1] ، ويتكون من خمس مواد من ٢١ الى ٢٥ . حيث نجد لا شيئاً خاصاً سوى ان حـدد ان موارد الجمعية نوعان هما : الارباح الناتجة من مطبوعات الجمعية وهبات اعضائها والشخصيات الكبرى والأغنياء . فضلاً عن انه يجب عمل محاسبة دقيقة بمعرفة امين الصندوق ، الذي يجب ان يكون تاجراً متيسراً ومقيماً في المدينة التي بها مقر الجمعية ، فضلاً عن ان يكون عضواً استشارياً .

والقسم الرابع والأخير ، وهو الأكثر أهمية ، سمي «وظائف الجمعية»[1] : ويتكون من عشرين بنداً من ٢٦ الى ٤٥ ، وخلاصته تحتوي على ثلاثة بنود ٤٦ و ٤٧ و ٤٨ . وهو الجزء الأكثر أهمية لطوله ولأنـه يحدد الدور والغرض الحقيقي للجمعية .

وما عـدا المادة الأولى من هذا القسم المادة ٢٦ التي تبين طريقـة مراجعة القوانين ، والتي ليس لها اذن سوى أهمية ثنائية ، فالبـاقي من تلك المواد مطابق تماماً لما يراد منها ، ولذا فنحن نذكرها هنا بالنص :

---

١ أم القرى ، ص ١٧٦ — ١٧٧ .

٢ أم القرى ، ص ١٧٨ — ١٨٦ .

المادة — ٢٧

ايقاظ فكر علماء الدين الى الامور الخمسة الآتية وتنشيطهم للسعي في حصولها ومساعدتهم بآراء اسهل الوسائل واقربها وهي :

١ — تعميم القراءة والكتابة مع تسهيل تعليمها .

٢ — الترغيب في العلوم والفنون النافعة التي هي من قبيل الصنائع مع تسهيل تعليمها وتلقيها .

٣ — تخصيص كل من المدارس والمدرسين لنوع واحد او نوعين من العلوم والفنون ليوجد في الأمة أفراد نابغون متخصصون .

٤ — اصلاح اصول تعليم اللغة العربية والعلوم الدينية وتسهيل تحصيلها بحيث يبقى في عمر الطالب بقية يصرفها في تحصيل الفنون النافعة.

٥ — الجد وراء توحيد اصول التعليم وكتب التدريس .

المادة — ٢٨

السعي في تأليف متون مختصرة بسيطة واضحة على ثلاث مراتب .

١ — لتعليم المبتدئين او المكتفين بالمبادىء .

٢ — لتعليم المنتهين الطالبين الاتقان .

٣ — لتعليم النابغين الراغبين في الاختصاص .

المادة — ٢٩

الاهتمام في جعل المتعلمين والمعلمين على أربع مراتب .

١ — العامة ومعلموهم أئمة المساجد والجوامع الصغيرة .

٢ — المهذبون ومعلموهم مدرسو المدارس العمومية والجوامع الكبيرة .

٣ — العلماء ومعلموهم مدرسو المدارس المختصة بالعلوم العالية .

٤ — النابغون ومعلموهم الافاضل المتخصصون .

المادة ـــ ٣٠

السعي لدى امراء الأمة بمعاملة كافة طبقات العلماء معاملة الاطباء أي بالحجر رسمياً على من يتصدر للتدريس والافتـــاء والوعظ والارشاد ما لم يكن مجازاً من قبل هيئة امتحانية رسمية موثوق بها تقام في العواصم .

المادة ـــ ٣١

التوسل لدى الأمراء ان يعطوا لأحد العلماء الغيورين في كل بلدة صفة محتسب ديني على جماعة المسلمين في تلك البـــلدة ويجعلوا له مستشارين منتخبين من عقلاء الأهالي وتكليف هذه الجمعية الاحتسابيـــة بأن تقوم بالنصيحة للمسلمين بدون عنف وبتسهيل تعميم المعـــارف والمحافظة على الأخلاق الدينية .

المادة ـــ ٣٢

التوسل لنيل العلماء ما يستحقون من رزق وحرمة ومنعهم عن كل ما يخل بصفتهم وشرفهم [١] .

المادة ـــ ٣٣

التوسل لحمل اهل الطرائق على الرجوع الى الاصول الملائمة للشرع والحكمة في الارشاد وتربية المريدين . وتكليف كل فرقة منهم بوظيفـة مخصوصة يخدمون بها الأمة الاسلامية من نحو اختصـاص فرقة كالقادرية مثلاً باعاشة وتعليم الايتام واخرى بمواساة المساكين وابناء السبيل وجماعة بتمريض الفقراء والبائسين وفئة بالتشويق الى الصلاة وغيرها بالتنفير عن

---

١ ويعطي الكواكبي في ملحوظة مثلا للتصرفات المهينة للعالم «كالقعود في محلات القهوة والتجول في المجتمعات وركوب الحمير » .

المسكرات ونحو ذلك من المقاصد الخيرية الشرعية فيكون عملهم هذا عوضاً عن العطل والتعطيل .

المادة — ٣٤

حمل العلماء والمرشدين وجمعيات الاحتساب على السعي لارشاد افراد الأمة خصوصاً احداثها الى قواعد معاشية وأخلاقية متحدة الأصول تلائم الاسلامية والحرية الدينية وتفيد ترويض الاجسام وتقوية المدارك وتثمر النشاط للسعي والعمل وتولد الحمية والاخلاق الشريفة .

المادة — ٣٥

تعتني الجمعية بصورة مخصوصة بوضع مؤلفات اخلاقية ملائمة للدين وللزمان وتكون على مراتب من بسيطة ومتوسطة وعالية بحيث تقوم هذه المؤلفات مقام مطولات الصوفية وتقوم بوضع مؤلفات اللغة ، وسطى عربية لا مضرية ولا عامية وجعلها لغة لبعض الجرائد والمؤلفات الاخلاقية ونحوها مما يهم نشره بين العوام فقط .

المادة — ٣٦

تعتني الجمعية في حمل العلماء وجمعيات الاحتساب على تعليم الأئمة ما يجب عليها شرعاً من المجاملة في المعاملة مع غير المسلمين وما تقتضيه الانسانية والمزايا الاسلامية من حسن معاشرتهم ومقابلة معروفهم بخير منه ورعاية الذمة والتأمين والمساواة في الحقوق وتجنب التعصب الديني او الجنسي بغير حق .

المادة — ٣٧

تنشر الجمعية رسالة دينية عربية في كل شهر يكون حجمها نحو

مائة صحيفة بحيث يتألف منها كتاب في كل عام وتكون مباحثها ثمانية انواع يخصص لكل بحث قسم منها[1].

المادة — ٣٨

تكون الابحاث والمقالات الدينية في الرسالة الشهيرة ملاحظاً فيها اجتماع السلف او الموافقة لمذهبين فأكثر من المذاهب المدونة ويتعين في المسائل المهمة الاخلاقية بأن يقرها بعض مشاهير علماء الهداية من المذاهب المختلفة.

المادة — ٣٩

تكون قيمة الرسالة معتدلة قريبة من مصروف تحريرها وطبعها فقط وترسل لكافة المدارس ومشاهير العلماء بدون عوض على حساب الامراء والمحتسبين .

المادة — ٤٠

تعتني الجمعية غاية الاعتناء في إيصال الرسالة للمرسلة اليهم بصورة منتظمة وفي ادخالها لكافة البلاد المأهولة بالمسلمين رغماً عن كل مانع فترسل ولو براً مع رواد على نجائب تخترق آسيا وافريقيا الى اقاصيها ولا تعدم الجمعية وسائل كثيرة للايصال .

المادة — ٤١

تخصص الجمعية لمنشوراتها واعلاناتها اربع جرائد من اشهر الجرائد

---

١ في هذه المادة ذكرت المباحث الثمانية المطلوبة وهي مطابقة لروح الجمعية وغرضها الذي تضمنته المواد السابقة ولنذكر من ضمن هذه المباحث : « السؤالات والجوابات المهمة » .

الاسلامية السياسية (١) عربية في مصر (٢) تركية في القسطنطينية (٣) فارسية في طهران (٤) اوردية في كلكته .

المادة — ٤٢

تسعى الجمعية في تأسيس مدرسة جغرافية تاريخية دينية في مركز الجمعية لأجل تثقيف تلامذتها وتأهيلهم للسياحة والبعوث .

المادة — ٤٣

ترسل الجمعية بعوثاً جغرافية علمية تتجول في البلاد الاسلامية القريبة والبعيدة للاطلاع على احوال البلاد وأهلها من حيث الدين والمعارف والارشاد لما يلزم ارشادهم اليه في ذلك حسبما تقتضيه الأخوة الدينية بدون تعرض للاحوال السياسية قطعياً .

المادة — ٤٤

تسعى الجمعية بعد مضي ثلاث سنين من انعقادها في اقناع ملوك المسلمين وأمرائهم لعقد مؤتمر رسمي في مكة المكرمة بحضره وفود من قبلهم ويترأسهم مندوب اصغر اولئك الامراء ويكون موضوع المذكرات في المؤتمر : السياسة الدينية.

المادة — ٤٥

اذا صادفت الجمعية معارضة في بعض اعمالها من حكومة بعض البلاد ولا سيما البلاد التي هي تحت استيلاء الاجانب ، فالجمعية تتذرع بالوسائل اللازمة لمراجعة تلك الحكومة واقناعها بحسن نية الجمعية فاذا توقفت لرفع التعنت فيها والا فلتلجأ الجمعية الى الله القادر الذي لا يعجزه شيء.

الخاتمة

المادة — ٤٦

(سياسة الجمعية) جلب قلوب من تتخير جلبهم ببــذل المعروف محاباة فتتحرى مواساة الانسان عنــد مصابه وتنقب عن اهم حاجاته او غاياته فتعينه عليها .

المادة — ٤٧

(مظهر الجمعية) العجز والمسكنة فلا تقاوم ولا تقابل إلا بأساليب النصيحة والموعظة الحسنة وتلاطف وتجامل جهدها من يعادي مقاصدهــا ولا تلجأ الى الالجاء إلا في الضروريات .

المادة — ٤٨

(قوة الجمعية) الاخلاص في النية . وعمدتها الثبات على العمل ، ومسلكها تذليل العقبات واحدة فواحدة وحصنها الدين الحنيف وسلاحها العلم والتعليم وجيشها الاحداث والضعفاء . وقوادها حكماء العلماء والامراء ورايتها القدوة الحسنة وغنيمتها بث الحياة في الموحدين وغايتها خدمــة المدنية والانسانية . وثمرة اعضائها وانصارها لذة الفكر والفخر ونيــل الاجر من الله .

قسم القانون

ماذا نظن في مشروع جمعية كهذه ؟

إن له ميزة وضع اسس محددة، رغم ان بعض فقرات من القوانين، وخاصة التي تتضمنها الخلاصة، تحتوي على عبارات غامضة . اما الغرض

من هذا المشروع ففيه الكفاية من الوضوح ، وقد ذكره الرئيس عقب التصويت على القوانين :

« إعزاز ديننا واخواننا وانفسنا »[1] . بجانب هذا الغرض الديني والروحي والنفساني ، لم يغب عن نظر الكواكبي غرض عملي هام اهتم بذكره عدة مرات ، وهو « تعليم العلوم والفنون المفيدة » وسوف نعود الى ذكر ذلك في المجموعة الثانية من الاصلاحات تلك التي تتعلق بالميدان الاجتماعي .

وبقراءة قوانين هذه الجمعية يتبين لنا فوراً التشابه بينها وبين الجمعيات العربية في اواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . ولكي يضع مؤلفنا مشروعه ، فانه بلا شك قد استلهم وحي الجمعيات المعاصرة : الانسانية والدينية حتى السياسية منها ، في اوروبا الغربية فكيف لا يفكر في بعض المنظمات الدينية المسيحية مثل الجزويت وطائفة القديس لازار او الذين بطريق التعليم بالمجهود الفكري او بفضل الانشاءات الاجتماعية ايضاً ، يحاولون اجتذاب الرجال الى الايمان والدين ، وخاصة افراد الشعب ، حتى ان هذه المنظمات لها فروع في بلاد عديدة .

وللكواكبي الفضل في استطاعة تطبيق هذا النوع من الجمعيات المعروفة جيداً في الغرب ، على الديانة الاسلامية والاوساط الشرقية . ولقد كانت معرفته بالعلوم القانونية خير معين له في ذلك وانه على اي حال اول من نشر هذه الفكرة في الميدان الدولي ، وكان مما لا شك فيه مسترشداً بالفكرة الدينية « الاجماع » التي اراد ان يحييها ، وان يجعل منها رمزاً للوحدة الروحية للاسلام . وقد لاقت فكرة الجمعية نجاحاً باهراً ، اذ انشىء منها العديد في الشرق ، ولكنها بدون شك ذات مدى جغرافي

---

١. أم القرى ، ص ١٨٨ .

محدود ، وذلك خلال النصف الاول من القرن العشرين [1] .

وفي الغالب ان يتحور الدافع الديني داخل هـــذه الجمعيات ، بسبب الدوافع الوطنية والاماني السياسية . ويغلب على الظن ان رشيد رضا قـــد استلهم من مشروع زميله الكواكبي عند عرضه انشاء « جمعية مكارم الاخلاق » المماثلة الى « معهد الجغرافية والتاريخ الديني » الذي انشىء لتحضير الطلبة للرحلات الارساليات .

واخيراً يتضح من مشروع المؤلف انه يعتمد كثيراً على معاونة الحكام والشخصيات الهامة ، فضلاً عن انه لا يود ان يضع جمعيته تحت سيطرة اية حكومة خاصة . ولكن نظراً للظروف السياسية والاجتماعية في الشرق في اواخر القرن التاسع عشر ، فانه من حقنا ان نشك في هذه المساعدة سواء من الوجهة المادية او المعنوية فقط . كان خديوي مصر وحده هو الذي قد يرى بعين العطف هذه الجمعية. ولما كان المؤلف لا يود ان يرى انشاء هذه الجمعية بعيداً عن المدينة المقدسة (مكة) ، التي يعتبرها كرمز للوحدة الدينية ، فان هذه الفكرة قضي عليهـا ان تبقى في حكم نظري لا يتحقق .

وختامـــاً فانه رغم الطابع المحال تحقيقـــه بعد للمشروع ، وبعض البيانات الغامضة فان الكواكبي قد اعطى افكاراً محـــددة لمقاومة المتاعب الدينية والنفسية التي تسود الاوساط الاسلامية في الشرق . وان هذه الآراء تصلح اساساً جدياً لتكوين جمعيات في المستقبـــل ولمشروعات المصلحين اللاجئين فلا يمكننا انكار فضله في ذلك .

---

١ سوف لا نذكر سوى البعض من أشهرهم والذين غرضهم الاصلي ديني محض : الشبان المسلمون– جمعية مكارم الاخلاق الإسلامية – الرابطة الشرقية – الاخوان المسلمون . ولنذكر انه يوجد قبل نشر المؤلف « أم القرى » في مصر جمعيات خيرية كان لهـا في بعض الاحيان أغراض تعليمية وكان نفوذهـا محلياً فقط . وقد انتخب الشيخ عبده عام ١٨٩٧م رئيساً لإحدى هذه الجمعيات في القاهرة .

الفصل الثالث

الاصلاحات المقترحة
في الميدان الاجتماعي

يشير المؤلف الى هذه الاصلاحات في كتابيه . إلا انها مختلطة في عرضها ، بالمسائل الدينية والسياسية ، حتى انه من الصعب فصلها عن الاثنتين الاخريين . ولكننا حاولنا استخلاصها ووزعناها في ثلاثة بنود : التعليم ، الاخلاق والمجتمع ، الحياة الاقتصادية والرقي .

أ ـ التعليم

إن مؤلفنا يضعه في المكان الأول من مشاغله إذ يعتقد ، بحق ، ان اعمق اسباب الفتور الذي يسود المسلمين هو الجهل . وان رئيس المؤتمر هو الذي صرح اولاً في خطاب الافتتاح ، على اثر طبع مقالات لبعض كبار المفكرين ، « بأن اسباب الفوضى تتركز في الجهل العام » [١] . وقد اعيد ذكر الفكرة نفسها في النقطة الرابعة من مقدمة قوانين الجمعية .

---

١ أم القرى ، ص ١٠ .

هذا الجهل الذي يأسف له مؤلفنا ، وإن كان يجد للعامة العذر فيه ، فانه لا يتسامح فيه بالنسبة لمن يدعون بالعلماء والحكام الأمراء . وقد سبق ان ذكرنا ان مندوب المدينة كان يشكو من الفقر الفكري لدى العلماء المزيفين ، الذين انغمسوا في هاوية التصوف ليخدعوا المؤمنين [1] ، ويشير الى نقد مندوب القسطنطينية القاسمي لأشباه العلماء المتملقين التافهين الذين يحيطون الحكام العثمانيين [2] . ولقد عاد الكواكبي بنفسه الى هذه الفكرة ، عند محاضرته النيمة التي اختتم بها المناقشات ، وبعد ان شرح قضيـــة الاهمال والجهل ، عاد الى الامراء وذكرهم عابراً انهم قد تربوا «كحيوانات متوحشة حقيقية » [3] .

وانه كان ينادي بضرورة التعليم لعلاج هذا الجهل التام ، إلا انـه يرى بصفة خاصة «تعليم عملي وثقافة اجتماعية» تستطيع ان تعطي المسلمين روح التنظيم وتحقق لهم حياة افضل . ويرى انه من واجب رجال الدين ان يقوموا بادخال هذه المبادىء الاساسية في اذهان المؤمنين .

وها هي الالفاظ التي يشرح بها فكرته :

« ان من اعظـــم اسباب الفتور بين المسلمين غرارتهم اي عدم معرفتهم كيف يحصل انتظام المعيشة لأنه ليس فيهم من يرشدهم الى شيء من ذاك بخـــلاف الأمم البائسرة فان من وظائف خدمة الأديان عندهم رفـــع الغرارة أي الارشاد الى الحكمة في شؤون الحياة ، والأقوام الذين ليس عندهم خدمة دين أو الشراذم الذيـن لا ينتمون لخـــدمة دينهم فستغنون عن ذلك بوسائل اخرى من نحو التربية المدرسية والأخذ من كتب الأخلاق وكتب تدبير المنزل ومفصلات من الاقتصـــاد

---

١ أم القرى ، ص ٣٥ .

٢ ام القرى ص ٤٠ .

٣ ام القرى ص ١٥٣ ملاحظة ١

والتواريخ المتقنة والرومانات الاخلاقية والتمثيليــة أي كتب الحكايات الوضعية ونحو ذلك مما هو مفقود بالكلية عند غير بعض خاصة المسلمين [١] .

هذا المبدأ التعليمي الموجه نحو العلوم النافعة والفنون العملية هي فكرة يعتز بها مؤلفنا . وقد عبر المندوب الكردي عنها بقوة ووضوح ،وأبدى اسفه لترك دراسة هذه الثغرة الكبيرة هي السبب العام للعلل التي تفشت في البلاد الاسلامية :

« وعنـــدي ان السبب العام (للداء) هو ان علماءنا كانوا اقتصروا على العلوم الدينية وبعض الرياضيــات واهملوا باقي العلوم الرياضية والطبيعية ... ففقـد اهلهـــا من بين المسلمين واندرست كتبها وانقطعت علاقتهـا فصارت منفوراً منها على حكم « المرء عدو ما جهل » بل صار المتطلع اليها منهم يفسّق ويرمى بالزيغ والزندقة على حين اخذت هذه العلوم تنمو في الغرب وعلى كر القرون ترقت وظهر لها ثمرات عظيمـــة في كافة الشؤون المادية والأدبية حتى صارت كالشمس لا كحياة لذي حياة إلا بنورها. فأصبح المسلمون مع شاسع بعدهم عنها محتاجين اليها لمجاراة جيرانهم احتياجاً يعم الجزئيات والكليات من تربية الطفل الى سياسة الممالك ومن استنبات الأرض الى استمطار السماء ومن عمل الابر والقوارير الى عمـــل المدافع والبوارج ومن استخدام اليد والحمار الى استخدام البرق والبخار» [٢] .

ولكي يستطيع ان يسد هذه الثغرة الخطيرة ، فان مؤلفنا يحدد لجمعيته المهمة الاساسية التالية : تعميم التعليم وخاصة « العلوم والفنون النافعة التي

---

١ ام القرى ص ١٥٢ و ١٥٣

٢ ام القرى ص ٤٦ و ٤٧

هي من قبيل الصنائع »[1] . ويظهر انه يوصي بهذا التكوين العملي خاصة لثلاث طوائف من الاشخاص : العلماء ، الذين ينصحهم بالتخصص في فرع أو فرعين من هذه العلوم بدلاً من ضياع أوقاتهم في مناقشات تافهة حول تفاصيل لا أهمية لها تمس الدين[2] . والشباب ، الذي مهمته الاولى في الجمعية ، ولنعد ذكره ، هو « تعليم الأحداث وتهذيبهم »[3]. والنساء ، اذ يأسف لجهلهن الذي يسبب أضراراً خطيرة في تعليم الاطفال[4].

أما فيما يختص بالعلوم وبالتكوين الثقافي ، بالنسبة للحياة الحقيقية ، فان الكواكبي يشرح رأيه في مؤلفه في فصل « الاستبداد والعلوم » . ويدافع عن نظرية الفلاسفة الفرنسيين في القرن الثامن عشر ، التي تنادي بأن العلم يستطيع أن يحرر الشعوب المستعبدة ، الذين يتمكنون بفضله ان يهزوا من سطوة المستعبد ، ويؤكد ان الله قد جعل العلم وضاحاً للخير فضاحاً للشر[5] . وبعد ان ذكر ان المستبد لا يخشى العلوم الفلسفية « اذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الاولوية ، او سحر بيان يحل عقد الجيوش » . ويضيف الكلمات الهامة التالية عن العلوم الاخرى :

« وكذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد المختصة ما بين الانسان وربه لاعتقاده انها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة ، وانما يتلهى بها المتهوسون للعلم ...

وترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفية العقلية ، وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع ، والسياسة

---

١ انظر ما قبله مادة رقم ٢٧ قانون الجميعة ص ٧٨

٢ انظر أم القرى ، ص ٥٠ في آخر تصريح المندوب الكردي .

٣ انظر ما قبله مادة ١٨ من قوانين الجمعية ، ص ٧٧ .

٤ انظر أم القرى ، ص ١٥٣ ؛ الكواكبي هنا يوافق معاصره قاسم أمين الذي أقام نفسه مدافعاً عن المرأة المسلمة ، وسوف نتحدث عن هذه الطبقات الاجتماعية الثلاث عندالكلام عن « الروح والمجتمع » .

٥ انظر طبائع الاستبداد ، ص ٣٣ .

المدنية والتاريخ المفصل والخطابة الأدبية ونحو ذلك من العلوم التي تزيل غشاوة الجهل ...

والخلاصة ان المستبد لا يخاف من كل العلوم انما من تلك فقط التي تكبر النفوس وتوسع العقول وتعرف الانسان ما هي حقوقه وكم هو مغبون وكيف الطلب، وكيف النوال، وكيف الحفظ. المستبد يخاف من العلماء العاملين الراشدين المرشدين، لا من العلماء المنافقين »[1].

وإنه وان كان رأي مؤلفنا حتى الآن، فيما يختص بالتعليم ونشر العلوم الحديثة، يتفق كثيراً مع آراء المصلحين المعاصرين، وخاصة الشيخ عبده الذي كان احد العاملين، والمنفذين في هذا الميدان[2]، فانه على خلاف ذلك قد كان رأيه الذي يدافع عنه لعدم قدر « العلوم الدينية على تنوير الأذهان ذا نوع خاص به شخصياً ». ولنوضح جيداً ان المقصود هو عدم كفاءة هذه العلوم، وخاصة في النضال ضد الاستبداد. فالكواكبي الذي اعطى الدليل على ذلك في صراحة غير معهودة، اضطر لهذا الرأي بعد دراسة واقعية: فقد تمكن من ان يدرك بسهولة ان العلماء الدينيين لا يبالون اطلاقاً بالمستبدين العثمانيين وانهم يعيشون بلا شعور نحوه اطلاقاً.

وخلال حديثه في المؤتمر اعلن بهذا الخصوص:

« واني أرى ان هذا الفتور بالغ في غالب اهل الطبقة العليا من الأمة ولا سيما في الشيوخ (الرؤساء الدينيين) لأننا نجدهم ينتقصون أنفسهم في كل شيء ويتقاصرون عن كل عمل »[3].

---

١ طبائع الاستبداد، ص ٣٣.

٢ انظر إحدى مقالاته الأولى التي نشرت بجريدة الاهرام في عام ١٨٧٧ م « العلوم الدينية والدعوة إلى العلوم الحديثة »، ويقرر ان رخاء وقوة البلاد العربية يعود إلى مستواهم العلمي ومجهوداتهم الفنية، وعليه فان الواجب الأول على الشرقيين أن ينشروا العلوم بين المواطنين. وقد حقق بنفسه اصلاحات في ميدان التعليم بالجامعة الدينية الكبيرة الازهر والتي كان مديرها.

٣ أم القرى، ص ١٦٠.

وعليه يعطي المؤلف أكثر الأهمية « لعلوم الحيـــاة » وتكوين الفرد وتحريره في حين انه حقيقة يرى دراسة العلوم الدينية على ان تكون من روح الاصلاحات المقترحة في الجزء الأول من هذه الدراسة . وخاصـة حماية الاطفـــال المسلمين من التأثير السيء الذي يقع عـــلى الاسلام مثل الأقاصيص الكاذبة ، والتعالي في البدع .

ومن وجهة النظر العملية ، نستطيع ان نعطي لمؤلفنا ، بعد ما سبق، الفضل في انه فكر في التأهيل المهني للشبـاب ونصح بالتدريب فيه [1] . حتى انه اشاد بفضل الضمير المهني من الوجهة الانسانية والفكرية . وسوف نتحدث عن ذلك عند ذكر « السلوك والمجتمـع » . انهـا مسائل تربوية واجتماعية لم تكد تبدأ اوروبا في تنفيذها الا في عام ١٩٠٠ . فضلاً عن ان المصلحين المسلمين لم يتفوهوا بعد بكلمة عن هذه المشاغل الاساسية للبلاد الحديثة . فجميع هذه المسائـــل كانت حاضرة في ذهن الكواكبي قبل مولدها ، بسبب قوة الملاحظة لديه واستعـداده النفسي الشديد لمفهوم الواقعية والتطور .

وهذا لم يمنعه من ان يفكر في الدور الهام الذي يجب ان تقوم به اللغة العربية في تثقيف الشبيبة الاسلامية . وقد ذكر ذلك في قوانين الجمعية وأكد في مرات عديدة ضرورة معرفـة رجـــال العلم هذه اللغة جيداً . ولنلاحظ انه يعطي بعض الأهمية للغات التركية والفارسية والاردية ولكن بصفة اقل من اللغة العربية .

ولم ينسَ مؤلفنـا ايضاً الثقافة الاجتماعية للنشء ، مؤكداً ان تعليم الانسان يجب ان يكون في جميع الاعمار ، ولكن بطريقة مختلفة . ويحدد ذلك :

« ولا بـــد ان تصحب التربية من بعـــد البلوغ ، تربية الظروف المحيطة ، وتربية الهيئة الاجتماعية ، وتربية القانون

---

[1] راجع المادة ٢٧ من قانون الجمعية .

او السير السياسي ، وتربية الانسان نفسه »[1] .

واخيراً ينصح في جميع الخطوات الثقافية التي يوصي بها ، باتباع طرق تربوية متحددة من جهة البساطة خاصة[2] . ويعطي اهمية كبيرة لمراجع التعليم بواسطة كتيبات مختصرة بسيطة وواضحة[3] . ويتضح ضمنياً ان مؤلفنا ينصح بالطرق التربوية الغربية ، حتى انه يذهب الى حد الاشادة بحماس، بالطريقة التي يعرف بها المستشرقون الغربيون اللغة العربية، وذلك بقوله ، على لسان احد الشخصيات ، هو مفتي قازان ما يأتي :

« وقد سمعت المفتي يقول انه اجتمع بكثير من المستشرقين فوجدهم كلهم يحسنون العربية اكثر من علماء الاسلام غير العرب مع انهم يشتغلون في علوم اللغة عمرهم كله. وما ذلك إلا من ظفر مدارس اللغات الشرقية الافرنجية بأصول التعليم العربية اسهل من الاصول المعروفة عندنا »[4] .

فالكواكبي لا يستطيع ان يمجد اكثر من ذلك التربية الغربية . وبالاختصار ، فهو يود فضلاً عن التعليم الديني الخالي من شوائب التقليد الأعمى ، ان ينادي بروح الحرية والاعتدال وان يكون هناك تعليم فني يسمح للفرد ان يواجه مطالب الحياة الحديثة ، وان يكون على انسجام مع التقدم وذي تكوين عملي يتيح لكل فرد ان يزاول مهنة ، او يحصل على تخصص . واخيراً تعليم اجتماعي، يطور الروح الاجتماعية لدى القاصر والراشد . وهذا مبدأ في التربية واسع الافق وفائق التمدن لمفكر مسلم في اواخر القرن التاسع عشر .

---

١ طبائع الاستبداد ، ص ٩٦ .
٢ انظر ما قبله مادة ٢٧ .
٣ انظر ما قبله المواد ٢٧ ، ٢٨
٤ أم القرى ، ص ١٢٧ – ١٢٨ .

ب ـ الفكر والمجتمع

نظرية الفكر عند الكواكبي تأتي منطقياً من آرائه في التعليم . فالروح الدينية ، التي سبق لنا التكلم عنها في المجموعة الاولى من الاصلاحات، تدعو المسلمين الى عمـل الخير والابتعـاد عن الشر ، وان يواظبوا على الاحسان بطريقة مستمرة اذ رفعه الاسلام الى مصاف الفروض (فرض الزكاة) . ولن نعود الى هذا المبدأ من الروح الاسلاميـة التي تقارب بشدة جميع نظريات المشرعين القدماء والحديثين . وعلى العكس من ذلك، فالناحية الاخرى من تفكيره هي ، كما يجب ان تتوقع ، اجتماعية بصفة خاصة . اي معنى من الوجهة العمليـة ، يقصد بها تنظيم منطقي للحيـاة الفردية والاجتماعية .

فقد بـدأ اولاً رئيس المؤتمر ، في حديثـه الافتتاحي ، بأن عرض بوضوح مشكلة تأخر المسلمين في الميدان العملي . وقد وضح ذلك بروح من النقـد الشخصي وبصراحة فائقـة تشرفه ، وهـذه هي الالفاظ التي يعبر بها :

« فيـا ايها السادة ، ما هو سبب ملازمة هذا الفتور منذ قرون للمسلمين من أي قوم كانوا وأينما وجدوا وكيفما كانت شؤونهم الدينية او السياسية أو الافرادية او المعاشية، حتى اننا لا نكاد نجد اقليمين متجاورين أو ناحيتين في اقليم أو فرقتين في ناحية أو بيتين في قرية أهل أحدهما مسلمون والآخر غير مسلمين الا ونجد المسلمين أقل من جيرانهم نشاطاً وانتظاماً في جميع شؤونهم الحيوية الذاتية والعمومية . وكذلك نجدهم أقـل اتقاناً من نظرائهم في كل فن وصنعة مع اننـا نرى اكثر المسلمين في الحواضر وجميعهم في البوادي محافظين على تميزهم على غيرهم من جيرانهم ومخالطيهم في امهات المزايا الاخلاقية

مثل الأمانة والشجاعة والسخاء . فما هو والحالة هذه سبب تعمم هذا الفتور وملازمته لجامعة هذا الدين كملازمة العلة للمعلول بحيث اينما وجدت الاسلامية وجد هذا الداء حتى توهم كثير من الحكماء ان الاسلام والنظام لا يجتمعان . هذا هو المشكل العظيم الذي يجب على جمعيتنا البحث فيه اولاً بحث تدقيق واستقراء عسى ان نهتدي الى جرثومة الداء عن يقين فنسعى في مقاومتها حتى اذا ارتفعت العلة برىء العليل ان شاء الله تعالى»[1].

والجرثومة في الميدان العملي ليست فقط الجهل الذي يود الكواكبي معالجته بالتعليم كما رأينا من قبل، ولكن ايضاً في الغرارة التي طغت على طبائع المسلمين وجعلتهم يفقدون روح التنظيم الضروري لمواجهة مصاعب الحياة الحديثة . ولنستمع الى الخطاب المؤثر الذي وجهه اليهم بنفسه ، معتباً عليهم اهمالهم ، الى حد عدم الشعور في ميادين عديدة . وهو في نفس الوقت درس روحي قيم ، إذ انه خلال تلك الانتقادات ،يلمس مشاكل عدة يمكن منها استخلاص نصائح ذات قيمة كبيرة من الوجهة الاجتماعية والانسانية :

« فمن (الغرارة) في طبقاتنا كافة من الملوك الى الصعاليك اننا لا نرى ضرورة للاتقان في الامور ، وقاعدتنا ان بعض الشيء يغني عن كله والحق ان الاتقان ضروري للنجاح في اي امر كان بحيث اذا لم يكن مستطاعاً في امر ، يلزم ويتحتم ترك ذلك الأمر كلياً والتحول عنه الى غيره من المستطاع فيه إيفاء حق الاتقان .

ومن (الغرارة) توهمنا ان شؤون الحياة سهلة وبسيطة فنظن

---

[1] أم القرى ، ص ١٩ و ٢٠ .

ان العلم بالشيء إجمالاً ونظرياً بدون تمرن عليه يكفي للعمل به فيقدم احدنا مثلاً على الامارة بمجرد نظرة في نفسه انه عاقل مدبر قبل ان يعرف ما هي الادارة علماً، ويتمرن عليها عملاً ويكتسب فيها شهرة تعينه على القيام بها [1] .

وعندئذ يتخذ الكواكبي كمثال مهنة بسيطة ومتواضعة . تلك هي مهنة بائع المياه المتجول والتي على ما ظهر ، لا تحتاج لعناية ولا لأية معلومات ضرورية . ثم يبين ان في ذلك كل الخطأ فالذي يريد أن يزاولها بضمير ، فعليه ان يسهر على نظافة قربته وكوبه وعلى تصرفاته الخارجية ونظافة ملابسه ، وعلى الطريقة التي يحتفظ بها على عذوبة مياهه وجعلها شفافة ونقية حتى يستدر الرغبة ، ويجب عليه ان يهتم بالاوقات التي يصاب بها الناس بالعطش الى آخره ... وبذلك يعطينا المؤلف فكرة عالمية عن « الضمير المهني » . وإن هذا المثل كاف لاقناعنا، وفي نظرنا انه لعلى حق . فرخاء كل بلد يتوقف بصفة هامة على الطريقة التي يتبعها ساكنوه في مهامهم . وذلك يبين عقلية خاصة هي ما يريد مؤلفنا الاشارة اليها. وما يلي سوف يثبت لنا ذلك ايضاً :

« ومن الغرارة ظننا ان الكياسة في « ادري واقدر » جواباً للنفس في مقاصد كثيرة شتى. والحقيقة أن الكياسة لا تتحقق في الانسان إلا في فن واحد فقط يتولع فيه فيتقنه حق الاتقان كما قال تعالى : (وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) « قرآن كريم ٣٣ — ٤ » . فالعاقل من يتخصص بعمل واحد ثم يجاوب نفسه عن كل شيء غيره (لا أدرى ، ولا أقدر) لأن الأول يتكلف اعمالاً لا يحسنها فتفسد عليه كلها والثاني يتحرى لكل عمل لازم له من يحسنه فتنتظم اموره

---

[1] أم القرى ، ص ١٥٤ .

ويهنأ عيشه »[1] .

وكيف يمكننا أن لا نفكر عند قراءة تلك الفقرة عن الميل المهني الذي يوجد لدى كل فرد والذي يحب التشافه ؟ وبطريق غير مباشر وضع الكواكبي مشكلة « التوجيه المهني » التي شرحها بوضوح كاف حقاً في هذه الفقرة من الوجهات الدينية [2] والروحية والنفسية ولكن بدون ذكر الوجهة الفنية التي يحاول الجميع حلها في الساعة الحاضرة . ومن جهة اخرى فانه يطالب بضرورة التخصص الذي يعطيه الأهمية الكبرى ، وينادي في نفس الوقت بتقديره للعمل الجيد . وهي في نفس الوقت مبادىء نفسية اجتماعية واخلاقية وهي ايضاً في المقام الاول للأمم الحديثة .

ويستمر ايضاً في موضوع « عدم المبالاة » ، ولكنه في هذه المرة يشير الى السلوك العملي ويعطي نصائح ايجابية ومحددة .

« ومن الغرارة اللوث في الامور اي تركها بلا ترتيب ، والحكمة قاضية على كل انسان ولو كان زاهداً منفرداً في كهف جبل فضلاً عن سائس رعية او صاحب عائلة ان يتخذ له ترتيباً في شؤونه وذلك بأن يرتب :

اولاً — اوقاته حسب اشغاله ويرتب اشغاله حسب اوقاته والشغل الذي لا يجد له وقتاً كافياً يهمله بالكلية او يفوضه لمن يفي حق القيام به عنه .

ثانياً — ترتيب نفقاته على نسبة المضمون من كسبه فان ضاق

---

١ أم القرى ، ص ١٥٥ .

٢ اننا لا نستطيع أن نتجنب هنا ذكر التقارب بين آراء مؤلفنا وكلمة قسيس من برادو توفي حديثاً (٢٠-٢-١٩٥٣) هو الأب جان أودان الذي عرفناه جيداً والذي يعتبر أحد مؤسسي الاتجاه المدني حسب الشريعة المسيحية ، ونقرأ في مخطط كلماته وأفكاره : يجب أن لا نشك في أن الله يطالبنا جميعاً بارادة قوية إلى نوع من العمل المهني ومن واجبنا الاستجابة لهذا النداء . وفي منظوراتنا الفكرية ان هذا التوجيه الطيب هو الجواب على النداء المقدس (٢٧-١٠-١٩٥٢) .

دخله عن المبرم من خرجـــه يغير طراز معيشته ولو بالتحول مثلاً من بلده الغالية الأسعار او التي مظهره فيهـا يمنعه من الاقتصاد الى حيث يمكنه ترتيبها على نسبة كبيرة .

ثالثاً – يرتب تقليل غائلة عائلته عند اول فرصة ملاحظاً اراحة نفسه من الكد في دور العجز من حياته فيربي أولاده ذكوراً وأناثاً على صورة ان كلاً منهم متى بلغ اشده يمكنه ان يستغني عنه بنفسه معتمداً على كسبه الذاتي ولو في غير وطنه.

رابعاً – يرتب أموره الادبية على نسبة حالته المادية أعني يرتب أموره الدينية ولذاته الفكرية وشهواته الجسمية ترتيبـــاً حسناً فلا يحمل نفسه منها ما لا تطيق الاستمرار عليه .

خامساً – يرتب ميله الطبيعي للمجد والتعـالي على حسب استعداده الحقيقي فلا يترك نفسه تتطاول الى مقامات ليس من شأن قوته المادية ان يبلغها الا بمحض الحظ ، اي الصدف .

وخلاصة البحث ان (الغرارة) من أقوى أسباب الفتور وقد أطلت في توصيفها وايضاحها ليتأكد عند السادة الاخوان ان ازالة اسباب الفتور الشخصي ليس من عقبات الأمور »[1].

وعقب هذا التعليق الطويل على عدم المبالاة ، والتي يهيب فيها مؤلفنا بضمير وقوة ارادة كل فرد حتى ليرتب حياته منطقياً ، فلنرَ ما يظنه في الطبقات المختلفة التي يتكون منها المجتمع . فهو يدرس في « ام القرى » على التوالي « المرأة ، والشباب ، والرؤساء الدينيين » .

أما فيما يختص بالمرأة فانه يقدر ان جهلهن هو احد اسباب انحلال الخلق ، على عكس ما يظن عادة . فضلاً عن انه ينسب اليهن النفوذ الأكبر في قيادة الأسرة حتى على الأزواج ، اذ ان سلاحهن هو المكر:

---

١ أم القرى ، ص ١٥٦ – ١٥٧ .

« الرجل ينجر طوعاً أو كرهاً لأخلاق زوجته »[1] .

ولكن الشريعة الاسلامية قد تنبأت لهذه المخاطرة وأخذت الاحتياطات اللازمة ، حتى لا تنساق المرأة بسهولة الى تصرف مستهتر . فهو يدافع اذن عن النظرية التقليدية المعروفة جيداً عندما يعلن :

« وما قدر قدر دهاء النساء مثل الشريعة الاسلامية حيث أمرت بالحجب والحجر الشرعيين حصراً لسلطتهن وتفرغهن لتدبير المنزل »[2].

وعليه فالكواكبي يرى نفسه كمناصر للحجاب والحجر، بحجة المحافظة على الأخلاق ، وحسن سيرة الاسرة ، وامتيازات الزوج التي بدونها يصير ذا موقف أقل شأناً من الزوجة. وليدافع عن هذا الرأي يضيف :

« ذلك الشرف الذي هو من أهم مقاصد الشرقيين بخلاف الغربيين الذين لا يهمهم غير التوسع في الماديات والملذات »[3].

ان موقف مؤلفنا هذا ليس بالجديد ولا بالحديث حقاً . ويمكننا فقط أن نعترف له بالمطالبة بتثقيف المرأة وتعليمها، لمصلحة الاطفال والاخلاق، وحتى لمصلحة الأزواج أنفسهم . حقيقة أنه في عام ١٩٠٠ كانت الحركة النسائية في مصر في بدئها ، وكانت تتقدم بخطوات خجولة رغم مجهودات قاسم أمين .

أما بخصوص الشباب ، فان مؤلف «ام القرى» يقسمهم الى فريقين :

فانه يميز أولاً الشباب الذي تقيم عليه الأمة أكبر الآمال ، أي تلك الطائفة التي تشعر بالكثير من الكرامة ، والتي تحب الحرية والعمل ، والتي تخلص للوطن والمواطنين ، والتي لا تطيع إلا تعاليم الدين .

---

١ أم القرى ، ص ١٥٩ .

٢ أم القرى ، ص ١٥٨ .

٣ أم القرى ، ص ١٥٤ — ١٥٩ .

بالعكس فالشباب الاخر الذي يصفونه « بالمتفرنج »[1] فانه يعيب عليه عدم وجود خط سير محدد لديه، واهماله وتكاسله وتعوده المزاح والرياء، واخيراً عدم تعلقه بالدين سوى في المظاهر فقط .

الكواكبي يريد اذن شباباً ذا آمال نبيلة موجهة الى المجهود والعمل، ممتلىء بعواطف وطنية ودينية عميقة . والوطنية التي يطالب بها هنا تتبين بعض الشيء بتعارضها مع اتحاد البلاد الاسلامية الذي ينشده بفضل جمعيته.

أما عن الرؤساء الدينيين[2] « الشيوخ » ، فانه يعيب عليهم عدم احساسهم وتعودهم التذلل أمام الكبار وتصرفهم المؤلم ، واعتبارهم ان كل شعور بالتقدم أو بالنبل نوعاً من قصر النظر . ويتبين من ذلك شدة ميلهم للمظاهر والمنفعة المادية . وينصحهم بعدم التعالي والبساطة والحياة المتواضعة التي أمر الله بها المحتقرين العاجزين ، الذين يعيقون الشباب عن العمل والتقدم . ولهذه الحملة الصحفية ، يجب اللجوء الى اقلام الادباء وألسنة الشعراء . وسوف يكون النصر في النهاية حليف الشباب العامل . ويختم الكواكبي :

« ومن راجع تواريخ الأمم التي استرجعت نشأتها والدول التي جددت عصبيتها يجد من حكمائها ونجبائها[3] ... من قد تغلبوا على الفكر الواهن وأنصاره من الأشراف والشيوخ وأهل العناد والفساد بحمل لواء الناشئة واثارة حرب ادبية حماسية بين الفئتين على اننا نحن تكفينا الضوضاء ولا نحتاج قط للفوضى

---

١ هذا الجزء الذي خصصه للشباب يحتوي على فقرات طويلة فاكتفينا بتلخيصها . أم القرى ، ١٦٢ – ١٦٤ .

٢ الجزء الخاص « بالشيوخ » مفكك ومطول فلخصناه فقط . أم القرى ، ص ١٦٠ – ١٦٢ ، وبعد ذلك ص ١٦٤ .

٣ المؤلف يذكر هنا بعض الاشخاص ومنهم فولتير عند الفرنسيين. ونشعر هنا أيضاً بوضوح بتشبعه بروح فلاسفتنا في القرن الثامن عشر .

لأن واهنتنا أضعف من أن تحوجنا ، ورب حيلة أنفع من قبيلة [1] ... وهذا انجح دواء والله ولي النيات [2] » .

هذا الانتقاد المر للرؤساء الدينيين ، يتفق مع ذلك الذي وجهه الشيخ عبده الى العلماء المتأخرين المسمون « بأهل الجمود » [3]، وأيضاً مع النضال الفكري الذي قام به ضدهم ، حتى يستطيع الحصول على الاصلاحات المادية والتربوية في الجامعة الازهرية . والحق ان الكواكبي ، على ما يتضح خلال الفكرة الاخيرة المذكورة ، يستهين بنفوذ العلماء المحافظين ويظن انه من السهل التغلب عليهم ، بمجرد حملة صحفية وبدعاية كتابية تصل الى الجماهير. وقد اثبت توالي الحوادث ان مؤلفنا كان خيالياً في ذلك. وعلى كل حال فان له كل الفضل في انه قد حلل بدقة ذلك الخلاف ، بين تلك الطبقة ذات النفوذ ، والشباب المتعطش للعمل . ويمكننا ان نعتبر هذا التحليل صالحاً ايضاً ، حتى في الوقت الحاضر ، بالنسبة للبلاد المصابة بروح « الجمود » [4] اذا اردنا استعمال اصطلاح حديث .

ويظهر أن مؤلفنا يميل لدراسة الطبقات الاجتماعية في صيغة وصف بياني اذ انه سبق في مؤلفه المخصص عن الاستبداد ، ان انتهز الفرصة لدراسة عقلية المستبد والوزراء، وكبار الموظفين والنبلاء والعقلاء والمثقفين، واخيراً رجل الشارع في ظل هذا الحكم وامتدادات هذه الدراسات متفاوتة

---

١ الكواكبي يستعمل هنا شيفرة سرية بالارقام يظهر أنه مقتبس من نفس المبدأ الذي استخدم ليشير إلى أعضاء المؤتمر في مبدأ المؤلف ، أم القرى ، ص ٧ ، فضلا عن الواقع في أنه كان مضطراً بسبب الظروف السياسية والدكتاتورية العثمانية فانه قد أظهر ميلا خاصاً إلى الوسائل السرية ويعطي لها أهمية قصوى .

٢ أم القرى ، ص ١٦٥ .

٣ الإسلام والمسيحية في مواجهة العلوم والحضارة .

٤ هذا الاصطلاح مستعمل منذ بضع سنين ليوصف به تردد الخطى في الحياة السياسية والاقتصادية لبعض البلاد بعد الحرب أنه كثير الاستعمال بين الأخصائيين السياسيين في فرنسا وبلاد أوروبا الغربية .

جداً ، ولم يتفرغ لها دائماً بطريقة منظمة . وفي أغلب الأوقات لم يقم بشيء ، سوى اعطائنا ارشادات أخلاقية واجتماعية ، دون أن يخفي رأيه فيها اطلاقاً . وعلى كل حال فانه يعطي باستمرار الدليل على صفاته كملاحظ ونفساني قدير مضيفاً الى هذه الميزة صراحة تستحق كل الشرف .

أما عن المستبد ، فالمؤلف يقوم بدراسة أخلاقية هامة من الوجهتين النفسية والاجتماعية .

« إن خوف المستبـد من نقمة رعيته أكثر من خوفهم بأسه ، لأن خوفه ينشأ عن علمه ما يستحقه منهم ، وخوفهم ناشىء عن جهل ... كلما زاد المستبد ظلماً واعتسافاً زاد خوفه من رعيته وحتى من حاشيته »[1] .

وخلاف ذلك يهاجم مؤلفنا الاستبداد من جميع الوجوه ، لأن هذا الحكم يعارض كل ما يعطي الأفضلية للتقـدم والسعادة للفرد ، وها هي ذي بعض المقتطفات الأكثر تعريفاً :

« المستبد عدو الحق ، وعدو الحرية وقاتلها ، والحق أبو البشر والحرية امهم[2] .

إن بين الاستبداد والعلم حرباً دائمـة وطراداً مستمراً[3] .

الاستبـداد أصل لكل فساد ... إن الاستبداد يضغط على العقل فيفسده ، ويحارب العلم فيفسده[4] .

الاستبداد أشد وطأة من الوبـاء ... أسعدهم (من تحت حكمه) أولئك الذين يتعجلهم الموت فيحسدهم الأحياء[5] .

---

١ طبائع الاستبداد ، ص ٣٥ – ٣٦ .
٢ طبائع الاستبداد ، ص ١٣ .
٣ طبائع الاستبداد ، ص ٣٤ .
٤ طبائع الاستبداد ، ص ٣٩ .
٥ طبائع الاستبداد ، ص ٧٤ .

الاستبداد بالنسبة للسلوك الاجتماعي كمثـل الحطاب الذي لا ينتظر منه سوى الخراب »[1] .

أما فيما يختص بالوزراء وكبار الموظفين ، فان المؤلف لم يكن معهم أكثر تسامحاً ، حيث أعلن :

« المستبد لا يستخدم إلا الأراذل والاسافل فقط ولهـذا يقال دولة الاستبداد دولة بله وأوغاد » .

وفي مكان آخر ، يخصص عرضاً مطولاً لوزير المستبد ، مؤكـداً المقت الذي يكنه له أفراد الشعب وجميـع من يقتربون منه . ويعرض ايضاً قضية الوزراء وكبار الموظفين ، الذين لا يستطيعون أن يعيشوا إلا على بؤس الشعب .

أما عن « النبل » فالكواكبي يقصد خاصة النبلاء بالوراثة ، والذين يعطيهم بعض الاعتبار بسبب أسلافهم وتربيتهم المهذبة وغنائهم ، الذي يبعث على الكرم والتعقل . ويعتقد أن نشاطهم يمكن أن يقوم في ميادين ثلاثة: العلوم ورأس المال والحكومة. أولئك الذين اختاروا الفرع الأخير هم الأكثرية ، ومن النادر العثور بين هذه الطائفة على حكام مستقيمين وعادلين ، إذ أنهم في الواقع يميلون الى المظاهر والعظمة التي يستغلهـا المستبد والتي يبذرونها بدورهم في مرؤوسيهم حتى ولو بمنحهم بعض الامتيازات وهذه هي وسيلة المستبد ليصرف هؤلاء المتنافسين الخطرين عن محاولة الحصول على الحكم ، وبما أن هؤلاء الاخيرين هم موضع كراهية الشعب ، فليس لهم سوى سبيل واحد : هو مساعدة الحـاكم بعد أن كانوا أعداءه .

« والحاصـل ان المستبد يذلل الاصلاء بكل وسيلـة حتى يجعلهم مترامين دائماً بين رجليه كي يتخذهم لجاماً لتذليـل

---

[1] ترجمت حسب النص الفرنسي .

الرعية ويستعمل غير هذه السياسة مع العلماء ورؤساء الاديان»[1].

وفي رأيه ان العقلاء والمثقفين هم الوحيدون القادرون على تحرير البلاد من كل متاعبها بالقضاء على الاستبداد. وهكذا، كما يظن، يجد المستبد من أعضاء حاشيته أشخاصاً يحدثونه بصراحة. وربما يجد في مجموعة الشعب اشخاصاً اذكياء وعظماء يخاطبونه بلغة الحق. ولكنه يحاربهم بمعاونة جيش الخدم الخاص به واذا حدث وفترت همته، فان الاستبداد والاستعباد سوف يقضي عليها[2].

ثم يؤكد بعد ذلك، ان المثقفين وحدهم الذين يستطيعون قيادة الأمة وتنويرها ودفع روح الحماس فيها، بدون ان يترددوا في تضحية ارواحهم في سبيل ذلك. «اذ ان الله جعل في قلوبهم الرغبة في المثابرة للحصول على هذه الغاية»[3].

وأخيراً «رجل الشعب» الذي يلقبه «عبد المستبد» اذا شب في هذا الحكم ولا يمكن ان يكون قد تغذى بمشاعر طيبة، والرجل العاقل حقاً لا يستطيع لومه، وعليه ان يبحث له عن الوسيلة التي تستطيع اخراجه من هذا الموقف. وفي ظل هذا الحكم يختفي الاخلاص، حتى في امور الدين، ويقوم الرجل بشعائر دينية بدون ايمان، وهذا لا يعود بأي فائدة على روحه. ويتعود على الرياء والكذب اللذين يستعملها «مع ربه ومع ابيه وامه ومع قومه وجنسه حتى ومع نفسه»[4]. فضلاً عن ان هؤلاء العبيد يعملون بلا ايمان او حمية. حتى انهم لا يفكرون في تربية أطفالهم سواء في النطاق العائلي او في الميدان القومي:

«الآباء كما يذكر غير مالكين أنفسهم ولا هم آمنون

---

١ طبائع الاستبداد، ص ٥٠.
٢ طبائع الاستبداد، ص ٥١ — ٥٢.
٣ طبائع الاستبداد، ص ٥٨.
٤ طبائع الاستبداد، ص ٩٦.

على انهم يربون أولادهم لهم . بل هم يربون آنعاماً للمستبدين وأعواناً لهم عليهم . فالتوالد من حيث هو زمن الاستبداد حمق ، والاعتناء بالتربية حمق مضاعف »[1] .

ان حياة هذا الرجل اذن غير منتظمة بلا عرض محدد وبلا مبدأ ، تكفيه الشهوات الحيوانية لا يقوده سوى الاهواء السيئة ، وينقصه هـذا الضمان النفسي الضروري وحب العمل والارادة ، حتى يستطيع ان ينعم بملذات حقيقية نفسية وفكرية . أمله الوحيد هو أن يحتفظ بالقليل ممـا استطاع جمعه من المال محاذراً ان يجلب الغيرة التي تكون خطيرة بالنسبة اليه.

والمؤلف يستخلص بنفسه مضمون هذه المجموعة من الأوصاف البيانية للشخصيات الـتي تعيش في ظل الاستبداد ، مرتكزاً في ذلك على رأي العلماء في السياسة والروحيين وكذلك على تعاليم القرآن والسنة ، وها هي ذي حسب أهميتها :

إن أي تعليم لا يفيد إلا اذا أقنع بـه نفسه وقوى ضميره ، ولذلك فان القصاص والعقاب قليلاً ما أثمرت نتائجها . أما فيا يختص بالشرق ، فليس في وسعنا أن نفكر جدياً في التربية المفضية الى إعداد العقل للتمييز ، ثم على حسن التفهيم والاقناع .[2] لطالما أن العقبة التي تعـذب الضمير (الاستبداد) لم يقض عليها . هذا هو الحل لجميع المتاعب التي سبق تعدادها .

ولكي يصل الى غرضه ، فانه ينادي بحل محدد سوف نراه فيا بعد ، وأيضاً على فضيلة يعتبرها أساس العقـل ولا بد منها في أي مشروع جدي : الارادة التي يكنّ لها تقديساً حقيقياً[3] للمناداة بهذه الفضيلة الهامة

---

١ طبائع الاستبداد ، ص ١٠٢ .

٢ طبائع الاستبداد ص ١٠٨ .

٣ طبائع الاستبداد ، ص ٨٠ .

التي يحث عليها مرات عديدة ، هي في أعين الشرقيين ضرورة العمل . ويطلب منهم أن يعيشوا احراراً أو يموتوا .

ولكي يتوج هذا التقديس للارادة والعمل وينتقد في نفس الوقت الخمول والتواكل ، فانه يذكر « حديثاً » رمزياً .

« إن اليد العليا (التي تعطي) خير من اليد السفلى (التي تلتمس) » [1] .

وأخيراً، إننا لا نود أن ننهي هذا الجزء المخصص «للفكر والمجتمع» بدون أن نتكلم عن التحليل النفسي الذي خصصه مؤلفنا « للمجد » في كتابه عن الاستبداد. انه يتضمن دراسة على غاية من الأهمية كما سنرى .

وبعد أن بين أن الاستبداد يحارب المجد بمحاولة شرائه ، كما يفعل بالنسبة الى الكثير من القيم الأخرى ، فقد وضح ذلك كالآتي :

« المجد هو إحراز المرء مقام حب واحترام في القلوب وهو مطلوب طبيعي شريف لكل انسان ... للمجد لذة روحية تقارب لذة العبادة عند الفانين في الله وتعادل لذة العلم عند الحكماء وتربو على لذة امتلاك الأرض،ولذا يزاحم المجد في النفوس منزلة الحياة .

وقد أشكل على بعض الباحثين أي الحرصين أقوى؟حرص الحياة أم حرص المجد ؟ والحقيقة التي عمل عليها المتأخرون وميزوا بها تخليط ابن خلدون هي التفضيل ، وذلك أن المجد مفضل على الحياة عند النجباء والأحرار وحب الحياة ممتاز على المجد مفضل عليه عند الاسراء والاذلاء » [2] .

ويستمر في تحليله للمجد بدراسة الوسائل التي توصل اليه :

---

١ طبائع الاستبداد ، ص ٧٢ .

٢ طبائع الاستبداد ، ص ٣٩ — ٤٠ .

« المجد لا ينال الا بنوع من البذل في سبيل الجماعة وبتعبير الشرقيين في سبيل الله او سبيل الدين . وبتعبير الغربيين في سبيل المدنية أو سبيل الانسانية »[1] .

وبعد ذلك يوضح الأشكال المختلفة للتضحيات التي تنيل شهرة المجد .

« وهـذا البذل اما بذل مال للنفع العام ويسمى مجد الكرم وهو اضعف المجد .

أو بذل العلم النافع المفيد للجماعة ويسمى مجد الفضيلة .

أو بذل النفس بالتعرض للمشاق والأخطار في سبيل نصرة الحق وحفظ النظام ويسمى مجد النبالة ، وهذا أعلى المجد وهو المراد عند الاطلاق وهو المجد الذي تتوق اليه النفوس الكبيرة وتحن اليه أعناق النبلاء »[2] .

وينتهي المؤلف الى ذكر هذا الاعتبار عن الوسيلة لتحصيل المجـد حسب نظام الحكم .

« والحاصل ان المجـد هو المجد محبب للنفوس ، لا تفتأ تسعى وراءه وترقي مراقيه ، وهو ميسر في عهد العدل لكل انسان على حسب استعداده وهمته ، وينحصر تحصيله في زمن الاستبداد بمقاومة الظلم على حسب الامكان »[3] .

والمؤلف يقارن أخيراً بين « المجد » و « التمجد » الذي ينسبه خاصة للحكومات المستبدة معلناً بذلك أن الشخصيات « الممجـدة » هم اولئك الذين يحيطون بالمستبد وكل المستغلين لهذا الحكم . ويقدر ان جميع علامات هذا التمجد ما هي الا خدع في ظلال الحكم الفردي ، ولكنها مخلصة وباستحقاق في ظل نظام الحكومات الحرة التي تمثل مشاعر الأمة . وان

---

١ طبائع الاستبداد ، ص ٤٠ .
٢ طبائع الاستبداد ، ص ٤٠ — ٤١ .
٣ طبائع الاستبداد ، ص ٤٢ .

الشخصيات « الممجدة في الحكم الفردي» ليست سوى أعـداء العدالة ومساعدي الطغيان »[1].

ويمكننا ان نضيف هذا الوصف للمجد ، التعريف الذي يعطيه مؤلفنا لمعنى « المال » وهذا يعطينا خلاصة لأفكاره الخاصة بالفكر والمجتمع :

وانه يعتبر كمثل « المال » كل ما يستطيع الرجل ان ينتفـع منه : القوة — العقل — العلم —الدين — الثبات — الجاه — الجمال —الترتيب — الاقتصاد[2].

وبالرجـوع الى الآراء التي ذكرناها سابقـاً ، يمكن ان نضيف لهـذه المجموعة : الارادة — العمل — المجد .

الحياة الاقتصادية والتقدم

يشير الكواكبي أحياناً في « ام القرى » الى المسائل الاقتصادية، وفي كل مرة يعطي اهتماماً خاصاً الى « المال » و « الغنى » .

وبذا يؤكـد المنـدوب الأفغاني ، أن الداء الذي تتوجع منه البـلاد الاسلامية هو الفقر ونقص رؤوس الأموال .

> « القوة المـالية أصبحت لا تحصل إلا بالعلوم والفنون العالية وهذه لا تحصل إلا بالمال الطائل فوقعنا في مشكل الدور وعسى أن نهتدي لفكه سبيلاً وإلا فيحيق بنا ناموس فناء الضعيف في القوي »[3] .

وعلاج هذا الداء الخطير ، يتركز في تطبيق الزكاة والكفارة بكـل

---

١ طبائع الاستبداد ، ص ٤٢ — ٤٦ .

٢ طبائع الاستبداد ، ص ٥٨ ؛ ونعجب لظهور بعض القيم في هذه المجموعة والتي تنطوي على روح من السيطرة : قوة — ثبات — جاه . وربما كان ذلك بروح المعارضة للاستبداد المحطم لهذه المبادئ .

٣ أم القرى ، ص ٥٢ .

دقة وأمانة ، والذي يتيح ، كما يقول المؤلف ، الغاء الفوارق الاجتماعية والعوز واختلال الميزانية وقد سبق أن ذكرنا رأينا في ذلك الحل . وبذا نرى الى أي حد تشغل المسائل الاقتصادية بال الكواكبي ، وان أهميتها في حياة الأمم والأفراد لا تخفى عليه. انها حقيقة واقعة أكثر مما يتصور، ويخطىء اذ يظن العقبات التي تواجه تكوين جمعيته هي ماليـــة فقط . وايضاً فانه يضع في مواد القانون ، في نفس المستوى : العلوم والسطوة والغنى ، ويطالب كل عضو منضم لهذه الجمعيـــة ، أن يكون حائزاً لإحدى هذه الصفات الثلاث .

في حين أنه يشرح بصفة خاصة في المؤلف الآخر المسائل الاقتصادية، يربطها غالباً بالمسائل الاجتماعية والدينية .

وانه ليبدأ أولاً باعتبارات عامة متشائمة عن طبيعة الرجل .

« إن النظـــام الطبيعي في كل الحيوانات ... ان النوع الواحد لا يأكل بعضه بعضاً والانسان يأكل الانسان ... وهذا الانسان نفسه حريص على اختطافه « الرزق » من يد أخيه بل من فيه . بل كم أكل الانسان الانسان » [1] .

ويؤكد فوق ذلك أن الانسان شديد التعطش للمال [2] . فكيف يمكن اذن أن ينصلح حاله ؟

في حين أن أكل لحوم البشر قد ألغته الديانات وجهود الأنبياء . ويقرر أن الدين الاسلامي ونبيه محمد ، هما اللذان أريا الوسيلة لاصلاح الانسان واعتدال شهواتـه ، وتوصلا بهذه الوسيلة ، شيئاً فشيئاً ، الى ايجـــاد علاقات اجتماعية واقتصادية طبيعية .

---

١ طبائع الاستبداد ، ص ٥٩ .

٢ طبائع الاستبداد ، ص ٧٣ ، أحاديث عديدة ذكرت في هذا المعنى .

ويعترف أن البحث عن الثروة عادة خاصة بالانسان ، ولكنه يرى أن ذلك لا يتعارض مع تنظيم عام للاقتصاد في كل بلد . والكواكبي اذن يعود الى ذكر نقطة مؤيدة بالأدلة عزيزة لديه ، كما سبق أن رأينا ، وذلك مع التوسع فيها :

« والمراد بالانتظام العام معيشة الاشتراك العمومي .. وهذه الأصول قررتها الاسلامية ديناً »[1].

انه يستعمل هنا نفس الالفاظ التي يستعملها المندوب الانجليزي أمام المؤتمر ، ليؤكد أن النظريات الحديثة للمساواة الاجتماعية والاقتصادية تتوجد فعلاً في الدين الاسلامي بفضل فرض «الزكاة» و « الصدقة » و «الخراج» وذلك كما يرى ليس سوى الضريبة التي يدفعها الممول ، الذي يستغل أرضاً منتجة أو يجني أرباحاً ، للخزانة العامة . والأراضي الغير مشتغلة تبقى ملكاً للدولة [2] .

وبمعنى آخر فان الاسلام يناصر الملكية المشتركة مع الاستغلال الفردي. وقد أعطى المؤلف أمثلة على تحديد الملكية الشخصية في الصين وفي روسيا.. الخ . ويقترح تطبيق نظام مماثل في الشرق مقتبس من النظام الروسي (في عهد القيصر) : منع المزارعين من عقد قروض أكبر من مبلغ معين ، حتى لا يشجعهم ذلك على توسيع رقعة ملكيتهم العقارية ، أليس ذلك تخطيط كنظام اقتصادي موجه ؟

وفي حين أن الكواكبي لا يعارض في الثراء ، على أن يحوز على الشروط الثلاثة التي أوضحها بتطويل كبير [3] ، والتي تلخيصها كالآتي :

---

١ طبائع الاستبداد ، ص ٦٤ .

٢ طبائع الاستبداد ، ص ٦٤ — ٦٥ .

٣ طبائع الاستبداد ، ص ٦٥ — ٦٧ .

١ – أن يكون احراز المال بوجه مشروع حلال ، أي باحرازه من بذل الطبيعة أو بالمعارضة أو في مقابل عمل .. الخ .
٢ – أن لا يكون التمول تضييق على حاجيات الغير كاحتكار الضروريات.
٣ – ألا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير ، لأن افراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة في الانسان[١] .

وبذا نرى أن مؤلفنا ضد الرأسمالية الكبرى وكبار الملاك ، فضلاً عن ان نظريته في الثراء مستوحاة من شعور مبني على أساس ديني وانساني وروح اجتماعية .

وان ثار أيضاً ضد بعض أنواع الاستغلال وخاصة التبذير ، الذي يقوم به رجال السياسة والدين ، والحياة الفاضحة للأغنياء من أصحاب المصانع والتجار ، والحياة البائسة لصغار الصناع والمزارعين . فانه بجانب ذلك ليس من أنصار المساواة التامة ، التي لا يمكن تحقيقها ، فان الكواكبي ذو فكر واقعي كبير وعقل ناضح بحيث لا يمكن ان ينساق الى هذا الخيال .

« نعم لا يقتضي أن يتساوى العالم الذي صرف زهوة حياته في تحصيل العلم النافع أو الصنعة المفيدة بذاك الجاهلي النائم في ظل الحائط (مثلاً) ولكن العدالة تقتضي غير ذلك التفاوت بل تقتضي الانسانية أن يأخذ الراقي بيد السافل فيقربه من منزلته ويقاربه في معيشته[٢] .

هذا المبدأ الكريم للروح الاجتماعية عند مؤلفنا ، يتفق مع نظرياته الاقتصاديه المبينة في جزء منها على المبادىء الدينية في الاحسان والتعاون . انه يثور أيضاً ضد نوع من الاستغلال ، سبق أن تكلمنا عنه ،

---

١ طبائع الاستبداد ، ص ٦٧ .
٢ طبائع الاستبداد ، ص ٦٢ .

منتشر في الحياة الاقتصادية للبلاد الشرقية وحتى الغربية ، وهو « الربا » . « انه يعتبر محرماً » ، اذ انه الوسيلة الغير مشروعة لمنع المساواة في الثراء بين الافراد [1] .

« لأن الربا هو كسب بدون مقابل مادي ففيه معنى الغصب، وبدون عمل لأن المرابي يكسب وهو نائم ففيه مهلكة للأخلاق الحميدة » [2].

وفي نظر الرأسماليين والاقتصاديين ان الربـا ، ان لم يكن فاحشاً ، فهو ضروري لتقدم المعاملات . ومؤلفنا يقبل هذه النظرية على شريطة الا يكون ذلك لازدهار الافراد والأمة . ولكنه تغلب عليـه آراء السياسيين والاخلاقيين ، الذين يقولون بأن « الربا » ضرره أكثر من نفعه ، لأنـه ينمي ثروات بعض الأفراد ويمكن للضغط الداخلي ويقوي الاستبداد الدولي، فتقضي بذلك على حرية واستقلال الأمم الضعيفة . ويختم الكواكبي ذلك بقوله :

« وهذه المقاصد فاسدة في نظر الحكمة والعدالة ولذلك يقتضي تحريم الربا تحريماً مغلظاً » [3] .

والمؤلف يبين مشكلة الاثراء حسب أنظمة الحكم [4] ، مؤكداً أنه يقل كثيراً في عهد الحكومات العادلة المنتظمة ، وعلى العكس من ذلك ، فانه يزيد الحرص عليه تحت الحكم المستبد الفاسد. ويميز في هذا الموضوع بين الحكم الاستبدادي في كل من الشرق أو الغرب .

---

١ الربا حرمه الفقهاء اجماعاً في حين أن النظريين الزاهريين كابن خزان قد حددوا تحريمه على المبادلة بالربح في الحالات فقط المتعلقة بأنواع خاصة من البضائع ذكرت بوضوح وتحديد في الآيـات المقدسةمثل : الذهب والفضة والقمح والشعير والتمر والملح . (صحيح مسلم ، ج ١ ، ص٤٦٦)
انظر ابن حزم « إحكام » ، جزء ٤ ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .

٢ طبائع الاستبداد ، ص ٦٧ .

٣ طبائع الاستبداد ، ص ٦٨ .

٤ طبائع الاستبداد ، ص ٦٨ — ٧٠ .

« أما السياسيون فلايهمهم إلا أن تستغني الرعية بأي وسيلة كانت . والغربيون منهم يعينون الأمة على الكسب ليشاركوها ، والشرقيون لا يفتكرون في غير سلب الموجود... وان الاستبداد الغربي اذا زال تبدل بحكومة عادلة تقيم ما ساعدت الظروف أن تقيم ، أما الشرقي فيزول ويخلفه استبداد شر منه لأن من دأب الشرقيين أن لا يفتكروا في مستقبل قريب كأن أكبر همهم منصرف الى ما بعد الموت فقط » [1] .

وإن كان رأي الكواكبي الذي يرى به أن الاستبداد الغربي يحبذ اثراء الرعية ، يمكن الاعتراض عليه ، فمن ناحية ، فانه أبدى صراحة فقرة قاسية فيما يختص بالشرقيين . إنه يريد بتلك الفقرة أن يوقظهم من غفوتهم ، وأن يحد من ذلك « التواكل الديني » الذي له أثر في غاية الخطورة على الحياة الاقتصادية . فالمسلم في الواقع لا يهتم كثيراً ، أو اطلاقاً في بعض الاحيان ، بالظروف الاجتماعية التي يعيش فيها ، ويهتم فقط بالامور الدينية وما يتعلق بالحياة الآخرة . ومؤلفنا يرى ان هذا التصرف غير جدير بتحسين مستوى المعيشة لدى إخوانه في الدين ، ويقول ذلك بلا مواربة مشجعاً كل نوع من أنواع النشاط في الميدان الاقتصادي.

ويعطي أمثلة ليثبت بها أن كل عمل نافع للمجتمع محمود ، حتى عمل الكناس ، وانه يجب التخلص من عديم النفع ما لم يكن عاجزاً .

انه بلا شك لكي يشجع الشرقيين على النشاط في الميدان الاقتصادي ، يؤكد ان الثروة لها مزاياها التي تؤهل الشخص لامكان الحصول على صفات ضرورية للامم التي تريد المحافظة على استقلالها . ولكن وجهة النظر الاقتصادية هذه يخفف من حدتها وجهة النظر الروحية ، في أنه يرى أن المغالاة في جمع المال ضارة ، وأنه يجب أن لا يتعدى الانسان في سبيل

---

١ طبائع الاستبداد ، ص ٧٣ – ٧٤ .

الحصول على الثروة ، الوسائل الطبيعية الشريفة .

ويختم مؤلفنا هذا العرض الآراء الاصلاحية في الميدان الاقتصادي ، بذكر فكرة عن « التقدم » عامة وخاصة فضائله في تنظيم المجتمع ، وعن هذا ايضاً يتكلم في « طبائع الاستبداد » .

بالنسبة اليه « التقدم » ليس سوى حركة تصاعدية ، أنه علامة مميزة للحياة بالنسبة للانسان وللمادة ، وحتى للوسائل . ان التطور الدائب للظواهر الطبيعية ، « ذكر في القرآن والسنة » ويدرسه العلماء المعاصرون.[1] قانون التطور هذا صالح أيضاً للأمم ، فاذا ترقت حالة فرد واحد من الأمة ، فمعنى ذلك ان الأمة بأكملها في طريق التقدم ، وهكذا يقيس درجة التقدم لدى الفرد :

« الترقي الحيوي الذي يتدرج فيه الانسان بفطرته وهمته هو:
اولاً ، الترقي في الجسم صحة وتلذذاً .
ثانياً ، الترقي في القوة بالعلم والمال .
ثالثاً ، الترقي في النفس بالخصال والمفاخر .
رابعاً، الترقي بالعائلة استئناساً وتعاوناً .
خامساً ، الترقي بالعشيرة تناصراً عند الطوارىء .
سادساً ، الترقي بالانسانية وهذا منتهى الترقي »[2] .

والقيمة المعنوية لكل ذلك ان تنظيم المجتمع يجب ان يقوم على اساس الاتحاد والتضامن بين الأفراد والأمم . والفوارق في الجنس او الدين ، يجب أن لا تكون عائقاً في سبيل ذلك الاتحاد . ويعطي لذلك مثلاً شعوب

---

١ نجد هنا ميلا من المصلحين الإسلاميين للاهتمام بقوانين التطور والترقي لكي يهيئوا بدقة سطور تطور بلادهم . هذا الاهتمام يزداد باستمرار حتى أن فلاسفة مثل شبلي صوميل وسلامه موسى خصصوا له مؤلفات كاملة .

٢ طبائع الاستبداد ، ص ١١٠ .

أمريكا ، الذين لم يحل تعدد الديانات والمذاهب بينهم دون الاتحاد[1]. ويدعو المسلمين اذن لتحقيق وحدة قائمة على أسس التضامن ورخاء الأمة والوطن والانسانية . ونذكر في الختام فقرتين للمؤلف ، يحدد فيها دور الفرد في الخلايا الاجتماعية والشعور الذي يجب أن يكنه للمجتمع بأكمله :

« وقد يبلغ الترقي في الاستقلال الشخصي مع التركيب بالعائلة والعشيرة أن يعيش الانسان معتبراً نفسه من وجــه غنياً عن العالمين ، ومن وجه عضواً حقيقياً في جسم حي هو العائلة ثم الأمة ثم البشر »[2] .

ثم يضيف بعد ذلك بقليل :

« وأكتفي بالقول في هذا النوع ، إنه يبلغ بالانسان مرتبـة لا يرى لحياته أهمية إلا بعد درجات ، فيهمه أولاً : حيـاة امته ، ثم امتلاك حريته ، ثم أمنه على شرفه ، ثم محافظته على عائلته ، ثم وقايته لحياته ، ثم ماله ، ثم وثم ، وقـد تشمل احساساته عالم الانسانية كله ، كأن قومه البشر لا قبيلته ، ووطنه الأرض لا بلده »[3] .

هذا المبدأ الكبير للروح الاجتماعية ، وللتضامن والاخاء البشري مماثل لما نجده عند الشيخ محمد عبده[4].

---

١ طبائع الاستبداد ، ص ١٢٢ .

٢ طبائع الاستبداد ، ص ١٣٢ .

٣ طبائع الاستبداد ، ص ١٣٣ — ١٣٤ .

٤ راجع ب. ميشيل ، م. عبد الرازق op - cit ص ٥٣

الفصل الرابع

الاصلاحات المقترحة

في الميدان السياسي

رغم أن رئيس مؤتمر « ام القرى » قد اقترح في خطاب الافتتاح، مبدأ عدم تعرض المؤتمر للسياسة، فاننا نلاحظ أن المندوبين كانوا يتساقون الى الاشارة اليها . ولنعترف أنه من الصعب أن نفصل « السياسة » من المسائل الدينية والاجتماعية والادارية وخصوصاً عند التحدث عن البلاد الاسلامية . وبالعكس فان المؤلف قد خصص مؤلفه الآخر كله تقريباً للمشاكل السياسية، كما سبق أن ذكرنا في الفصل الأول من كتابنا هذا، وقد جمعنا من هنا وهناك الآراء الخاصة بالميدان السياسي ، مع إضافة الانتقادات التي يوجهها للنظام الاداري ؛ الذي يعرفه حق المعرفة في الامبراطورية العثمانية ، التي خدمها خلال جزء كبير من حياته . إن كراهيته للأتراك دفعته لمدح صفات العرب . وقد عرض في مرات عديدة مشكلة وحدة المسلمين من وجهتين : فكرية وسياسية . ولذا قد قسمنا هذا الفصل الى أربعة اقسام : النظام السياسي – انتقادات السياسة العثمانية – صفات العرب – وحدة المسلمين .

أ ـ النظام السياسي

في ام القرى لم يتردد مندوب القدس، منذ بدء الجلسة الثانية للمؤتمر، في اعتبار تأخر المسلمين في جميع الميادين ناتجاً عن تدهور النظم السياسية، وألمح بأنه لعلاج هذا الداء، يجب العودة الى نظام سياسي ذي طابع ثوري كالعهود الأولى للاسلام. وها هي الطريقة التي يعبر بها مستعرضاً مراحل هذا التدهور:

«أما عندي فيخيل الي ان سبب الفتور هو تحول نوع السياسة الاسلامية حيث كانت نيابية اشتراكية اي (ديموقراطية) تماماً فصارت بعد الراشدين بسبب تمادي المحاربات الداخلية ملكية مقيدة بقواعد الشرع الاساسية ثم سارت أشبه بالمطلقة. وقد نشأ هذا التحول من أن قواعد الشرع كانت في الدول غير مدونة ولا محررة بسبب اشتغال الصحابة المؤسسين رضي الله عنهم بالفتوحات وتفرقهم في البلاد، فظهر في امر ضبطها خلافات وبيانات بين العلماء وتحكمت فيها آراء الدخلاء فرجحوا الاخذ بما يلائم نزعاتهم الوثنية فاتخذ العمال السياسيون ولا سيما المتطرفون منهم هذا التخالف في الأحكام وسائل الانقسام والاستقلال السياسي فنشأ عن ذلك ان تفرقت المملكة الاسلامية الى طوائف متباينة مذهباً متعادية للسياسة متكافحة على الدوام وهكذا خرج الدين من حضانة أهله وتفرقت كلمة الأمة فطمع بها أعداؤها وصارت معرضة للمحاربات الداخلية والخارجية معاً لا تصادف سوى فترات قليلة لترقى فيها في العلوم والحضارة على حسبها. وقد أثر استمرار الأمة في هذه الحروب أن صارت باعتبار الأكثرية أمة جندية صنعة وأخلاقاً بعيدة عن الفنون والصنائع والكسب بالوجوه الطبيعية ثم بسبب فقدان

القواد والمعدات لم يبق مجال للحروب الراجحة فاقتصرت الأمة على المدافعات خصوصاً منذ قرنين الى الآن أي منذ صارت الجندية عند غيرنا صنعة علمية مفقودة عندنا فصرنا نستعمل بأسنا بيننا فنعيش بالتغالب والتحايل لا بالتعاون والتبادل وهذا شأن يميت الانتباه والنشاط ويولد الخور والفتور »[1] .

فالنظام السياسي اذن هو من أهم المسائل التي تشغل بال مؤلفنا . واننا لنشعر بها خلال جميع مؤلفه كله . انه يضمر كراهية شديدة للاستبداد ، وخاصة في شكله الشرقي، ان « طبائع الاستبداد » بأكملها تقريباً ، قد خصصت لبيان خطورة هذا النظام على جميع القيم ، سواء في الميدان السياسي أو في الميادين الاجتماعية والعائلية والدينية . أن لا يجد اطلاقاً أي مبرر لهذا النظام الذي يصفه كذلك : « الاستبداد هو تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة ولا خوف تبعة »[2] والعرض الطويل لأضرار الاستبداد الذي سبق الإشارة اليه مبني على ملاحظة صحيحة ودلائل واقعية وقوية . ولنذكر مثلاً هذه المقارنة النيرة في بدء فصل « الاستبداد والعلم » :

« ما أشبه المستبد في نسبته الى رعيته بالوصي الخائن القوي يتصرف في أموال الأيتام وأنفسهم كما يهوى ما داموا ضعافاً قاصرين . فكما أنه ليس من صالح الوصي أن يبلغ الأيتام رشدهم كذلك ليس من صالح المستبد أن تتنور الرعية بالعلم»[3].

ويؤيد حكمه هذا على الاستبداد بأدلة دينية أيضاً : اطاعة المسلم طاعة عمياء لسيد هو ضد العقيدة ووحدة الله التي تطلب من المؤمن ألا يعبد

---

١ أم القرى ، ص ٢٥ – ٢٧ .
٢ طبائع الاستبداد ، ص ٧ .
٣ طبائع الاستبداد ، ص ٣٢ .

إلا الله ولا يطيع إلا ما أمر به . وقد قال الله في كتابه الكريم « الا لعنة الله على الظالمين » قرآن كريم ١١ – ١٨ ، « فلا عدوان إلا على الظالمين » قرآن كريم ٢ – ١٩٣ [١] .

أما عن الامراء الطاغين والظالمين فمن المهم أن نذكر فتوى ذكرها مندوب فاس في المؤتمر [٢] وبها أمد عالماً مسلماً ، بناء على استفتاء من السلطان هلاكو (وهو مجوسي) حين فتح بغداد سنة ٦٥٦هـ – ١٢٥٨م، أصدر الفتوى الآتية : « العادل الكافر افضل من المسلم الجائر » .

وقد اشاد مندوب القسطنطينية « الرومي » ، وهو المتحدث باسم المقاومة للطغيان العثماني ، بفضل الحرية :

« وعندي ان البلية فقدنا الحرية ... ولقد عرف الحرية من عرفها بأن يكون الانسان مختاراً في قوله وفعله ... ومنها حرية التعليم وحرية الخطابة والمطبوعات وحرية المباحثات العلمية ومنها العدالة بأسرها حتى لا يخشى انسان من ظالم او غاصب او غدار مختال . ومنها الأمن على الدين والأرواح والأمن على الشرف والأعراض والأمن على العلم واستثماره . فالحرية هي روح الدين ».

ثم يضيف فيما بعد :

« ولا شك ان الحرية أعز شيء على الانسان بعد حياته وان بفقدانها تفقد الآمال وتبطل الاعمال وتموت النفوس وتتعطل الشرائع وتختل القوانين» [٣] .

وفي كتابه عن الاستبداد ، يقود الكواكبي غالباً لتلك الحاجة للحرية

---

١ طبائع الاستبداد ، ص ١٠٠ .

٢ أم القرى ، ص ٣٢ – ٣٣ ، هذه الفتوى ذكرها الكاتب « ابن طباطبا » في « الاداب السلطانية والدولة الإسلامية » والمفتي هنا هو رضي الدين بن طاووس .

٣ أم القرى ، ص ٢٨ – ٢٩ .

التي تبيح للانسان أن يتقدم وأن يحيا حياة سعيدة. ويؤكد خاصة ضرورة الأمن النفسي والمادي، حتى يستطيع ادارة أعماله جيداً. ولكن، هل يوجد في نظر المؤلف حكومات يستطيع المواطن أن ينعم حقيقة في عهدها بهذه الحقوق الثمينة ؟

نعم. اذ أنه يقارن في كل ملاحظاته، الحكم المطلق أو الاستبدادي، «بالحكومات العادلة». ويشير الى ذلك خاصة في خطابه الذي يعد متلاقياً[1]، اذ يقترح على الانسان العاقل الذي يوقظ عبيد المستبد بأن «يحرك قلوبهم ويقذها» ويشير أولاً انه حتى الآن لا توجد أمة واحدة تحكم حسب رغبتها نفسها وحسب، أو أعطيت المثل الكامل للسعادة الأخوية، والحب المتبادل بين المواطنين والمساواة في الحقوق بين الطبقات الاجتماعية.

«نعم وجد الترقي القريب من الكمال بعض أمثال قليلة في القرون الغابرة كالجمهورية النائية للرومان وكعهد الخلفاء الراشدين، وكبعض الجمهوريات الصغيرة والممالك الموفقة لأحكام التقييد الموجود في هذا الزمان وقد بلغ الترقي في الاستقلال الشخصي في ظلال الحكومات العادلة لأن يعيش الانسان المعيشة التي تشبه في بعض الوجوه ما وعدته الأديان لأهل السعادة في الجنان»[2].

ويأتي بعد ذلك وصف مطول للمزايا التي ينعم بها مواطن هذه الحكومات التي تقارب الكمال. ومؤلفنا يطالب بالحاج بتلك التي توفر له الأمان الجسمي والروحي والفكري كما ينادي ايضاً بالواجبات والمسؤوليات التي تقع على عاتقه نحو المجتمع.

«وخلاصة القول ان الأمم التي يسعدها جدها لتبديد استبدادها

---

١ طبائع الاستبداد، ص ١١٣ — ١٣٦.

٢ طبائع الاستبداد، ص ١٣٩ و ١٣٠.

تنال من الشرف الحسي والمعنوي ما لا يخطر على فكر أسياد الاستبداد فهذه بلجيكا أبطلت التكاليف الأميرية برمتها مكتفية بنفقاتها بنماء فوائد بنك الحكومة ، وهذه سويسرا يصادفها كثيراً أن لا يوجد في سجونها محبوس واحد »[1] .

وبعد ان يذكر ضمن الأمم المعاصرة ، اميركا واليابان ، المتميزتين برخائهما المادي وقيمة استكشافاتهما ، يصل الكواكبي الى هذه الخلاصة :

« وانفع ما بلغه الترقي في البشر هو احكامهم اصول الحكومات المنتظمة وبجعلهم بلا قوة ولا نفوذ فوق قوة الشرع ... وبجعلهم قوة التشريع في يد الأمة والأمة لا تجتمع على ضلال[2] ، وبجعلهم المحاكم تحاكم السلطان والصعلوك على السواء .. وبجعلهم العمال لا سبيل لهم على تعدي حدود وظائفهم وبجعلهم الأمة يقظة ساهرة على مراقبة سير حكومتها ، لا تغفل طرفة عين ، وترقي العلم والعمران هو من سنة الكون التي أرادها الله تعالى لهذه الأرض وبنيها »[3] .

وبذا نرى أن مؤلفنا يحبذ ، بصفة قاطعة نظام الحكم التشريعي ذا الصفة الديموقراطية . وخطاب مندوب القدس يبين لنا ذلك بوضوح .

ومن جهة اخرى ، فقد رأينا فيما يختص بنظريته عن الخلافة ، كما في دراسته عن نظم الجمعية التي يود إنشاءها ، الأهمية التي يعطيها لمبدأ « الشورى » التي طبقها الصحابة والخلفاء الراشدون .

وها هي احدى تأكيداته المطابقة ، والتي استمدها من القرآن والسنة:

---

١ طبائع الاستبداد ، ص ١٣٤ .

٢ الاشارة إلى نظرية « الاجماع » واضحة جداً هنا .

٣ طبائع الاستبداد ، ص ١٣٥ — ١٣٦ .

« وقد ظهر مما تقدم أن الاسلامية مؤسسة على أصول حكومة ديموقراطية وشعبية وشورى اوروستقراطية أي شورى أهل الحل والعقد (الأشراف) »[1] .

وبالنسبة اليه ، فالنبلاء هم الحكماء والمثقفون الوحيدون القادرون على قيادة الأمة ونصح الأمير وشعارهم يجب أن يكون : « تجنبوا الشرور » ويؤكد فضلاً عن ذلك أنه توجد في البلاد الحرة المعاصرة ، مجالس نيابية حولت لها السلطة ، وكلفت بالاشراف على ادارة المسائل السياسية ، وهي مستوحاة رأساً من هذا المبدأ ، وتتفق تماماً مع أوامر الله :

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » قرآن كريم ٣ – ١٠٤ » .

وفي بدء كتابه عن الاستبداد ، يحدد أسس الحكومة النيابية الديموقراطية: فصل السلطات التشريعية والتنفيذية . ويقول بخصوص هذا الموضوع إنه من الجائز أن يكون لحكومة هذا النوع طابع استبدادي « ما لم يكن المنفذون مسؤولين لدى المشرعين وهؤلاء مسؤولين لدى الأمة ، تلك الأمة التي تعرف أن تراقب وأن تتقاضى الحساب »[2] . وانه لمن أشد أنصار هذا النظام اذ يختم بذلك :

« ان الحكومة من أي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والاحتساب الذي لا تسامح فيه كما جرى في صدر الاسلام في ما نقم على عثمان ثم علي رضي الله عنهما[3] . ولما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة

---

١ طبائع الاستبداد ، ص ٢٤ .

٢ طبائع الاستبداد ، ص ١١ .

٣ يشير بذلك إلى روح التسامح التي أبداها هذا الخليفة نحو معاوية وأعوانه .

في فرنسا في مسائل النياشين وبناما ودريفوس »[1] .

ورغم هذه الاشارات الى النظم السياسية ، فان الكواكبي لا يعطي حلاً محدداً للنظام الذي يراه . وفي الجزء الأخير من مؤلفه عن الاستبداد فهو يكتفي بأن يؤكد أن المجتمع الانساني وصل الى درجة تجعل مشكلة اختبار نوع الحكم من أهم المسائل بالنسبة اليه ويضيف أن الغربيين قد وصلوا بالابتكارات والخبرة أن يكونوا نظاماً سياسياً ، موتكزاً على القانون الحق ، رغم قبولها أحزاباً سياسية تختلف وجهة نظرها في تطبيق المبادىء المتفق عليها . ورأيه أن جميع هذه القواعد لا زالت مجهولة من الشرقيين ، وتتعدى حتّى حدود فهم البعض منهم . ويقارن النظام السياسي الغربي ذا الطابع الديموقراطي بالنظام الاستبدادي الذي يتركز فقط على القوة والطغيان ، حتّى ولو ادعى في بعض الأحيان اعتماده على مبادىء يقصد بها الصالح العام .

ولكي يسجل المؤلف هذا التعارض بين النظامين ، فقد عرض على القراء لبحثها ، ٢٥ سؤالاً خاصاً بالحياة السياسية[2] . والأجوبة على هذه الاسئلة يمكنها أن تصلح اساساً للتشريع . والكواكبي لا يبدي رأيه بصفة قاطعة ولكن بطريقة عرض الموضوع وما سبق أن عرفناه من آرائه يجعل الجواب مما لا يحتمله الشك . ففي كل مرة يطلب من القارىء الاختيار بين وجهة نظر النظام الديكتاتوري والنظام الديموقراطي في مسألة سياسية معينة . سوف لا نذكر منها هنا سوى الاسئلة نفسها ، ما عدا البعض الذي سوف نذكر بخصوصها وجهتي النظر المتعارضتين ، عندما نرى أن في هذه المواجهة أهمية خاصة للقارىء او يتأتى منها فكرة جديدة .

---

١ طبائع الاستبداد ، ص ١١ . مؤلفنا يوجه مدحاً مباشراً للجمهورية الفرنسية الثالثة باعترافه لها بهذه المسائل التاريخية الثلاث مما يبين انه لا ينقصه بعد النظر والحماس .

٢ طبائع الاستبداد ، ص ١٣١ — ١٤٥ .

١ — ما هي الأمة أي الشعب ؟ [1]

٢ — ما هي الحكومة ؟ [2]

٣ — ما هي الحقوق العمومية ؟ (فيما يختص بالضمانات المادية والأدبية للاشخاص) .

٤ — التساوي في الحقوق . هل للحكومة التصرف في الحقوق العامة المادية والأدبية كما تشاء بذلاً وحرماناً ؟

٥ — الحقوق الشخصية . هل الحكومة تملك السيطرة على الأعمال والأفكار (للمواطنين) ؟

٦ — نوع الحكومة . ما هو الأصلح ؟ [3]

٧ — ما هي وظائف الحكومة ؟ هل هي ادارة شئون الأمة حسب الرأي والاجتهاد ، أم تكون مقيدة بقانون موافق لرغائب الأمة ،

٨ — حقوق الحاكمية . هل للحكومة أن تخصص بنفسها لنفسها ما تشاء أم يكون التصرف في ذلك منوطاً بالأمة ؟

٩ — طاعة الأمة للحكومة . هل للحكومة تكليف الأمة طاعة عمياء أم عليها الاعتناء بوسائل التفهيم والاذعان ؟

١٠ — توزيع التكليفات . هل يكون وضع الضرائب مفوضاً لرأي الحكومات ، أم الأمة تقرر النفقات اللازمة وتعين موارد المال ؟

١١ — أعداد المنعة . هل يكون اعداد القوة بالتجنيد والتسليح ... مفوضاً لارادة الحكومة ... أم يلزم أن يكون ذلك برأي الأمة وتحت أمرها ؟

١٢ — المراقبة على الحكومة . هل تكون الحكومة لا تسأل عما تفعل ،

---

١ عبيد أو مجتمع يضم أفراداً تربطهم صلات قوية ؟

٢ شخص ومعاونوه يتصرفون كما يليق لهم أو التمثيل السياسي للأمة ؟

٣ الكواكبي يذكر هنا جميع أنواع رؤساء الحكومات ويتساءل هل يجب أن تكون هناك شروط منظمة لهذه الوظيفة وما هي ؟

أم يكون للأمة حق السيطرة عليها ؟[1]

١٣ — حفظ الأمن العام . هل يكون الشخص مكلفاً بحراسة نفسه ومتعلقاته أم تكون الحكومة مكلفة بحراسته ؟

١٤ — حفظ السلطة في القانون . هل للحكومة إيقاع عمل اكراهي على الأفراد برأيها أي بدون الوسائل القانونية أم تكون السلطة منحصرة في القانون إلا في ظروف مخصوصة ومؤقتة ؟[2]

١٥ — تأمين العدالة القضائية . هل يكون العدل ما تراه الحكومة أم ما يراه القضاة ؟[3]

١٦ — حفظ الدين والآداب . هل تكون للحكومة ... أم تقتصر وظيفتها في حفظ الجامعات الكبرى كالدين ، والجنسية ، واللغة والعادات العمومية ، ما غفلت عن الزواجر ولا تتداخل الحكومة في أمر الدين ما لم تنتهك حرمته ؟[4]

١٧ — تعيين الأعمال بقوانين . هل يكون في الحكومة ، من الحاكم الى البوليس من يطلق له العنان للتصرف برأيه وخبرته ، ام

---

١ هذه المراقبة كما يقول المؤلف ، يجب أن تكون بواسطة النواب الذين لهم حق الاشراف على كل شيء .

٢ لنلاحظ أن فكرة المؤلف غير واضحة اذ أنه يرى لبعض الحالات تحفظات للمبادئ الاصلية التي يعرضها والتي يتراءى انه شديد التعلق بها .

٣ القضاة كما يقول المؤلف يجب ألا يصيبهم أي ضغط حتى ولو من الرأي العام .

٤ الطريقة التي وضع بها هذا السؤال تثبت جيداً الرغبة الموجودة لدى مؤلفنا لفصل الروحيات عن الماديات والتي تكلمنا عنها بخصوص « الخلافة » . أليس ذلك هو مبدأ الدولة المدنية الذي يتقدم بخطوات واسعة في أوروبا وابتداء ان ترى النور في الشرق كما نراه هنا وبمولد حركة حزب تركيا الفتاة

يلزم تعيين الوظائف كلياتها وجزئياتها بقوانين صريحة واضحة لا تسوغ مخالفاتها ولو لمصلحته مهمة الا في حالات الخطر الكبير [1] ؟

١٨ — كيف توضع القوانين ؟ هل يكون وضعها منوطاً برأي الحاكم الأكبر أو رأي جماعة ينتخبهم لذلك أم يضع القوانين جمع منتخب من قبل الكافة [2] ؟

١٩ — ما هو القانون وقوته ؟ هل القانون هو احكام يحتج بها القوي على الضعيف ان هو احكام منتزعة من روابط الناس بعضهم ببعض ؟

٢٠ — توزيع الأعمال والوظائف . هل يكون الحظ في ذلك مخصوصاً بأقارب الحاكم وعشيرته ومقربيه، أم توزع كتوزيع الحقوق العامة على كافة القبائل والفصائل ولو مناوبة مع ملاحظة الأهمية الاجباري ؟

٢١ — التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم هل يجمع بين سلطتين او ثلاث في شخص واحد أم تخصص كل وظيفة من السياسة والدين والتعليم بمن يقوم بها باتقان .. ولذلك لا يجوز الجمع منعاً لاستفحال السلطة ؟

٢٢ — الترقي في العلوم والمعارف . هل يترك للحكومة صلاحية الضغط على العقول كي لا يقوى نفوذ الأمة عليها ، أم تحمل على توسيع المعارف بجعل التعليم الابتدائي عمومياً بالتشويق أو الاجبار ويجعل الكمالي منه سهلاً للمتناول وجعل التعليم والتعلم حراً

---

١ راجع المذكرة رقم ٢ ، ص ٨٩ .

٢ ان المؤلف يفضل تماماً هذا الحل وآخر الفقرة تؤكده .

مطلقاً ؟ [1]

٢٣ — التوسع في الزراعة والصنائع والتجارة . هل يترك ذلك للنشاط المفقود (حالياً) في الأمة ، أم تلزم الحكومة بالاجتهاد في تسهيل مضاهاة الأمم السائرة ؟

٢٤ — السعي في العمران هل يترك ذلك لاهمال الحكومة المميت لعزة نفس السكان أو لانهماكها فيه اسرافاً وتبذيراً ، أم تحمل على اتباع الاعتدال المتناسب مع الثروة العمومية ؟ [2]

٢٥ — السعي في رفع الاستبداد . هل ينتظر ذلك من الحكومة ذاتها أم نوال الحرية ورفع الاستبداد رفعاً لا يترك مجالاً لعودته من وظيفة عقلاء الأمة وسراتها ؟

ومن الخمس والعشرين سؤالاً الذين يعرضهم للتفكير أمام الكتاب ونخبة القوم، طالباً منهم أن يبحثوا لكل منها عن أنسب الحلول لظروف كل بلد ، فان الكواكبي يكتفي فقط بأن يعالج خاصة السؤال الاخير منها ، أي « السعي في رفع الاستبداد » والواقع أنه في نظره هو أهم الموضوعات المطلوب إيجاد حل لها ولذلك يذكر ثلاثة مبادىء شارحاً إياها نلخصها بالآتي :

« المبدأ الاول : الامة التي لا يشعر كلها او اكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية » [3] .

---

١ يظهر أن مؤلفنا في هذه النقطة تحت تأثير مباشر للشعور الفرنسي الذي نفذته فرنسا بضع سنوات قبل ذلك تحت قيادة «جون فيري» وهو تعليم ابتدائي مدني مجاني واجباري —سنة١٨٨٢— فضلا عن أن الشعور أيضاً بالنفوذ المتزايد للعلوم التي عن طريق التقدم المذهل الذي حققته أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والذي حاز نفوذاً لا يمكن انكاره وتأثيراً كبيراً على الافكار « ان المواد العلمية وقد تأثرت تأثيراً كبيراً على الطبقة المثقفة في الشرق وبصفة خاصة أولئك المتطلعون المتقدمون أمثال مؤلفنا » .

٢ نرى هنا انه مناصر لتحويل معتدل ولكنه حازم وبدون مظاهر .

٣ طبائع الاستبداد ، ص ١٤٦ .

والواقع أن الامة التي ضربت عليها الذلة والمسكنة بالاستبداد تكتفي فقط بطلب مستبد آخر يعطيها ، ولو مؤقتاً ، قليلاً من الحرية ولكنه لن يتوانى في أن يحيقها باستبداد أشد نكبة .

المبدأ الثاني : الاستبداد لا يقاوم بالشدة انما يقاوم باللين والتدرج . وان الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هي ترقي الامة في الادراك والاحساس ، وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم والتحميس [1] .

ويحيط المستبد نفسه دائماً بكل انواع القوات المدافعة التي تبعد عنه الجماهير . إلا عقب حوادث خطيرة [2] تكون ثورة الشعب فيها عليه من الصعب ايقافها . ومن المستحسن الابتعاد عن الثورات الشعبية لخطورتها الجسيمة على الشعب ورؤساء التمرد ، إذ أن المستبد ومساعديه يفعلون المستحيل لمنع حصول مثل هذه الحوادث ، فان اراد له احدهم التهلكة فانه يعمل على اشعال احداها .

« لهذا يقال ان رئيس وزراء المستبد او رئيس قواده ، او رئيس الدين عنده هم اقدر الناس على الإيقاع به وهو يداريهم تحذراً من ذلك ، واذا اراد إسقاط احدهم فلا يوقعه إلا بغتة » [3] .

« المبدأ الثالث : يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ما سيستبدل به الاستبداد » [4] .

ان تحديد الغرض بصورة واضحة كرأي الأغلبية العظمى للأمة (أكثر

---

١ طبائع الاستبداد ، ص ١٤٧ .

٢ المؤلف يذكر ثماني حالات يكون فيها استغلال فأحسن للسلطة أو كوارث خطيرة للبلاد كمجاعة عامة مثلا أو كارثة حربية مشينة .

٣ طبائع الاستبداد ، ص ١٤٩ و ١٥٠ .

٤ طبائع الاستبداد ، ص ١٥٠ .

من ثلاثة أرباع) هو شرط أساسي لنجاح الصراع ضد الاستبداد . ويجب أن يشترك الجميع باخلاص في هذا الغرض حتى تنتشر الفكرة في كل مكان . وانه من الضروري قبل كل شيء تحديد نوع الحكومة المرغوب قيامها بعد الاستبداد . هذا ليس بالأمر الهين ، اذ ان هذا التحديد النظري هو من اشق الامور ، ويجب الا يكلف به نخبة القوم فقط بل جميع الطبقات الاجتماعية التي تشعر بوطأة الاستبداد ، وان يكون الدستور القادم قد نضج في الأذهان خلال أعوام وصمم على المناداة بالحرية.

فاذا ما شعر المستبد بالخطر وقف على أشد حذره وازداد تنكيلاً ، حتى تتهيأ او تمهد فرصة اطاحته ، وفي هذا الوقت تكون الأمة قادرة على ان تحكم نفسها بنفسها وتجبر المستبد على تغيير نظام حكمه واستبداله بذلك الذي مهدت لنجاحه . وفي هذه الحالة ينحني المستبد لرغباتها راضياً أو مضطراً .

كيف لا يمكن الاعتراف ببعض النصر في هذه الاعتبارات العامة والفكر الواقعي ، الذي يبين به مؤلفنا الصعوبات التي تعترض الشعوب التي ترزح تحت نير الاستبداد ، والتي ترغب في القضاء عليه ؟ ان اعلان هذه المبادىء الثلاثة ، توضح ما لدى مؤلفنا من ذهن مدقق مصحوب بالاعتدال والتفكير وبعد النظر . ما من لحظة خلال. هذا التحليل الأخير بعدت عن ذهنه الحقيقة المرة وانه وان كان يرجو عون الله ، فلم يكن ذلك سوى في الخاتمة عندما يدعو المستعبد للثقة بالله والرجل المفكر لا ييأس من رحمته .

وفضلاً عن انه يعتقد أن الأمم المتهاونة أو التي وضعت تحت الحماية الاجنبية هي المسؤولة عما حاق بها ، لأنها لم تستطع حكم نفسها بنفسها كما يجب وهذا ما يقوله في هذا الموضوع كخاتمة لكتابه عن الاستبداد المليء بالمعرفة .

« ونتيجة البحث أن الله جلت حكمته قد جعل الأمم مسؤولة

عن أعمال من تحكمه عليها ، وهذا حق فاذا لم تحسن أمـــة سياسة نفسها أذلها الله لأمة أخرى تحكمها كما تفعل الشرائع باقامة القيم على القاصر أو السفيه ، وهكذا لا يظلم ربك احداً انما هو الانسان يظلم نفسه» [1].

هذا النداء للعمل ونبذ التواكل لا يوجه هذه المرة الى الفرد كما سبق ورأينا بخصوص « الفكر والمجتمع » ، وبخصوص « الحماية الاقتصادية والتقدم » ، ولكن الى الأمة بأجمعها التي يعتبرها المسؤولة عن مصيرها. والكواكبي يبدي رأياً مشابهاً بلسان الأمير الهندي ، الذي أعلن أن المسلمين لم يظهروا تذمراً من الأمم التي تحتل بلادهم ،كما حدث في عدن وتونس والقاهرة .

« بل يعتبرون دخولهم تحت سلطة غيرهم من حكم الله لأنهم يذعنون بكلمة ربهـــم تعالى شأنه (تلك الأيام تداولها بين الناس) » .

ويظهر هنا أن مؤلفنا يجيز أن يحكم المسلمون شعوب اخرى ، ويرى انه اذا كانت تلك هي مشيئة الله فما ذلك الا لأن المسلمين لا يستحقون ان يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، وأنهم نتيجة ذلك مسؤولون هنا عن الوضع. ويمكننا هنا ان نضيف الفتوى التي سبق أن ذكرناها [5] .

ب — انتقاد السياسة العثمانية

يقول الامير الهندي، الذي سبقت الاشارة اليه بخصوص وقوع بعض

---

١ طبائع الاستبداد ، ص ١٥٢ .
٢ أم القرى ، ص ٢١٥ .

الامم الاسلامية تحت سيطرة البـلاد الاجنبية ، بأن اغلب هذه المسئولية تقع على عاتق السلاطين العثمانيين بسبب سياستهم العقيمة . ان هؤلاء لم يهملوا فقط المحافظة على الدين[1] ولكنهم تركوا الاجزاء المتاخمة للامبراطورية لمصيرها : الاندلس ، الهند ، امارات آسيا (واغلبها للروس) والاراضي الاسلامية في افريقيا والصين .

« أليس الترك قد تركوا وفود الملتحين يعودون خائبين وتركوا المستنصرين بهم عرضة للمنتقمين وتركوا تلثي ملكهم طعمـة للمتغلبين [2] .

انه يعتب عليهم اهتمامهم فقط بتقوية نفوذهم المظهري وسلطـاتهم وتجاهلوا مصلحة الاسلام والشعب . وعلى ذلك فقدت سلالة العثمانيين ثقة المسلمين . والحـل الذي يراه الامير ، والذي يتفق مع مبدأه الذي سبق شرحه عن الخلافة ، هو ان العثمانيين سوف يقوى مركزهم السياسي حثيثاً اذا ما قبلوا ، بالاشتراك مع الامراء المسلمين الآخريـن ، تعيين خليفة قرشي تكون له السلطة الروحية على جميع المسلمين ، ولكل امير ان يحتفظ باستقلاله السياسي داخل حدود بلاده . وهؤلاء سوف يقوى نفوذهم وتكبر هيبتهم بين المسلمين ، وخـاصة السلاطـين العثمانيين الذين بهذا التصرف يعطون الدليل على معاضدتهم لاولئك الذين يقـدرون على اعادة الازدهار الديني .

ولكن العثمانيين لم يستطيعوا فهم ذلك ، ورغم اخطائهم في الميدانين السياسي والديني ، فقد كدسوا الاخطاء في الميدان الاداري . والكواكبي يعطي قائمة مريرة ولكنها صحيحة، لاسباب تدهور السياسة والادارة في

---

١ وذلك رغم صفتهم القديمة « بخدمة الحرمين » ولقبهم الحديث « الخليفة » ، أم القرى ، ص ٢٠١ و ٢٠٤ .

٢ أم القرى ، ص ٢١١ .

الامبرطورية العثمانية ، وذلك خلال حديثه الطويل في المؤتمر :

« والاسباب التي سأذكرها هي اصول موارد الخلل في السياسة والادارة الجاريتين في المملكة العثمانية التي هي اعظم دولة يهم شأنها عامة المسلمين . وقد جاءها اكثر هذا الخلل في الستين سنة الاخيرة التي ضاع فيها ثلثا المملكة وخرب الثلث الباقي واشرف على الضياع لفقد الرجال وصرف حضرة السلطان قوة سلطنته كلها في سبيل حفظ ذاته الشريفة وسبيل الاصرار على سياسة الانفراد »[1] .

ويحصي مؤلفنا واحداً وعشرين سبباً[2] يمكن تلخيصها في اربع نقاط ، وطريقة ذكر كل منهم تحتوي ضمناً على الحل الذي يمكن به علاج الداء المكتشف ، وها هي .

النقطة الأولى — القوانين : توحيد القوانين الادارية والعقوبات والقضائية ، على الشعوب ذات الطبائع والعادات الشديدة الاختلاف ، واتباع وسائل مخالفة للقوانين السماوية ورغبات الرعايا ، بدون تبرير أسباب ذلك للأمة .

النقطة الثانية — الادارة : وتركيز اداري شديد حتى ان رؤساء الخدمات يقيمون في العاصمة ويجهلون ظروف الحياة في المناطق المجاورة للامبراطورية . وقد نتج عن ذلك عدم تحمل هؤلاء الرؤساء أية مسؤولية وكذلك الحكام ، وعدم وجود تناسق في تصرفاتهم ووسائلهم مما لا يتأتى عنه سوى الفوضى والتذمر . والادارة المالية تعمل بلا اشراف وتلك الخاصة بالخدمات الحكومية مبنية على التلفيق والضغط واجبار الاشخاص ، الذين يستطيعون الكشف عن هذه الأخطاء ، على السكوت عليها[3] . وتلك

---

١ أم القرى ، ص ١٤٦ .

٢ أم القرى ، ص ١٤٣ — ١٤٨ .

٣ اشارة مباشرة إلى الضغط الذي قامت به الحكومة العثمانية عليه وقد كان يشغل لديها مناصب عدة في حلب .

الخاصة بالشؤون الخارجية ، توزع المكافآت والامتيازات للمجاورين ، مقابل تعاميهم عن المشاهد المؤلمة التخريبية التي ترتكبها ، وهذه الأسباب هي التي تعطي للأجانب فرص السيطرة .

النقطة الثالثة — الموظفون المسؤولون : وهم يختارون من غير الأكفاء « وخاصة امارات مكة والحجاز والعراق والفرات » ، حتى يكونوا مكروهين لدى مرؤوسيهم فلا يحاولون التآمر معهم ضد الدولة . مبدأ التفرقة هذا مطبق على جميع الوظائف العليا ، والدينية والعسكرية ، وحتى في المراكز التي تحت إمرتها تعيين الحكام والمسؤولين بلا اشراف وبعدد ضخم ، وذلك فقط ليستطيعوا ارزاق تابعيهم . وأن أسافل الأشخاص قد أعطوا سلطة ، يتحكمون بها في بعض الأحيان ، على أشخاص من ذوي الكفاءات . وأن هذا الاحتقار للأكفاء لما يشين الادارة وممثليها .

النقطة الرابعة — المحكمون : لا يستشارون اطلاقاً ، والقرارات التي تتخذ تناقض في الغالب عوائدهم وطباعهم ومصالحهم . وذو الأفكار المتنيرة هم في الغالب ضحايا ارهاب بقصد منعهم من التطور ومعارضة وانتقاد نظم الحكم الادارية . الامتيازات والمكافآت التي توهب بلا سبب معقول ، وغالباً الى أسافل الناس ، وذلك كله رغم مصالح الدولة . وفي النهاية يسود الاختلاف الشاسع في تقدير الضرائب على طبقات الرعية . والتفرقة العنصرية يئن منها خاصة العرب ، الذين يباعدونهم مثلاً عن وظائف الدولة ، وعدم توزيع لوازم المعيشة عليهم بمعرفة الخزانة العامة .

هذه الانتقادات هي التي يمكن توجيهها للادارة في عهد الحكومة المستبدة الضعيفة التي انحدرت في هاوية المحسوبية والمغالاة . ولكن ما يمثل منتهى الخطورة في نظر مؤلفنا ، هو ذلك الخلاف في العوائد والمشارب بين الحكومة ورعاياها . اذ انه يعتقد وهو على تمام الحق ، انه بدون هذا الانسجام لا توجد السعادة .

« ومما لا خلاف فيه ان من أهم حكمة الحكومات ان تتخلق

بأخلاق الرعية وتتحد معها في عوائدها ومشاربهـــا ولو في العوائد الغير مستحسنة في ذاتها [1] .

ويقول المؤلف بعد أن ذكر أمثلة عديدة، اتخذها من الماضي[2] وحتى من حاضر الحكومات اسلامية أو غير اسلامية ، والتي تخلقت بأخـــلاق الرعية .

« فلم يشذ في هذا الباب غير المغول والاتراك أي العثمانيـــين فانهم بالعكس يفتخرون بمحافظتهم على غيريـــة رعاياهم لهم (العرب) والمتأخرون منهم قبلوا أن يتفرنسوا أو يتأطنوا ولا يعقل لذلك سبب غير شديد بغضهم للعرب كما يستدل عليه من اقوالهم التي تجري عليهم وعلى ألسنتهم مجرى الأمثال في حق العرب » [3] .

وبذا نرى أن الكواكبي ينحاز للعرب في هذا الخلاف العنصري ذي المظهر السياسي .

ج ــ صفات العرب

يعتبر المؤلف أن العرب وحدهم ، من بين جميع المسلمين ، هم القادرون على تحقيق هذا الازدهار الديني الضروري « للوحدة الروحية » للمؤمنين في العالم كله . هذا بلا شك هو أحد الأسباب الهامة التي تدعو لأن يكون الخليفة من قبيلة قريش . ولكن ذلك لا يكفي . فالكواكبي يريد محو التعصب السياسي والعنصري ولكي يظهر أمام أعين الجميع كقاض غير

---

١ أم القرى ، ص ١٥٠ .

٢ وغالباً ما يذكر الكواكبي أمثلة مستمدة من التاريخ . وذلك لأنه درس تلك المادة دراسة عميقة وخاصة تاريخ الامبراطورية العثمانية .

٣ أم القرى ، ص ١٥٠ .

منحاز ويحصل من المؤتمر على قرار « بأفضلية شبه جزيرة العرب وأهلها » من الوجهة الدينية . ولكي يبرر هذا التفضيل الذي بذله المؤتمر فقد قدم ستة وعشرين دليلاً .

ان الآمال المعقودة على شبه الجزيرة نفسها ، قد اوضحت بسبع حجج أكثرها أهمية يختص : دورها في الميدان الديني (مهد الاسلام) ، فهي تضم الأرض الطاهرة والمباني المقدسة ، وموقعها الجغرافي (بلد منعزل وفي نفس الوقت في قلب العالم الاسلامي) ، وأخيراً فقره الطبيعي الذي جعل منه بلداً مستقلاً اذ انه غير مطموع فيه [1] .

كما أن الحجج التي في صالح العرب أنفسهم ، فالمؤلف يذكر تسع عشرة حجة تعطي صورة مجسمة الى : تشبثهم الطبيعي بالأمور الدينية ، وصفاتهم الخلقية (نبل التصرف ، الرجولة ، الضيافة ، الكرم) ، ومبادئهم السامية في الميدان السياسي (احترام المعاهدات ، وحب الحرية ، واحترام المساواة في الحقوق ، وميل واضح الى « الشورى » في المسائل السياسية) وأخيراً صفات لغتهم (غناء ونجاح غير منكور) [2] .

واننا لمضطرون للاعتراف بوجود شبه مغالاة في تعديد هذه المجموعة الأخيرة من الصفات . الا انه ما من شك في ان العرب ، وخاصة أهل شبه الجزيرة ، بقوا حتى اواخر القرن التاسع عشر شعباً ذا حياة بدائية ، محتفظاً بصفات عالية طبيعية وفي مأمن من النفوذ الاجنبي ، وشديد التعلق بديانته وبعاداته وباستقلاله . وبمناسبة هذا الموضوع ، يمكننا أن نذكر المقاومة الرهيبة ، وخصوصاً في اليمن ، في معارضتهم للتدخل التركي ، أما فيما يختص بالأدلة الخاصة بشبه الجزيرة ، فهي حقيقية ، ولو على الاقل في الوقت الذي كتب فيه الكواكبي ذلك ، حيث أنه منذ اكتشاف منابع البترول في باطن أراضيها أصبحت عرضة كبيرة للأطماع .

---

١ أم القرى ، ص ٩٣ – ١٩٤ .

٢ أم القرى ، ص ١٩٤ ، ١٩٧ .

د ـ وحدة المسلمين

ان المشكلة التي تشغل بال مؤلفنا قبل كل شيء ، هي « الازدهار الديني » للبلاد الاسلامية . انها المهمة الاولى التي يطالب بها المؤتمر وكذلك الجمعية التي يود تأسيسها . وقد سبق ان رأينا انه لكي يقوم بهذه المهمة خير قيام ، فانه يعتمد على العرب ، وأيضاً على العلماء ، وذوي الافكار النيرة الموجودين بين المسلمين . لكن غرضه الحقيقي هو ان يبني ، بفضل هذا الازدهار ، « الوحدة الدينية والروحية للمسلمين في العالم اجمع » ، مقواة ومثبتـــه بخليفة ذي سلطة روحية ، متسعة حقاً ؛ ولكنها تحت الاشراف . انه يرى أبعد من ذلك ، اذ يذهب الى حد ان يقترح ، وبطريق غير محدد حقاً ، الوحدة السياسية للبلاد الاسلامية . انه لا يصرح بذلك علانية ، ولكنه يبين ضمناً رأيه في فقرة يتبين منها ذلك ، اذ يعطي الى كل من هذه الامم دوراً في الجامعة المستقبلة . فضلاً عن انه قرار اتخذه المؤتمر في آخر وقت وقد أظهره المؤلف في ملحق لمحضر الجلسات . ورغم انه قد اتخذت قرارات اخرى ، لكنها بقيت سرية وهذه هي الفقرة :

« ان الجمعيـــة بعد البحث الدقيق والنظر العميق في احوال وخصال جميع الاقوام المسلمين الموجودين وخصائص مواقعهم والظروف المحيطة بهم واستعداداتهم وجدت ان لجزيرة العرب ولأهلها بالنظر الى السياسة الدينية مجموعة خصائص وخصال لم تتوفر في غيرهم وبناء عليه رأت الجمعية ان حفظ الحياة الدينية متعينة عليهم لا يقوم فيها مقامهم غيرهم مطلقاً وان انتظار ذلك من غيرهم عبث محض على ان لبقية الاقوام ايضاً خصائص ومزايا تجعل لكل منهم مقاماً مهماً في بعض

وظائف الجامعة الاسلامية [1] مثل ان معاناة حفظ الحياة السياسية ولا سيما الخارجية تتعين على الترك العثمانيين [2] ومراقبة حفظ الحياة المدنية التنظيمية يليق ان يناط بالمصريين والقيام بمهام الحياة الجندية يناسب ان يتكفل بها الافغان وتركستان والخزر والقوقاس يميناً وامارات افريقيا شمالاً وتدبير حفظ الحياة العلمية والاقتصادية خير من يتولاهـا ايران واواسط آسيا والهند وما يليها [3] .

وبخلاف ادارة الشئون الدينية التي كلف بها العرب ، اختيار تبرره الدلائل الطويلة التي ذكرناهـا ، فالمؤلف لا يعطينا اي تحديد للاسباب التي دعته لاختيار هذه او تلك من الامم لتقوم بادارة احدى وزارات الاتحاد الاسلامي الذي يزمع تكوينه . اننا نعلم ان جمال الدين الافغاني كان بطل هذا الاتحاد الاسلامي ، ولكن نداءاته الثورية كان الغرض منها صحوة القلوب ، وبث ما امكن من الآراء الحديثة في العقول . والكواكبي هو اول من نادى ، وبتحديد كما نرى ، باتحاد الامم الاسلامية بطريقة فعلية . وحقاً انه لم يبرر سوى جزئياً طرق هذا الاتحاد الحديث ذي الطابع الفيدرالي .

انه يشعر فعلاً ان توزيعه لهذه المهام ما هو الا شكلي ، وانه يعتمد خاصة لتحقيق « الاتحاد الفكري والروحي للبلاد الاسلامية » على « الخلافة » كما يراها ، وعلى « الجمعية » التي يريد إنشاءها . وامانيه من الوجهة

---

١ فكرة الوحدة الإسلامية ذكرت هنا بوضوح في حين أن « جاسبرونكي » كان يعارضها بعد سنوات عديدة تالية لاعتبارها في منتهى الجرأة ولا يرغب ارهاب الأوروبيين .

٢ المؤلف يوضح في مذكرة « لأنهم متقنون في فن (الدبلوماسية) أي المراوغة » في المقال والتلون في الأحوال .

٣ أم القرى ، ص ١٩٢ و ١٩٣ .

السياسية تنحصر فقط في ان يترك الامراء خـــلافاتهم ، وأن يحتفظوا باستقلالهم ، وينشئوا بينهم علاقات من التآزر والاتحاد [1] . والكواكبي يطالب بأن يقوم أولاً هذا الاتحاد بين الامارات العربية اذا انه دائم الاهتمام أولاً بالمحافظة على الدين . وأخيراً حسب قوله ان الاتحاد الفكري والروحي ، متى قام وتدعم بخليفـــة ورحى ، فأنه يسمح للحكومات الاسلامية الا تنشغل بالجو النفساني للشعوب ، وان تركز ، كل جهودها في التقدم الفني والحضارة والرخاء والقوى المادية [2] .

هذا « الاتحاد الروحي على أساس ديني » والذي يمكن ان يتولد منه فيما بعد اتحاد سياسي لا يصبح سبباً في قلق البلاد الاوروبية والمسيحية . ويعرض هذه المشكلة علناً ، ويحاول ان يبين ان المعارضة التي قد تنجم عن ذلك لا يجيز لها المنطق أي وجه من الحق . ويثير المندوب الهندي هذه المسألة موجهاً حديثه الى أمير بلاده المزعوم بهذه الكلمات :

« والغالب ان الدول المسيحية التي لها رعايا من المسلمين أو المجاورة للمسلمين تتحذر من ان يجر جمع الكلمة الدينية الى رابطة سياسية تولد حروباً دينية فتعمد هذه الدول الى عمل الدسائس والوسائل لمنع حصول هذا الارتباط أساساً . فما هو التدبير الذي يقتضي اتخاذه امام تحذر الدول ما يأتي وذلك [3] » .

وها هي دلائل الامير التي هي في الواقع لمؤلفنا :

« لا يفتكر هـــذا الفكر غير الفاتكان واحزابه والجزويت وأمثالهم أما رجال السياسة في انجلترا وروسيا وفرنسا وهي الدول العظام التي يهمها الافتكار في هذا الشأن فقد علمتهم

---

١ أليست هذه فكرة « الجامعة العربية » التي بدئ في التمهيد لها هنا ؟ ربما .

٢ جميع هذه الآراء ذكرها المؤلف بلا ترتيب انظر خاصة أم القرى ، ص ٢٠٧ و ٢١٠ .

٣ أم القرى ، ص ٢١٢ .

التجارب النتائج الآتية وهي :

١ — ان المسلمين لا ينتصرون ابداً لا سيما في زمن يبتعد فيه النصارى عن نصرانيتهم .

٢ — ان المسلمين المتنورين افراداً وجموعاً ابعد عن الفتن من الجاهلين .

٣ — ان العرب من المسلمين اقرب من غيرهم للألفة وحسن المعاملة والثبات على العهد [١] .

ويضيف ان رجال السياسة الاوروبية يمكنهم ان يتأكدوا من ذلك اذا ما اطلعوا على مبادىء الاسلام ، فيما يختص بمسألة « الجهاد » الذي يخيفهم وفي ترجمة القرآن التي لديهم . لقد رأينا في الواقع ، أن وجهة نظر مؤلفنا في الجهاد تعتمد على آيات قرآنية : لا ايمان بالقوة ، وان معنى كلمة الجهاد ليست اطلاقاً قتال غير المسلمين ، وانما هي الجهاد الروحي ضد مصاعب الحياة .

« ثم يعطف نظرهم الى التاريخ يجدون (هؤلاء السياسيين) ان العرب منذ سبعة قرون لم يأتوا حرباً باسم الجهاد [٢] » .

ويقول انه فيما يختص بالاتراك ، فان في امكان الاخصائيين الاوروبيين ان يدركوا بسهولة ، انهم استغلوا الدين في سبيل اطماعهم السياسية ولوحوا بلقب الخليفة كغشاء على أعين أوروبا . أما عن العرب ، فقد تنصلوا من السياسة التركية وخاصة بعدم اشتراكهم في المجازر الاخيرة للأرمن ، اذ ان الاسلام والقرآن الذين يدينون به ضد القسوة . والافضل

---

١ أم القرى ، ص ٢١٣ .

٢ أم القرى ، ص ٢١٤ ؛ انه يعطي أمثلة عديدة تعطي الشك في صحة هذاالتأكيد ويبين انها ليست اطلاقاً حروباً دينية ، خاصة ، الاحتلال التركي الذي وقع على شرق أوروبا فقد وقع أيضاً على بلاد اسلامية فلم يكن له غرض سوى الغزو .

« قد يندهش الاوروبيون اذا علموا ان السياسة التركية لم يوافقها ان تترجم القرآن الى اللغة التركية الى الآن [١] » .

وقد أوضح معتمداً ايضاً على التاريخ ، ان الاسلام يلزم المسلمين بالتفاهم مع الشعوب الاخرى ، حتى ان العرب « اينما حلوا البلاد جذبوا اهلها بحسن القدوة والمثال لدينهم ولغتهم [٢] » .

وبعد هذه المجموعة من الدلائل التاريخية ، التي ربما امكن التحقق منها ، والبيانات الدينية والفكرية التي سبقتها ، فهذه خلاصة ما يقوله الامير رداً على سؤال للمندوب الهندي :

« فاذا علم السياسيون هذه الحقائق وتوابعها لا يحذرون من الخلافة العربية بل يرون من صوالحهم الخصوصية وصوالح النصرانية وصوالح الانسانية ان يؤيدوا قيام الخلافة العربية بصورة محددة السطوة مربوطة بالشورى على النسق الذي قرأته عليك [٣] .

ثم على فرض ان بعض الدول ولو المسلمة أرادت عرقلة هذا الامر فهي لا تقوى عليه لأن افكار الامم لا تقوم ، ولا تصادم على اني لا اظن بمثل فرنسا ان تنخدع لرأي انصار الجزويت لا سيما بعد ان تعلمت من الانجليز كيف تسوس المسلمين فأبقت لتونس اميرها فاستراحت مما عانته قبلاً من الجزائر بسبب السياسة التعصبية الخرقاء [٤] » .

ماذا يظن بتلك القرائن ؟

---

١ أم القرى ، ص ٢١٥ .

٢ أم القرى ، ص ٢١٥ ، يجب أن نعترف بأن ذلك لم يكن صحيحاً على الدوام ولكن يمكننا القول بأن أغلب الغزوات العربية قد تمت بلا قتال (صلح) .

٣ خاص بالمواد التي تنظم وظيفة الخليفة .

٤ أم القرى ص ٢١٥و ٢١٦ . هذه الجمل التي كتبت منذ أكثر من نصف قرن تأخذ تحت وقع التطورات الحاضرة ، معنى خاصاً جداً ؟

يتبين انها تقوم على نوع من حسن النية وموسومة باعتدال لا شك فيه . ولكن يظهر أن فكر المؤلف في هذه المسألة في الغالب نظرية ، وانه لمن الصعب في الواقع أن تعرف ما اذا كان التاريخ قد أثبت صحة رأيه، إذ أنه منذ بدء الغاء الخلافة في ٣ مارس سنة ١٩٢٤، بمعرفة المجلس الوطني التركي، لم تثمر أية محاولة لاعادتها وكذلك لا يمكن بالتأكيد تحديد ما قد يكون رد الفعل في البلاد الاوروبية ، وخاصة انجلترا ، لم تظهر معارضة تذكر لمولد « اتحاد البلاد العربية » في وقت ما على الأقل ، بالطبع لانهم وجدوا لهم فيه منفعة ، مما يؤكد بعض الشيء رأي الكواكبي .

ولنذكر أن مستر ايدن ، وزير خارجية بريطانيا ، هو الذي دعا الى تكوين وحدة سياسية عربية في تصريحه في يونيو سنة ١٩٤١ ، متماشياً أمام رغبات « الكثير من المفكرين العرب ». وفي الواقع أن بروتوكول الاسكندرية الذي اعلن في ٧ اكتوبر سنة ١٩٤٤، ومعاهدة القاهرة الموقع عليها في ٢٤ مارس سنة ١٩٤٥ ، تحددان « اتحاد البلاد العربية »وتعلن تعاونهما في الميادين ، مع احترام السيادات القومية الخاصة . وبذلك ولدت « جامعة الدول العربية » .

وما تبع ذلك من الحوادث أثبت أن هذه الجامعة قد لاقت صعوبات عديدة بسبب البلاد العربية نفسها واختلاف مصالحها السياسية ، من جهة، والدول الاوروبية وغيرها التي كانت تخلق لها المصاعب من كل نوع ، من جهة اخرى .

وانه لمن السابق للأوان ان نحكم على متانة هذا الاتحاد . فلنقل فقط إن رأي الكواكبي في انشاء « اتحاد فكري » قد لاقى شيئاً من التنفيذ المبدئي في سنة ١٩٤٥ . ومن الأهمية بمكان أن نبين انها ليست في الوقت الحاضر ، سوى جامعة دول عربية (لبنان المسيحي ضمنه) ،

وليست اسلامية (عدة بلاد اسلامية مثل تركيا وايران وباكستان والهند وبلاد اخرى ايضاً لم تشترك فيه)هذا الاتحاد الذي انعقد في سنة ١٩٤٥، لا يخص سوى البلاد المستقلة الناطقة باللغة العربية . ونحن لا زلنا بعيداً عن الاتحاد الاسلامي الذي يراه مؤلفنا .

خاتمة

يمكن القول ، عقب دراسة هذه الآراء الاصلاحية لعبد الرحمن الكواكبي ، في الميادين الثلاثة الدينية والاجتماعية والسياسية ، ان كل اهتمامه في مؤلفيه كان منصباً على « اندماج المسلمين في مقتضيات الحياة الحديثة » ، مع بقائهم محافظين على تعاليم النصوص المقدسة حتى ولو اضطر الأمر لتفسيرها تفسيراً حديثاً .

وهذه الفكرة الرئيسية توجد في أعماق كل من أبحاثه وهي الأساس لكل من الاصلاحات التي ينادي بها . حتى حينما يتخذ موقفاً يتفق مع أشد التقاليد تحفظاً ، كالحال فيما يختص بتقنيع المرأة وحجابها ، فانه يظن باخلاص ان هذه الوسيلة تليق بالشرقيين في حياتهم الحديثة وتتفق مع مصالحهم الحالية . ولكنه يجب أن لا يتبادر الى ذهننا ، باختيار هذا المثال ، أن روحه الاصلاحية قد انمحت لتحل محلها روح المحافظة . فليس هذا من الصحيح اطلاقاً . انه يعتقد أن المرأة يجب أن تتثقف وتحصل على المعلومات المفيدة لتدبير شؤونها المنزلية ، وتكون لها آراؤها الخاصة ، فتتمتع بارتفاع مكانتها في البيت والمجتمع . ولكنه يعتقد أيضاً أنه من المصلحة الخلقية ، وحفظاً لحقوق الأزواج وتقوية الصلات الزوجية ، أن تبقى المرأة مقنعة ومحجبة . ولنعترف انه نادراً ما يتخذ الآراء التقليدية

دون أن يعدل فيها . وفي الجملة يمكننا القول بأنه أظهر آراء عديدة حديثة لم يسبق أحياناً التحدث فيها في أوساط الشرق الاسلامية .

وقد جاء الكواكبي في وقت كانت فيه الحركة الاصلاحية قد بدأت سيرها بخطى متزايدة خلال البلاد الاسلامية وخاصة في مصر بفضل اثنين من الرائدين المعروفين . وان يكن الشيخ عبده هو الذي بدأ باعطاء هذه الحركة روحاً حديثة ، بما حققه من بعض الاصلاحات في ميداني المحاكم والتعليم . فمؤلفنا هو الذي استمر بمزيد من الاصرار في ذلك الطريق ، ودفع بأقواله وكتاباته هذه الحركة نحو التطور الحديث . وهذا الاتجاه يرتكز عنده على ثلاثة عوامل :

١ — « طبيعة تفكيره ذات أصل واقعي » ، ونراها في بعض الاحيان عملية نوعاً ما ، وتلك صفة ندر أن نراها لدى المفكرين المسلمين حتى الحديثين منهم ، ولقد لفتنا النظر الى هذه النقطة مرات عديدة خلال هذه الدراسة . ولنذكر مثلاً : الفهرس لترتيب التعاليم الدينية حسب الاحكام الشرعية في كل عبادة ، وكل مسألة خاصة بالحياة العائلية والاجتماعية ، والحل الدقيق الجديد الذي اوجده لموضوع الخلافة ، وآراؤه البصيرة في الجهاد ، والطريقة الواقعية التي أوضح بها ظروف الفتوحات ، وقوانين الجمعية التي يريد انشاءها والمبادىء التي يجب اتباعها للتخلص من الاستبداد ، واخيراً تطبيق « الاجماع » على وجه حقيقي .

٢ — قوة ملاحظته الدقيقة تجعلنا نستفيد خلال مؤلفه ببيانات محددة ملموسة ، وتحليلات نفسية وطبيعية اجتماعية في منتهى الروعة . الطريقة المفصلة التي درس بها الاستبداد في جميع مظاهره ، وفي جميع ميوله الأشد خفية ، ودراسته للشخصيات ، وتحليله للمجد هي أمثلة تستدعي الانتباه . هذه الصفة التي يستطيع بها أن يدرك الحقيقة من الواقع ويحللها ، ليست في الغالب من طبائع المفكرين العرب . هذا الأمر يستحق الذكر .

٢ — ثقافته الواسعة المتأثرة بالتحرر الغربي والتي يعاونها خيال منتج ،

تجعله يبتكر حلولاً مطبوعة بروح واسعة وديموقراطية متسامحة ، تأخذ في بعض الأحيان اتجاهاً ثورياً عند المسلمين من اهل السنة في عصره . فتخيله لهذا المؤتمر بجميع تفاصيله ، واستبداله اجتهاد أئمة المذاهب باجتهاد كل معاصر قدير لايجاد الحل المناسب للظروف الحالية في المسائل الاجتماعية والعائلية ، والتفرقة بين كل من السلطة الدينية والسلطة السياسية ، والصراع العنيف ضد الغفلة ، والتواكل الكسول ، والتنظيم المنطقي لحياة الفرد واقتصاديات الأمم ، والتفاته الى التوجيه المهني للفرد حسب مواهبه ، والتعليم الموجه نحو الفنون والعلوم النافعة ، ورغبته في الحكم الدستوري والديموقراطي . وبذور الحكومة المدنية المقترحة في الدستور المقبل .. وغير ذلك . فهي جميعاً أدلة قاطعة . وبعض هذه الآراء تبدو جريئة لدى المسلمين حتى في أيامنا هذه ، في أعين المسلمين ، وبالأحرى كانت كذلك عند ظهور مؤلفات الكواكبي عام ١٩٠٠ .

إن اتجاهه بعزم نحو التطور الحديث بفضل عوامله الثلاثة ، لم يمنعه من أن يقع في بعض الأحيان في الخطأ بين السائدين عند أغلب المفكرين المسلمين :

١ — ولنتكلم اولاً عن « الحماس في الدعوة » فانه اذا ما أراد أن يخلط العقيدة بالتحليل العقلي اضطر الى تحريف هذا التحليل .

وان هذا الميل قد دفع بمؤلفنا لان يظن ، وبحسن نية يدهش لها بالنسبة للفكر الواقعي الذي يبديه في الامور الاخرى ، ان القرآن ينبه على جميع الاكتشافات الحديثة ، وان الزكاة والكفارة هما أساس النظام الاقتصادي المتعادل الاشتراكي ، وانه في خلال هذه الفترة التي لا تتجاوز قرناً واحداً قد اعتنق الاسلام عدد كبير من المستشرقين وآراء اخرى من نفس النوع. وذلك يدفع المؤلف الى اوهام تبلغ حد الطفولة امام بعض المصاعب مثل الطريقة التي يزعم بها الانتصار بسهولة على العلماء المحافظين ، وتوهمه ان العقبات التي قد تعترض جمعيته المستقبلة في وقت انشائها ما هي إلا

صعوبات مالية فقط .

١ ـ والخطأ الثاني هو « نقص الترتيب في العرض » ، وهو من الصعب تحمله ، وخاصة انه اذا بدأ فكرة في مؤلف اكملها في الآخر ، دون أن يلفت نظر القارىء ، ومثال ذلك بيانه لإعجاز القرآن وهذه النقطة لها اهمية كبيرة في ذهنه. وكان نتيجة ذلك التشتيت وتكرار الافكار والتطويل في الشرح ، مما لم يكن من شأنه تسهيل مهمتنا . ولقد ذكرنا بعض هذه الفقرات والتي بها نفس الفكرة بشرح مطول بلا تقدم ملحوظ فيها، مما اضطرنا لتلخيص رأي المؤلف . هذا « التدقيق » أو « وضع النقط على الحروف » هو من خصائص العرب ، كما يقول « جيب » ، تقـل حدتها عنده بالنسبة الى منطقه ذي التأثير الغربـي . والواقع اننا نكتشف احياناً محاولة ساذجة في الترتيب ، مثل اعادة تلخيص اسباب انحطـاط المسلمين ، الموزعة على خمس مواد ولكن هذا الترتيب له طابع مختلط .

وأما الأسلوب فله طابع خطابي واضح : متدفق ، سلس ، مزخرف بعبارات طويلة ، أو بجمل قصيرة مكررة منسقة ، تعطي في مجموعهـا لوناً من الجمال . فهو الأسلوب الذي نجده في الصحافة الرفيعـة ، وفي التصريحات العامة وفي خطابات الخطباء المثقفين وفي الفقرات التي يعرض فيها القوانين أو المبادىء الشرعية ، نجد الأسلوب قد اتخذ الطابع الاداري أو القضائي . ولقد لاحظنا أحياناً بعض نقط ضعف لم تكن جميعها غير ارادية ، حيث اننا قد ذكرنا أن المؤلف قد نسب الى بعض المندوبين من غير العرب في المؤتمر تصريحات بلغة غير سليمة وغير موثوق بها .

ونود لكي نختـتم ان نذكر بالضبط الغرض الذي يرمي اليه المؤلف في انتاجه ، فهو نوع الجمع بين مختلف الحلول المبنية على فكرته الأساسية، وهذا الغرض لا نراه واضحاً الا في نهاية مؤلفه الثاني أم القرى ، وهو « النهضة الاخلاقية والدينية عند جميع المسلمين » بفضل أعمال « جمعية الموحدين » . هذه النهضة لا بد من ان تساعد على تحقيق « اتحاد روحي

متين تحت زعامة (الخليفة) » ، وذلك يؤدي طبيعياً الى تقوية العلاقات السياسية بين البلاد الاسلامية المستقلة ذات النظام الديموقراطي ، حتى تتعاون مع بعضها البعض . ويبدو أن المؤلف يرمي الى الوحدة السياسية ولكن بدون اقتناع كاف . ويمكننا اذن ان نستنتج عقب هذه الاعادة التلخيصية ، ان الكواكبي كان اول مفكر اسلامي بعد الشيخ عبده تتضح شدة عزمه على التقدم . انه يقترح في الواقع نظاماً واسعاً للاصلاحات أملته عليه ميوله « الواقعية » ، وروحه الديموقراطية المتسامحة ، ولكنه أيضاً مطبوع بالجرأة في أعين اخوانه في الدين .

ويمكننا ايضاً القول انه في الحقبة الحديثة كان أول من نادى بطريقة واضحة ومحددة بفكرة فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية ، والغاء أساس « الخلافة الروحية » ، ونظام حكم « دستوري ديموقراطي » ، وأن يثير موضوع الدولة المدنية. وانه ليستحق لقب الطليعة وحده في تلك الامور رغم اننا نجد لديه نقطاً عديدة مشتركة مع المفكرين الاصلاحيين في عصره . غير انه عقب الشهرة الكبيرة التي حازها بنشره مؤلفيه ، واللذين لا زالا معروفين نوعاً ما حتى اليوم في الشرق ، فان الكواكبي قد تناسته الاجيال اللاحقة ، الذين يحكمون بلا شك على بعض آرائه بأنها كثيرة الجرأة بحيث لا يمكن تحقيقها .

وفي الساعة الحالية والمسلمون على ما يلوح لم يتوصلوا بعد لايجاد الحل الصالح النهائي لمشكلة اندماج الاسلام بالحياة الحديثة ، وفي الوقت الذي تجتاز فيه الامم الاسلامية حالياً أزمة سياسية فان أغلبهم لا يزالون يبحثون عن طريقهم . وان هناك ظاهرة من الفضول تتجه نحو مؤلفنا مما قد تخرجه من الظلام الذي احيط به بعد سنوات من مماته .

المراجع

أ ـ مؤلفات عربية غير مترجمة

١ ـ مؤلفات

أحمد أمين : زعماء الاصلاح ـ القاهرة ١٩٥١ .

لويس شيخو : الآداب العربية في القرن التاسع عشر (مجلدين) ـ
Louis Chikho : المجلد ٢ من ١٨٧٠ الى ١٩٠٠ ـ بيروت ١٩١٠ .
نشر في المصري في السنوات العاشرة حتى الثالثة عشرة ـ ١٩٠٧ الى ١٩١٠ .

جمال الدين القاسمي : المتون الأصولية ـ دمشق بدون تاريخ .

كوستاكي الحمصي : أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر ـ حلب
Qustaki Al - Himsi : سنة ١٩٢٥

قاسم أمين : تحرير المرأة ـ القاهرة ـ ١٨٩٩ .

محمد فريد وجدي : المدنية والاسلام ـ القاهرة ـ أول طبعة ، ١٨٩٨ ـ ثاني طبعة ١٩٠٤ ـ ثالث طبعة ، ١٩٣٣ .

رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده — القاهرة.

الشيخ محمد عبده : الاسلام والنصرانيــة مع العلم والمدنية — القاهرة ١٣٢٠ = ١٩٠٢ .
— تفسير القرآن الكريم — القاهرة .
— العقائد العدوية .

الشيخ راغب طباع : تاريخ حلب — مجلد ٧ — مذكرة من الكواكبي.

سيد توفيق البكري : المستقبل للاسلام — القاهرة — بدون تاريخ .

طنطاوي الجوهري : الجواهر في تفسير القرآن الكريم — القاهرة — ١٣٤١= ١٩٢٢ وما يليها .

ف. دو ترازي Ph. de Tarrazi : تاريخ الصحافة العربية — بيروت — مجلد ١ و ٢ — سنة ١٩١٣ — ملحوظة : فرات .

جورجي زيدان : تراجم مشاهير الشرق — الطبعة الثالثة — القاهرة — مجلد ١ — صحيفة ٣٢٢ الى ٣٢٤ .

٢ — الجرائد والمجلات

الاهرام ، المؤيد ، المنار : القاهرة

المصري : بيروت

الحديث : حلب

ب ــ مؤلفات عربية مترجمة

علي عبد الرازق : الاسلام واصول الحكم ــ القاهرة ــ ١٩٤٣ ــ ١٩٢٥ ترجمه
الى الفرنسية ليون برشيه تحـت عنـوان
١٩٣٣ كراسه ٣ صحيفة ٣٥٣ الى ٣٩١
١٩٣٤ كراسه ٣ صحيفة ١٦٣ الى ٢٢٣

جمال الدين الافغاني : الرد على دهريين ــ مؤلف محرر بالفارسية ــ مترجم
للعربية بمعرفة الشيخ عبده (بيروت ١٨٨٥) ــ ثم ترجمه الي
الفرنسية أ. م. جواتشون
باريس ــ ١٩٤٢ .

ابن ابي زيد الكيراواني : الرسالة ــ الصيغة العربية والترجمة الفرنسيـة
بمعرفة ليون برشيه ــ الطبعة الثالثـة ــ
الجزائر ــ ١٩٤٩ .

رشيد رضا : الخلافة أو الامامة العظمى ــ القاهرة ــ ١٩٤١ ــ ١٩٢٢ ــ
مترجمه للفرنسية مع ملاحظات بمعرفة هنـري لاووسـت
بيروت ــ ١٩٣٨ .

الشيخ محمد عبده : رسالة التوحيد ــ ترجمت للفرنسية بمعرفة ب. ميشيل
ومصطفى عبد الرازق .
باريس ــ ١٩٢٥ .

القرآن الكريم : ترجمة ومحاولة لترتيب السور بمعرفة ر. بلاشير
باريس ــ ١٩٤٩ الى ١٩٥١ ــ ٣ مجلدات .

فهرست



هذا الكتاب

عرف الإسلام خلال قرون نوعاً من الجمود القاتل تحول فيها إلى عقيدة منكمشة على ذاتها، ضيقة الأفق، حتى ظُنّ إن الطاقة الديناميية في الأسلام قد استُنفدت، وانه بالتالي بات مقصراً عن مجاراة التطورات العصرية في مختلف الميادين .. إلى أن ظهر أول رد فعل عصري في جزيرة العرب على يد محمد بن عبد الوهاب، ثم تلته ردود الفعل في شتى الأقطار الإسلامية: الحركة السنوسية في ليبيا، والحركة المهدية في السودان وجمال الدين الافغاني ومحمد عبده.

في هذا الجو الفكري العنيف نشأ الكواكبي مفكراً ثورياً حراً، وجاب البلاد العربية الإسلامية باحثاً ومنقباً، ثم وضع لنا كتابيه اللذين ركز فيهما ثورته على الجمود وآراءه الاصلاحية: أمّ القُرى، وطبائع الاستبداد.

وهذا الكتاب الذي ألّفه المستشرق الفرنسي نوربير تابييرو دراسة قيّمة لآراء هذا المفكر الاصلاحي الكبير ونقد نزيه لها، وهو بحق مساهمة فعّالة ونموذج يحتذى في سبيل دراسة مفكري الاصلاح في العصر الحديث دراسة حرة بنّاءة.

ويتضمّن الكتاب تلخيصاً وافياً لكتابي الكواكبي الشهيرين: أم القُرى وطبائع الاستبداد.

الثمن . او ما يعادلها